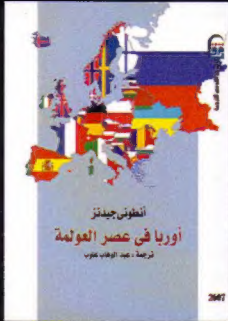


أنطوني جيدنز

# أوروبا في عصر العولمة

ترجمة : عبد الوهاب علوب





إن نموذج أوروبا الاجتماعي - أي منظومة الرعاية والحماية الاجتماعية فيها - يعتبر في رأي الكثيرين ذرة التاج. فهو ما يساعد على إعطاء المجتمعات الأوروبية سماتها المميزة من التماسك الاجتماعي ورعاية الضعفاء. إلا أن هذا النموذج الاجتماعي تعرض لضغوط بالغة في عديد من دول الاتحاد الأوروبي في السنوات الأخيرة، فظلت البطالة مثلاً على ارتفاع معدلها. وضاعفت التوترات الناتجة عن السخط على المشروع الأوروبي برمته، وبلغ ذروته في رفض دستور أوروبا الجديد المقترح.

إذن فإصلاح النموذج الاجتماعي أمر ملح، ولا بد أن يواكبه سعي لتنشيط النمو الاقتصادي. ويمكن للعناصر الأضعف في أوروبا في السنوات القليلة الماضية أن تتعلم الكثير من الدول التي تعاملت بشكل أكثر فعالية. ولكن لا بد من إدخال تغييرات جذرية في مواجهة تأثير العولمة وتنامي التنوع الثقافي وتغير التركيبة السكانية. ويرى المؤلف أن دولة الرفاه التقليدية تحتاج لإعادة نظر. ولا بد من إدخال تغيير نمط الحياة في قلب ما تعنيه كلمة "رفاه". كما يجب ربط قضايا البيئة بشكل مباشر بسائر التزامات المواطن. وهذه التغييرات لا بد أن تتم في توقيت واحد مع تطوير موقف أوروبا التنافسي.

وهذا الكتاب بما يمتاز به من أصالة وجدة لا يقل في مستواه عن " وراء اليمين واليسار " و " الطريق الثالث " وغيرهما من أعمال أنطوني جيدنز التي ساعدت على إعادة صوغ الفكر الاجتماعي والسياسي في العقود الأخيرة.

**أوروبا فى عصر العولمة**

المركز القومي للترجمة  
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور  
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2607
- أوروبا في عصر العولمة
- أنطوني جيدنز
- عبد الوهاب علوب
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

Europe in the Global Age

By: Anthony Giddens

Copyright © Anthony Giddens 2007

The right of Anthony Giddens to be identified as Author of this Work has  
been asserted in accordance with the UK Copyright,

Designs and Patents Act 1988.

This edition is published by arrangement with Polity Press Ltd., Cambridge.

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org

Tel: 27354524

Fax: 27354554



# أوروبا فى عصر العولمة

تأليف: أنطونى جـيدنز

ترجمة: عبد الوهاب علوب



بطاقة الفهرسة  
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشؤون الفنية

جينز، أنطوني  
أوربا في عصر العولمة، تأليف: أنطوني جينز؛ ترجمة:  
عبد الوهاب علوب .  
ط١- القاهرة- المركز القومي للترجمة؛ ٢٠١٥  
٣٢٨ ص ، ٢٤سم  
١ - أوربا - الأحوال الاجتماعية.  
٢ - أوربا - تاريخ.  
٣ - العولمة.  
(أ) علوب ، عبد الوهاب (مترجم)  
(ب) العنوان  
٣٠٩،١٤٠

رقم الإيداع ١٦٤٥٤ / ٢٠١٤

الترقيم الدولي : 8-784-718-977-978 - I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

إلى أين





## المحتويات

|     |  |
|-----|--|
| 9   | ..... تصدير  |
| 13  | ..... - تعريف ببعض المصطلحات المستخدمة في الكتاب                                   |
| 17  | ..... الفصل الأول: النموذج الاجتماعي   |
| 55  | ..... الفصل الثاني: التغيير والتجديد في أوروبا                                     |
| 93  | ..... الفصل الثالث: العدل الاجتماعي والتقسيمات الاجتماعية                          |
| 141 | ..... الفصل الرابع: من الرعاية الاجتماعية السلبية إلى الرعاية الاجتماعية الإيجابية |
| 191 | ..... الفصل الخامس: تغيير نمط الحياة   |
| 227 | ..... الفصل السادس: على مستوى الاتحاد الأوربي                                      |
| 271 | ..... الفصل السابع: ثمانى أطروحات عن مستقبل أوروبا                                 |
| 313 | ..... ملحق: رسالة مفتوحة عن مستقبل أوروبا  |
| 319 | ..... مسرد مصطلحات   |





## تصدير

عجل بوضع هذا الكتاب بضعة تعليقات أدلى بها رئيس الوزراء البريطاني أنطوني بلير في خطاب ألقاه أمام مجلس النواب الأوربي في يونيو ٢٠٠٥. ففي ذلك الخطاب أكد على التزامه بالمشروع الأوربي و"النموذج الاجتماعي" الأوربي، إلا أنه تساءل: أى نموذج اجتماعي هذا الذى يترك ما يقرب من عشرين مليوناً من الناس عاطلين في الاتحاد الأوربي؟ إن أنظمة الرعاية الاجتماعية في أوروبا بحاجة لإصلاح جذري.

ألقى هذا الخطاب الذى ترك أثراً هائلاً في أوروبا قبيل بدء رئاسة بريطانيا للاتحاد الأوربي. والتي استمرت من أول يولية إلى آخر ديسمبر ٢٠٠٥. وأنشئت لجنة متصلة بتلك الرئاسة بغرض تحليل سلامة النموذج الاجتماعي واقتراح إجراء أية إصلاحات لازمة. ولم يكن الهدف الإيعاز بأى توجه "أنجلو سكسونى"؛ بل النظر للأمور بعيون محايدة. وشارك في المشروع عشرون فرداً تقريباً من مختلف أنحاء أوروبا، وأسهموا جميعاً بأبحاث. وأقيمت ندوات نظمها مركز بحوث "شبكة السياسات" في عديد من بلدان أوروبا وضمت قادة سياسيين وباحثين.

أثمر هذا المسعى كتابين مهمين، أحدهما من إعدادى بمشاركة باتريك دياموند وروجر ليدل بعنوان "أوروبا الأملية، أوروبا الاجتماعية"؛<sup>(١)</sup> والآخر بعنوان

---

(١) انظر

Global Europe, Social Europe. Polity, 2006.

"جدول أعمال ساحة هامبتون: نموذج اجتماعي لأوروبا".<sup>(١)</sup> وفصلنا الافتتاحي في هذا الكتاب يتداخل إلى حد كبير مع الفصل الأول من كتاب "أوروبا الأممية، أوروبا الاجتماعية" الذي كتب أولاً.

تأثرت هذه الدراسة إلى حد بعيد بالنقاشات العديدة التي شاركت فيها. واعتمدت عليها فيما تلا، ولو أن هذا الكتاب يمثل رأياً شخصياً ولا يمثل رأياً جماعياً.

إذا كنت أركز في نقاشي على أوروبا؛ فإنني أرى أن فحواه يمتد إلى ما هو أبعد. فكل البلدان المتقدمة تواجه مشكلات مماثلة وتُمر بتغيرات اجتماعية واقتصادية عالمية وتحولات كبرى في العمل والأسرة والحياة اليومية. من ثم فإنني أتطلع لأن يكون لما سأقوله وقع على الناس في بقاع أخرى. فسأتناول البلدان الأقل تقدماً أيضاً. والبلدان التي تفقر إلى أنظمة رعاية اجتماعية فعالة - ومنها القويان العالميتان الصاعدتان الصين والهند - وسيتحتم عليها أن تنشئها إذا أرادت أن تقيم مجتمعات متكاملة وشاملة. وهي في ذلك قد تتعلم من إنجازات الدول الأكثر تقدماً ومن أخطائها على السواء.

للكتاب أهداف عدة، أولها تحديد السياسات الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة في أوروبا واستخلاص الدروس منها. وأنا في هذا الصدد لا أقصر نفسي على الاتحاد الأوروبي دون غيره، بل أستقي الشواهد من بقاع أخرى في العالم. وهناك جدل مستمر وحاد حول ما إذا كان للنموذج الاجتماعي الأوروبي مزايا تنافسية أم أنه يشكل عائقاً اقتصادياً. وهناك في الحقيقة نماذج اجتماعية أوروبية عديدة حقق بعضها نجاحاً أكثر من غيره. وتبين الشواهد أن البلدان التي تمكنت من الإصلاح نجحت في السوق العالمية وحافظت على مستويات عالية من العدل

---

(١) The Hampton Court Agenda: A Social Model for Europe, Polity Network, 2006.

الاجتماعى. وبعيداً عن النموذج الذى يعرقل غيره فهى تدعم بعضها بعضاً. ويعتمد مستقبل أوروبا - بل ربما استمرار بقاء الاتحاد الأوروبى باعتباره قوة كبرى - على تعميم هذه الإصلاحات.

لا تزال هذه الإصلاحات غير كافية مع أنها أساسية. وعلينا أن نفكر بصورة أجراء. فالنقاش المكثف لنشأة الاقتصاد القائم على المعرفة، والذى دار فى أوروبا لم يواكبه تحليل موازٍ للتغيرات الاجتماعية. وبدون هذا التحليل لا أمل فى أن تكون لدينا برامج فعالة للعدالة الاجتماعية والرخاء الاجتماعى.

بعض التحديات التى تواجه أوروبا تواجه المجتمعات المتقدمة جميعاً، ومنها ما يقتصر على السياق الأوروبى، لا سيما انهيار المجتمع السوفيتى الطابع فى شرق أوروبا. وعلى المرء أن يكف عن ادعاء أن الاتحاد الأوروبى بعد ١٩٨٩ ليس إلا نسخة مكبرة مما كان قبله. فهوية الاتحاد الأوروبى لا يمكن أن تكون كما كانت بينما له حدود مفتوحة شرقاً وأخرى بدأت تتفتح على الجنوب أيضاً.

كان النموذج الاجتماعى الأوروبى يعرّف فى جزء كبير منه بالتضاد مع الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية من ناحية وليبرالية حرية السوق الأمريكية من ناحية أخرى. هذا التعريف الذاتى لا يصلح اليوم. ففى تناول الإصلاحات والتحولات علينا أن نتجاوب مع ١٩٨٩، بل مع القوى والمؤثرات التى أدت إليها، والتى كانت تتصل فى المقام الأول بتعاظم موجة العولمة. لذا اخترت أن يكون عنوان هذا الكتاب "أوروبا فى عصر العولمة" تأسيساً بمارتن ألبرو.<sup>(١)</sup> فعصر العولمة حالة أو مجموعة من الظروف الاجتماعية الدالة على حدوث تحولات عديدة فى

---

(١) انظر:

.Martin Albrow, The Global Age. Cambridge: Polity, 1996



حياتنا. والعولمة عملية أو مجموعة مركبة من العمليات تشير إلى قوى ومؤثرات مسؤولة عن هذه التحولات.

هناك اليوم "صراعات على أوروبا". وهذه عبارة لها أكثر من مدلول. فثم صراع على أوروبا بمعنى صدام بين الصيغ المتباينة لما يمثلته "الاتحاد" والصيغة التي ينبغي أن يتخذ في المستقبل. ولكن هناك أيضا صراع يتحتم على أوروبا أن تخوضه لكي تثبت نفسها في عالم يشهد تحولات بعيدة المدى. وأنا أؤيد الاتحاد الأوروبي وأريد له أن يزدهر وأظنه قادرا على ذلك. إلا أن هذا لن يكون سهلاً وليس مضموناً بأي حال. وإذا أسهم هذا الكتاب ولو بالنزر اليسير في المناقشات الدائرة حول الوجهة التي ينبغي أن يتخذها الاتحاد من هنا فسيكون هذا مرضياً لي.

## تعريف ببعض المصطلحات المستخدمة في الكتاب

سياسة تنشيط سوق العمل: هي سياسة تتعلق بمساعدة الناس على اجتياز نقاط التحول في مسار حياتهم بنجاح.

الثقة النشطة: ثقة تقوم على مراقبة نزاهة الغير بطريقة واضحة ومتصلة.

التعددية الباتّة: هي تعددية تنتشر أشكالاً شتى من النفوذ ويدعمها لجوء محتمل لاستخدام القوة.

مجتمعات مسدودة: مجتمعات تحول فيها المصالح أو النزعة المحافظة البنيوية أو كلاهما دون تحقيق التغييرات المطلوبة.

مستهلكون مواطنون: للمواطنين حرية اختيار في النطاقات غير السوقية كالرعاية الصحية أو التعليم، لكن جودة الخدمة وكفاءتها تضمنها آليات عامة.

مواطنون مستهلكون: حرية الاختيار في المجالات السوقية هي الآلية التي تقود التحكم في الجودة بإجبار المنتجين على التنافس في الجودة والسعر.

الدولة الضامن: تعمل الدولة على تمكين المواطن وتقديم إطاراً من الضمانات منها الحد الأدنى للأجور.

النفاق الأوربي: الدعاية "للقيم الأوربية" دون اعتبار لماضي أوربا المثلون وسياساتها الحالية التي لا تتسق مع تلك القيم.

الواقعية الأوروبية: إطلالة واعية وطموحة على قدرات الاتحاد الأوربي الاجتماعية الجغرافية السياسية (ولا نقصد الواقعية بما لها من معنى فنى فى العلاقات الدولية) التحول الديمقراطي اليومى: تطبيق الحريات الجوهرية فى الحياة اليومية.

العولمة: تنامى الاعتماد المتبادل بين الأفراد والدول والمناطق. ولا تقتصر على الاعتماد المتبادل الاقتصادى، وتشمل سرعة التواصل، كما أن لها صلة بالأبعاد السياسية والثقافية.

الاقتصاد المعرفى/الخدمى: هو اقتصاد لا تعمل فى التصنيع والزراعة فيه إلا أقلية صغيرة؛ وتعمل الأغلبية فيه فى مهن خدمية وتقوم على المعرفة.

تغيير نمط الحياة: هو الرفاه الإيجابى متمثلاً فى تغيير العادات اليومية الضارة. المساواة الجديدة: سياسات تعمل قدر الإمكان على ربط تدعيم المساواة بتنمى الحيوية الاقتصادية.

الثقة السلبية: ثقة تقوم على رموز سلطوية مقبولة بحكم العادة أو الموروث. سياسة الفرص الثانية: هى سياسات تقدم الموارد للناس حتى "يبدأوا من جديد" فى شتى مجالات الحياة.

الرعاية الإيجابية: رعاية موجهة نحو أهداف الحياة الإيجابية بدلاً من الاكتفاء بالحد من الخطر.

المجتمع بعد الصناعى: مجتمع يتميز بتحول ديمقراطى ونزعة فردية وتنوع ثقافى يومى، وتغلب فيه المهن المعرفية أو الخدمية.



الرعاية الوقائية: هي سياسة رعاية تسعى للتدخل المبكر بدلاً من الاكتفاء بالتدخل بعد أن تسوء الأمور.

دولة الاستثمار الاجتماعي: استثمارات تقدمها أو تقننها الدولة في رأس المال البشري أو الاجتماعي.

أسواق العمل الانتقالية: هي أسواق العمل التي تعالج من منظور المراحل الانتقالية على مدى العمر.

مجتمع "يستعيد شبابه": هو مجتمع تتدمج فيه عادات الكبار في الحياة مع عادات الأجيال الشابة.



## الفصل الأول

### النموذج الاجتماعي

إن نظام التكافل الاجتماعي الأوروبي ينظر إليه غالبًا باعتباره درة التاج، وربما كانت هذه السمة الرئيسة التي تعطي المجتمعات الأوروبية طابعها الخاص. في مايو ٢٠٠٣ كتب اثنان من كبار مفكري أوروبا هما يورغن هابرماس وجاك ديريدا رسالة عامة عن مستقبل الهوية الأوروبية غداة حرب العراق. وهناك من يركنون إلى "ضمانات الرعاية الاجتماعية" لدولة الرفاه و"ثقة الأوروبيين في قوة الدولة الداعمة".<sup>(١)</sup> ويوافقهم في ذلك معظم المراقبين المتعاطفين مع مشروع الاتحاد الأوروبي. ويعد "النموذج الاجتماعي الأوروبي" (ESM) جزءاً أساسياً مما تمثله أوروبا أو صار كذلك.

اكتب ESM على جوجل. وسيظهر لك خمسة وخمسون مليوناً وثمانمئة ألف مادة! ولعل هذه الوفرة تعكس حقيقة فحواها أن "النموذج الاجتماعي الأوروبي" فكرة حولها كثير من الجدل كأفكار كثيرة غيرها تخص الاتحاد الأوروبي. ومع أن هذه الفكرة محورية فهي لا تخلو من بعض المراوغة حين نحاول أن نمسك بها ونثبتها. ويقال إن "النموذج الاجتماعي الأوروبي" لا ينحصر في أوروبا وليس اجتماعياً تماماً

---

(١) Jürgen Habermas and Jacques Derrida, 'February 15, or, what binds Europeans together', in Daniel Levy et al. (eds.), *Old Europe, New Europe, Core Europe*. London: Verso, 2005.

وليس نموذجًا.<sup>(١)</sup> وإذا كان المقصود به وجود مؤسسات تكافل اجتماعي فعالة والحد من الفوارق الاجتماعية فهناك دول أخرى لا تقل تقدمًا عن بعض دول أوروبا. فاستراليا وكندا تتفوقان على البرتغال واليونان، ناهيك عن معظم الدول الجديدة في الاتحاد الأوروبي الموسع الذي أصبح يضم خمسًا وعشرين دولة. و"النموذج الاجتماعي الأوروبي" ليس اجتماعيًا خالصًا، ذلك أنه أيا كان تعريفه يقوم في الأساس على الرخاء وإعادة التوزيع الاقتصادي. وهو ليس نموذجًا واحدًا، فهناك اختلافات كبيرة بين بلدان أوروبا من حيث أنظمة التكافل الاجتماعي فيها.

هناك تعريفات عديدة متداولة "لنموذج الاجتماعي الأوروبي" وإن كانت كلها تدور حول دولة الرفاهية. فيذكر دانييل فون وايتهد على سبيل المثال ما لا يقل عن خمسة عشر عنصرًا تشكل "النموذج الاجتماعي الأوروبي".<sup>(٢)</sup> وربما كان علينا أن نخلص إلى أن "النموذج الاجتماعي الأوروبي" ليس مفهومًا موحدًا، بل هو من قيم وإنجازات وتطلعات تتفاوت من حيث الشكل ودرجة التحقق بين دول أوروبا. ورؤيتي له كالتالي:

- دولة متقدمة وتدخلية تمولها مستويات مرتفعة نسبيًا من الضرائب
- نظام تكافل اجتماعي قوى يوفر حماية اجتماعية فعالة لكل المواطنين وبصورة خاصة للأكثر احتياجًا
- الحد من الفروق الاقتصادية وسائر الفوارق.

---

(1) Anna Diamantopoulou, "The European Social Model – myth or reality?". Speech at Labour Party Conference, Bournemouth, 29 September 2003.

(2) Daniel Vaughan-Whitehead, EU Enlargement versus Social Europe? London: Elgar, 2003.

وهناك دور رئيس في دعم هذه المؤسسات يلعبه "الشركاء الاجتماعيون" والاتحادات وسائر الكيانات التي تدافع عن حقوق العمال. وعلى كل سمة أن تتمشى مع دفع الرخاء الاقتصادى العام وإيجاد فرص العمل.

يقوم "النموذج الاجتماعى الأوروبى" على مجموعة عامة من القيم هى اقتسام كل من المخاطر والفرص فى المجتمع؛ تنمية التضامن أو التماسك الاجتماعى؛ حماية الأفراد الأضعف فى المجتمع عبر تدخل اجتماعى نشط؛ تشجيع التشاور بدلاً من المواجهة فى الصناعة وتوفير إطار قوى لحقوق المواطنة الاقتصادية والاجتماعية للسكان جميعاً.

## ضغوط وتوترات

من المتفق عليه بين المؤيدين والمعارضين على السواء أن "النموذج الاجتماعى الأوروبى" يتعرض حالياً لضغوط كبيرة، بل لعله يتداعى. ودولة الرفاه فى خطر. فهى لم تعد توفر ما كانت توفر من استقرار وأمن على مدار الثلاثين سنة الماضية. ومع ذلك فعلينا أن نبدأ بوضع هذا الموقف فى سياقه. إذ يتحدث البعض عن ستينيات القرن العشرين وسبعينياته باعتبارها "العصر الذهبى" لدولة الرفاه حيث كان هناك نمو اقتصادى لا بأس به، ونسبة بطالة منخفضة ورعاية اجتماعية للجميع - وكان بوسع المواطنين الشعور بدرجة من الأمان أكبر مما يشعرون به اليوم. ومن هذا المنظور تعرض "النموذج الاجتماعى الأوروبى" للهجوم من قوى خارجية، لا سيما ممن لهم صلة بالعولمة ومن يزدادون ضعفاً ومن تفككوا جزئياً.

إن الواقع أكثر تعقيدًا. فبالنسبة لدول أعضاء كإسبانيا والبرتغال ومعظم الدول المنضمة حديثًا للاتحاد الأوروبي لم يكن هناك عصر ذهبي على الإطلاق نظرًا لضعف إمدادات الرفاه وعدم كفايتها. وحتى في الدول التي تحظى بأنظمة تكافل اجتماعي متقدمة كان كل شيء أبعد ما يكون عن الذهبي في العصر الذهبي. فتلك حقبة كان يسيطر عليها الإنتاج الكمي والتراثيبات الهرمية البيروقراطية، وكانت أساليب الإدارة فيها استبدادية، وكان كثير من العمال يعملون في خطوط تجميع؛ وقليل من النساء من كانت لهن مهنة؛ ولم يلتحق بالتعليم العالي إلا نسبة ضئيلة من الشباب؛ وكانت شبكة الخدمات الصحية المتوفرة أقل كثيرًا مما هي عليه الآن؛ وكان كبار السن يحالون إلى التقاعد في سن محددة بشكل صارم. وبحسب الروح البيروقراطية للعصر كانت الدولة تعامل أتباعها بصورة عامة باعتبارهم رعايا سلبيين لا مواطنين فاعلين. وكانت بعض التغيرات التي طرأت على أنظمة التكافل الاجتماعي في السنوات الثلاثين الماضية تهدف لتصحيح هذه النقائص، وبالتالي كانت تقدمية وضرورية.

وتغير العالم إلى حد بعيد منذ "العصر الذهبي". و"النموذج الاجتماعي الأوروبي" والاتحاد الأوروبي نفسه يعتبران وفي جزء كبير منهما من نواتج عالم ثنائي الأقطاب - وهذه من النقاط التي يتناولها كتابنا هذا. وأدى سقوط سور برلين - أو ١١ سبتمبر أوروبا كما يسميه توماس فريدمان<sup>(١)</sup> - إلى تغيير طبيعة الاتحاد الأوروبي؛ حيث أثار مشكلات تتعلق بالهوية لا تزال عالقة دون حل - وانعكست فعليًا في رفض دستور الاتحاد الأوروبي من قبل شعبي فرنسا وهولنده.

---

(1) Thomas Friedman, The World is Flat: A Brief History of the Twenty-First Century. New York: Allen Lane, 2005.

نجم انهيار الكينزية فى الغرب وسقوط الشيوعية السوفيتية عن أسباب واحدة تقريباً، هى تسارع وتيرة العولمة ونشأة نظام معلوماتى عالمى وانكماش التصنيع (ونقله إلى البلدان الأقل تقدماً) إلى جانب ظهور أنماط جديدة من الفردية ونفوذ المستهلك. وهى ليست تحولات عابرة؛ بل لا يزال تأثيرها يواصل تقدمه.

كانت بلدان العالم النامى قبل عقدين من الزمان تنتج ١٠ بالمئة من سلع العالم المصنعة. وارتفعت هذه النسبة إلى ٢٥ بالمئة، وستصل إلى ٥٠ بالمئة فى سنة ٢٠٢٠ إذا استمرت التوجهات الراهنة. وسبقت الصين اليابان فى الآونة الأخيرة لتصبح ثانى أكبر اقتصاد فى العالم قياساً بالقوة الشرائية. والأرجح أن تسبق اقتصاد اليابان من حيث قيم سوق الصرف أيضاً فى غضون أقل من خمس سنوات.<sup>(١)</sup> وفى سنة ١٩٨٠ أنتجت البلدان التى تشكل حالياً الاتحاد الأوروبى عضوياته البالغة ٢٥ بلذا ٢٦ بالمئة من ناتج التصنيع العالمى. وفى سنة ٢٠٠٣ انخفضت هذه النسبة إلى ٢٢ بالمئة ومن المرجح ألا تزيد عن ١٧ بالمئة فى سنة ٢٠١٥.

لم تعد الشركات الكبرى تنتج سلعها وخدماتها قومياً، بل عالمياً وتكتف كلاً من تبادلها التجارى وتخصيصيتها المحلية. وفى سنة ٢٠٠٣-٢٠٠٤ نما التبادل التجارى العالمى بضعف سرعة الناتج العالمى. والتبادل التجارى المتعدد الجنسيات فى مجال الخدمات ينمو بسرعة وتتقدمه الهند. حيث حققت صادرات الخدمات الهندية نمواً زاد بلغة النقد من خمسة مليارات دولار فى سنة ١٩٩٠ إلى أربعين مليار دولار فى سنة ٢٠٠٤.

---

(1) Gordon Brown, Global Europe. London: Treasury, 2005, p. 5.

والتنافس من جانب الاقتصاديات النامية لم يعد يتركز في السلع المنخفضة التكلفة وحدها. فالصين والهند وضعتا استثمارات ضخمة في التقنية، لا سيما تقنية المعلومات والاتصالات، وتنتج كل منهما أربعة ملايين خريج سنوياً. ولا أحد يدرى إلى أى مدى ستصل الاستعانة بمصادر خارجية فى مجال الخدمات مع الأخذ فى الاعتبار أنها تتبع جزئياً تقنية الحواسيب واتساع دائرة مستخدمي هذه التقنية. إلا أن تعقيد الخدمات التى يمكن الاستعانة فيها بمصادر خارجية يزداد بسرعة. والخدمات المالية والقانونية والتقنية الراقية والصحفية والطبية من بين الخدمات التى يرجح أن تكون الأكثر تأثراً، وهى قضايا سنتناولها بشكل أكثر تفصيلاً فى الفصل الثانى.

يعتمد النموذج الاجتماعى على الرخاء الاقتصادى العام الذى يفترض أن يسهم فيه. إلا أن الأداء الاقتصادى للاتحاد الأوروبى تسبب فى السنوات العشرين الماضية فى عودة شعور سابق بالقلق. فالاتحاد الأوروبى تخلف عن الولايات المتحدة بالمعايير القياسية للنجاح الاقتصادى. وكانت أوروبا (الغربية) من قبل فى طليعة التحول الاجتماعى والاقتصادى؛ والخطر قائم فى أن يتخلف الاتحاد الأوروبى عن التاريخ. والتقدم الذى نجم عن دعم السوق الواحد وإدخال اليورو لم يؤد إلى إحياء اقتصادى.

نحن نعلم من نتائج الدراسات أن القضايا التى شغلت الناخبين فى الاستفتاءات فى فرنسا وهولندا لم تكن تتعلق بالدستور فى المقام الأول. ففي فرنسا كانت نسبة ٧٥ بالمئة ممن أدلوا بأصواتهم فى الاستفتاء ونسبة ٦٦ بالمئة ممن أدلوا بأصواتهم بالرفض لا تزال تؤمن بضرورة وضع دستور لأوروبا. وكان الوضع أعقد فى هولندا، حيث كان بعض ممن أدلوا بأصواتهم بالرفض قلقين على خضوع دول صغيرة لهيمنة دول كبيرة. إلا أن المشاغل الاجتماعية والاقتصادية



فى كلا البلدين حظيت بالاهتمام الأول - وهى مشاغل تتعلق بفرص العمل وكفاية الرعاية الاجتماعية. واعتُبرت التحولات التى يشهدها الاتحاد الأوروبى لا سيما ما يتعلق بتوسيع نطاق عضويته من المسائل التى يرجح أن تزيد من تعقيد وضع معقد فعلاً.

هناك بعض المعلقين يقللون من شأن الصعوبات الاقتصادية التى تواجهها أوروبا لا سيما حين يقارن الاتحاد الأوروبى بالولايات المتحدة،<sup>(١)</sup> ويقولون إن الأوروبيين اختاروا أسلوب حياة. إذ قايسوا مستوى ما من النمو الممكن فى مقابل وقت فراغ أكبر مما يحظى به معظم الأمريكيين. ومع ذلك فالإنتاجية فى بعض دول الاتحاد الأوروبى تتنافس نظيرتها فى الولايات المتحدة. ونظرًا لأنظمة الرعاية الاجتماعية الأقوى فى أوروبا فإن تعداد الفقراء من العمال فى دول الاتحاد الأوروبى أقل منهم فى الولايات المتحدة.

لكن هذه الأفكار ليست مقنعة كما أوضح غيرنا.<sup>(٢)</sup> فمتوسط النمو فى الاتحاد الأوروبى حين كان يضم خمس عشرة دولة عضواً انخفض بالمعدل النسبى سنوياً منذ ثمانينيات القرن العشرين. ولم يتجاوز إجمالى الناتج المحلى للفرد نسبة ٧٠ بالمئة من مستوى الولايات المتحدة فى تلك الفترة. فحققت الولايات المتحدة نمواً أعلى وقدراً أكبر من الاستقرار الاقتصادى الكلى فى تلك الفترة. وحوالى ثلث الفارق فى إجمالى الناتج المحلى للفرد عن الولايات المتحدة يتمثل فى متوسط إنتاجية عمالة أقل، وثلث فى ساعات عمل أقل والثلث الأخير فى نسبة عمالة أقل. ولا يتأتى أى من هذه الاعتبارات بصورة اختيارية تماماً، وكلها تؤثر على فعالية

---

(١) انظر مثلاً:

Jeremy Rifkin, *The European Dream*. Cambridge: Polity, 2004.

(٢) انظر :

André Sapir et al., *An Agenda for a Growing Europe: Report of the High-Level Study Group*. Brussels: European Commission, July 2003.

النموذج الاجتماعي الأوروبي. فالبطالة أعلى بكثير مما هي عليه في الولايات المتحدة. وهناك ٩٣ مليوناً من الخاملين اقتصادياً تحت سن الستين، وهي نسبة تفوق نظيرتها في الولايات المتحدة بكثير.

وكثير من الناس في أوروبا ومن بينهم كثير من الشباب - ومن تخطوا الستين - يريدون أن يعملوا ولكنهم لا يستطيعون. ويصدق ذلك على المهاجرين أيضاً. وحققت الولايات المتحدة نجاحاً أكبر مما حققته دول الاتحاد الأوروبي في دمج المهاجرين في سوق العمل. فكانت نسبة العاطلين من الأجانب في الاتحاد الأوروبي حين كان يضم خمس عشرة دولة عضواً في سنة ٢٠٠٢ أعلى من ضعف نسبتهم بين المواطنين المحليين. وفي الولايات المتحدة تكاد النسبتان أن تتساويا. وصاحب ضم عشر دول جديدة لعضوية الاتحاد سلسلة من المشكلات البعيدة تماماً عن "إثثار وقت الفراغ". إذ أدى لزيادة سكان الاتحاد الأوروبي بنسبة ٢٠ بالمئة، بينما لم يزد إجمالي الناتج المحلي إلا بنسبة ٥ بالمئة. وزادت مشكلات الفوارق والاندماج في الاتحاد الأوروبي ككل وفيما بين دوله الأعضاء.

## العولمة

هناك كثير من التحديات مما يجب على أوروبا أن تتعامل معه. ولهذه التحديات بعض التأثيرات الكبرى على النموذج الاجتماعي. ولكن من الخطأ التركيز على العولمة وحدها في تناول الضغوط التي تؤثر على أنظمة الرعاية الاجتماعية. فبعض المشكلات الأساسية التي تواجهها دول الرفاه في أوروبا مصدرها التحول الهيكلي الداخلي. وهي تحولات تتصل بشكل مباشر بالعولمة (حيث إن كل التحولات كذلك) ولكنها ليست ناجمة عنها تماماً. وهذه نقطة مهمة

ويجب تسجيلها حيث يستدعى بعض المحللين شبح العولمة فى تعليل المشكلات المتأصلة محلياً وتأخر الإصلاح.

وملف تغير خارطة الأعمار فى أوروبا مثال على ذلك. ففي الاتحاد الأوروبى هناك حالياً ما يقرب من ٧٠ مليون نسمة فى سن الستين أو فوقها، بنسبة تبلغ ٢٠ بالمئة من السكان. وأكثر من ٣٠ بالمئة فى سن الخمسين أو فوقها. ومن العوامل التى تؤدى لشيخوخة السكان أن الناس فى المتوسط أصبحوا يعيشون أعماراً أطول مما كانوا فيما مضى. وهناك سبب أولى آخر يتمثل فى انخفاض معدل الوفيات. وهى حقيقة يسهل إدراكها إذا قارنا الاتحاد الأوروبى بالولايات المتحدة. فعلى أثر توسعه الأخير أصبح الاتحاد الأوروبى يضم ٤٥٥ مليون نسمة مقارنةً بـ ٢٩٥ مليوناً فى الولايات المتحدة. ولكن لو استمرت المعدلات الراهنة فسيستساوى السكان بالفعل فى كليهما فى أواسط القرن.<sup>(١)</sup> ومعدلات المواليد فى الولايات المتحدة فى مستوى الإحلال. أما فى الاتحاد الأوروبى بأعضائه الخمسة والعشرين فبمتوسط ١,٥ لكل ألف امرأة، وفى بعض البلدان ينخفض المعدل إلى ١,٢. ولو ظلت الأمور على حالها فى إيطاليا مثلاً فإن تعداد من هم فى سن العمل (١٩-٦٥) سينخفض بنسبة ٢٠ بالمئة فى سنة ٢٠٣٥.

تأثر الانخفاض الحاد فى تعداد العاملين فى التصنيع فى بلدان الاتحاد الأوروبى بنقل الصناعة إلى العالم النامى، وبالتالي بالعولمة الاقتصادية. ولكن ليس هذا السبب الأول؛ بل هو تأثير التحول التقنى الذى أدى لخفض الحاجة للعمالة البشرية فى عديد من الصناعات أو أحال المزيد من عمليات الإنتاج التقليدية للتقدم. فصناعة العربات مثلاً أصبحت آلية تماماً أو تكاد؛ وتقلصت صناعة الفحم فى معظم البلدان نظراً لانتشار التحول إلى الغاز الطبيعى. ومرة أخرى نقول إن

---

(1) The Economist, 30 September 2004.

التفاعل بين التأثيرات "الداخلية" و"الخارجية" هي الأهم بالطبع. وتسارع التحول التقنى ناجم عن تنامي التنافس.

وهناك مثال آخر، فأنماط الفقر والإقصاء الاجتماعى وإن تأثرا بالعولمة فإنهما تأثرا بالتحولات الداخلية أيضاً ومنها التحولات فى تركيبة الأسرة. فمعدلات الطلاق فى أغلب بلدان الاتحاد الأوروبى أعلى ومعدلات الزواج أقل مما كانت فيما مضى. والأسر أكثر تنقلاً وقد تنفقر إلى صلات القربى الممتدة التى كانت تمثل فيما مضى مصدراً للدعم الاجتماعى. كما أن هناك ظهور ما يعرف "بالأسرة غير التقليدية" - أى النساء اللاتى ينجبن دون زواج، وزواج المثليين وغير ذلك. وهى ظواهر معقدة ويصعب تحليلها، إلا أنها تؤثر بشدة على طبعية الفقر وغيره من صور الحرمان. فالمرأة والطفل يشكلان نسبة مرتفعة من "الفقراء الجدد" فى أغلب بلدان الاتحاد الأوروبى.

لا بد من فهم ماهية العولمة فهماً صحيحاً. فالعولمة فى الغالب مجرد ظاهرة اقتصادية، حتى فى نظر بعض من أكثر المعلقين تعمقاً فى الموضوع. فيعرفها مارتن وولف على سبيل المثال بأنها «دمج أنشطة اقتصادية عبر الحدود من خلال الأسواق».<sup>(1)</sup> وهو تعريف ليس خطأ بقدر ما هو مجتزأ. فالعولمة ليست اقتصادية وحسب، وهى حقيقة يصعب تصور أن يفكر أحد بصورة مخالفة لها.

لنأخذ مثلاً دور وسائل الإعلام والاتصالات. فالعالم أصبح مترابطاً إلكترونياً بطرق لم يكن يتخيلها أحد قبل بضعة عقود. وأرى من جانبى أن بدايات عصر العولمة ترجع إلى أواخر ستينيات القرن العشرين أو أوائل سبعينياته حين أرسلت منظومة قمر صناعى فعال فوق الأرض بما جعل الاتصال الفورى ممكناً من أى مكان فى العالم إلى أى مكان غيره. وجاء تعميم شبكة الإنترنت والذى يرجع

---

(1) Martin Wolf, Globalization Works. New Haven, CT: Yale University Press, 2004, p. 14.

لأواخر التسعينيات ليضيف لهذا النهج. وهناك جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلدان الاتحاد الأوربي - كما في غيره - تغيرت نتيجة لهذه التطورات. فالهجرة مثلاً تغير طبيعتها حيث يمكن للمهاجرين حالياً أن يتواصلوا مع ذويهم في بلدانهم الأصلية في أى وقت يشاءون.

كثيراً ما تتردد عبارة «لا بد أن يرد الاتحاد الأوربي على العولمة». نعم، لكن العولمة مجموعة ثنائية من العمليات. ولا يمكن للاتحاد الأوربي أن "يرد" على العولمة بهذه البساطة، لأنها صارت اليوم أداة له وتعبيراً عنه في أن. والعولمة بصورها المختلفة لا تأتي من الخارج فقط. ففي كل مرة أدير فيها الحاسوب أو أرسل رسالة إلكترونية أو أتلقي معلومة على الشبكة العنكبوتية أو أدير التلفزيون أو المذياع أسهم بنشاط في العولمة في الوقت ذاته الذي أستعين بها فيه.

إن الحديث عن "مواجهة العولمة" أو إيجاد "عولمة بملامح إنسانية" لا معنى له في سياق كهذا. بعض جوانب العولمة تحتاج لإدارة على مستويات محلية وقومية ودولية في الغالب. لكن العولمة أى المزيد من العولمة هي عادة الوسيلة لفعل ذلك. وهذه الملاحظة تصدق على السوق العالمية بقدر ما تصدق على التغير المناخى أو الإرهاب الجديد أو غسل الأموال أو الجريمة المنظمة.

تعد التنافسية في الأسواق العالمية أمراً حيوياً بالنسبة لمستقبل أوروبا ولبقاء النموذج الاجتماعى أيضاً. وصعود الصين والهند وغيرهما من دول العالم الأقل تقدماً يثبت أن العولمة ليست مجرد أداة يهيمن بها الغرب على بقية العالم. ومع ذلك فعلينا أن نتدبر سبلاً أخرى تؤثر بها العولمة في الاتحاد الأوربي وتتأثر به. فالتقدم الاقتصادى الذى حققته الصين مثلاً له تأثير مباشر على الجغرافيا السياسية، ومنها لمجالات غيرها. وحاجة الصين للنفط مثلاً أدت بها لتوثيق علاقاتها بإيران. وإيران تبدو عازمة على الحصول على أسلحة نووية. ونظراً لاعتماد الصين على النفط فالأرجح ألا تتضمن لدول أخرى في فرض عقوبات فعالة عليها. وإيران

النوعية ستمثل قوة جديدة وربما شديدة الخطر بالقرب من عديد من مصادر إمداد الطاقة لأوروبا، من الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. ولا أمل للدول أن تتعامل مع هذه المشكلات فرادى.

## أنماط النموذج الاجتماعي

من الواضح أن ليس ثم نموذج اجتماعي واحد في أوروبا. وهناك محاولات عديدة بذلت لتصنيف دول الرفاه في أوروبا إلى أنماط مختلفة، إلا أن أكثرها شيوعاً تلك التي بذلها عالم الاجتماع الدنماركي غوستا إسبنغ أندرسن الذي يقول بوجود ثلاثة أنماط رئيسة من "رأسمالية الرفاه"<sup>(١)</sup> هناك النمط النوردي الذي يقوم على الضرائب المرتفعة وفرص العمل الشاملة التي تتوفر ضمن دولة الرفاه نفسها؛ والنمط المحافظ أو نمط المركزية النقابية (ألمانيا وفرنسا وإيطاليا) الذي يقوم في الأساس على إسهامات جداول الرواتب؛ والنمط الليبرالي أو الأنجلو ساكسوني الذي تمثله المملكة المتحدة وأيرلندا، وهو من بقايا نظام الرفاه بقاعدته الضريبية المنخفضة وسياساته الموجهة. وهناك من أضاف نمطاً رابعاً لأنماط إسبنغ أندرسن الثلاثة المعترف بها أصلاً - وهو النمط المتوسطي (إسبانيا والبرتغال واليونان) الذي يقوم أيضاً على قاعدة ضريبية منخفضة نوعاً ويعتمد بشكل مكثف على ما توفره الأسرة.<sup>(٢)</sup> وعلينا اليوم أن نضيف نمطاً خامساً أيضاً هو النمط بعد الشيوعي

---

(1) Gosta Esping-Andersen, *The Three Worlds of Welfare Capitalism*. Cambridge: Polity, 1990.

(٢) بيدو أن موريسيو فيريرا كان أول من قال بالنمط الرابع في كتابه

trappole del welfare. Bologna: Il Mulino, 1988

ويشير إلى بلدان أوروبا الشرقية السابقة التي تعمل على التحول إلى دول رفاه على الطريقة الغربية.

فى وضعه تصنيفه وضع إسنغ أندرسن كثيرًا من "ثالث الاقتصاد الخدمى" - وهو مفهوم صاغه فى الأصل كل من توربين إيفرسن وأن رين.<sup>(١)</sup> هذا "الثالث" هو السبب الذى جعل إسنغ أندرسن يؤمن بأن أنماط دولة الرفاه الثلاثة التى قال بها تشعبت، حيث إنه يحد من مدى تطبيق السياسات العامة على أساسها. والفكرة فحواها استحالة الجمع بين موازنات متوازنة ومستويات منخفضة من الفوارق الاقتصادية ومستويات مرتفعة من فرص العمل فى وقت واحد فى اقتصاد حديث. اثنان من هذه الأهداف يمكن أن تطبقهما الحكومات فى وقت واحد بنجاح، أما ثلاثتها فلا. وما يميز الأنماط الثلاثة المختلفة من الأنظمة هو أن كلاً منها يختار مزيجاً خاصاً منها.

فى دول الشمال كما يقول أندرسن تنصرف دولة الرفاه باعتبارها صاحب عمل يوفر عددًا كبيراً من فرص العمل فى القطاع العام، وبذلك يساعد على خفض البطالة. ومع ذلك فالضرائب مرتفعة، وهو وضع يشكل ضغطاً متواصلاً على مستويات الاقتراض. فالبلدان الأنجلو ساكسونية كالمملكة المتحدة و - من خارج الاتحاد الأوروبى - أستراليا وكندا أوجدت أعداداً كبيرة من فرص العمل فى القطاع الخاص وحافظت على انضباط مالى ولكنها تتميز بارتفاع مستويات الفقر. أما فى نمط المركزية النقابية كما فى ألمانيا أو فرنسا فتم التزم بالحد من التفاوت الطبقي وتقييد الموازنة (حتى وقت قريب على الأقل). ومع ذلك فهذه الدول ابتليت بانخفاض مستويات نمو فرص العمل.

---

(1) Torben Iversen and Anne Wren, 'Equality, employment and budgetary restraint: the trilemma of the service economy', *World Politics*, 50 (1998).

ولكن هل "الثالوث" حقيقى؟ يرى أنطون هيميريك وزملاؤه أن الشواهد العملية على ذلك "ملتبسة للغاية".<sup>(١)</sup> ويبين تاريخ إسكندنافيا الحديث أنه يمكن أن يكون لديك ماليات عامة سليمة ومستوى منخفض من التفاوت الطبقي ومستويات مرتفعة من فرص العمل فى الوقت نفسه. وفى المقابل يبدو ممكناً أيضاً ألا يكون لديك إلا واحد من الثلاثة. فألمانيا مثلاً لديها الآن مستويات مرتفعة من البطالة ودين عام متنامٍ كما أن "الأنماط" المختلفة نفسها ليست محددة بشكل قاطع. فـدول الشمال تختلف كل عن الأخرى بشكل كبير فى بعض النواحي. ولا يبدو أن ألمانيا وفرنسا تنتميان لنمط واحد. ويفترض فى المملكة المتحدة أن تمثل "بقايا" دولة رفاه تهيمن عليها الأسواق، لكن صافى مستوياتها الضريبية تكاد تتساوى حالياً مع نظيره فى ألمانيا. كما أن لديها أكثر الأنظمة الطبية "اجتماعية" فى أوروبا.<sup>(٢)</sup> ويخلص هيميريك إلى أن دول الرفاه التى تواءمت تماماً مع تغير الظروف أوجدت "نماذج مهجنة" استعارت أجزاء منها من غيرها. وهى حالة أجدها مقنعة وسأشير فيما بعد إلى إمكانية التعلم منها. ويظل تصنيف إسبنغ أندرسن مفيداً (كما سيبتين فيما بعد) - ولم يكن يفترض فيه إلا أن يمثل سلسلة من الأنماط المثلى أصلاً - إلا أن الحدود بين الأنماط ليست محكمة وتقل إحكاماً.

## الأداء الجيد والأداء الضعيف

منذ أوائل التسعينيات وحتى أواسطها كان أداء بعض دول الاتحاد الأوروبى أفضل من أداء غيرها من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية على السواء. وإنه لمن

---

(1) Anton Hemerijck, 'The self-transformation of the European social model(s)', in Gøsta Esping-Andersen (ed.), *Why We Need a New Welfare State*. Oxford: Oxford University Press, 2002.

(2) Katinka Barysch, 'Liberal versus social Europe', *Centre for European Reform Bulletin*, August/September 2005.



الخطأ القول بأن دولة الرفاه في تداع في كل مكان. ومقارنة التجارب الناجحة بالأقل نجاحاً تسفر عن نتائج مهمة. فإذا قسنا بالمعايير الاقتصادية كمستويات نمو إجمالي الناتج المحلي والتضخم والاستدامة الاقتصادية نجد أن كلاً من الدنمارك وفنلندا والسويد أقامت دولة رفاه. والاقتصادات الثلاثة الأقل فعالية كانت الأكبر في القارة، أي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. وهناك مقارنة مفصلة بين هاتين المجموعتين قام بها الاقتصادي الأسترالي كارل أيجنغر.<sup>(1)</sup>

يشير أيجنغر إلى أن متوسط معدلات النمو في التسعينيات ومطلع القرن الحادي والعشرين في دول الشمال الثلاث كانت ٢.٩ بالمئة، وهي معدلات قريبة للغاية من مستوى الولايات المتحدة. وحققت ألمانيا وفرنسا وإيطاليا متوسطاً لا يزيد عن ١.٦ بالمئة. وزادت الإنتاجية في بلدان الشمال في التسعينيات بنسبة ٢.٤ بالمئة مقارنة بنسبة ٠.٥ بالمئة في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. وبلغ متوسط فرص العمل في ٢٠٠٢ نسبة ٧١ بالمئة مقارنة بنسبة ٦٢ بالمئة في المجموعة الأخرى. وحققت الموازنات توازناً أو فائضاً، بينما عانت البلدان القارية عجزاً كبيراً. ودول الشمال وعلى خلاف الدول الأكبر تعد مفتوحة إلى حد بعيد وأسواقها حرة. وتأتي فنلندا والدنمارك بصورة منتظمة على رأس قوائم الدول الأكثر ملائمة للمشروعات التجارية، والتي يعدها "المنتدى الاقتصادي العالمي" والهيئات المماثلة.

هناك عوامل عديدة تؤثر في نجاح تلك الدول، ولكن على رأس هذه العوامل تأتي أنماط الاستثمار الاجتماعي التي تتبعها الدول. والدول الثلاث جميعاً تستثمر الكثير في الأشكال المبتكرة من التقنية والتعليم. فتتطوى الإستراتيجية الدنماركية على استيعاب تكنولوجيا المعلومات على نطاق واسع وبناء مراكز تقنية ناجحة.

---

(1) Karl Aiginger, 'Towards a new European model of a reformed welfare state', United Nations Economic Survey of Europe, 1 (2005).

وتتوسع فنلندا بشكل أكبر في استخدام تكنولوجيا المعلومات فى إعادة الهيكلة الاقتصادية وفى الحكومة. كما تتميز فنلندا بدرجة أعلى من الولايات المتحدة فى افتتاح مجال تكنولوجيا المعلومات.

يبلغ الإنفاق على البحث والتطوير فى إسكندنافيا<sup>(١)</sup> ضعف نظيره فى الدول القارية الثلاث. والإنفاق على التعليم بعامة والتعليم العالى خاصة يعتبر أعلى كثيراً. كما تحقق دول إسكندنافيا معدلات عالية دولياً فى التعليم.<sup>(٢)</sup>

وتحقق دول الشمال المستويات الأدنى فى التفاوت الاقتصادى فى العالم؛ كما أن مستويات الفقر بين الأطفال فيها شديدة الانخفاض. كما تحقق هذه الدول نجاحاً أيضاً على معظم مؤشرات الرخاء والصحة الأخرى. وهى نجاحات تأتت لا من رفض الإصلاح، بل من تبنيه. فأعادت المجتمعات الثلاثة هيكلة أسواق العمل بها - "المرونة والأمان" (Flexicurity) مفهوم سويدي أصلاً ولكنه وجد طريقه إلى الدنمارك وفنلندا أيضاً. وإذا أخفق العاطلون لفترة ما فى إيجاد فرص عمل، يضطرون لأخذ دورات إعادة تأهيل وقبول ما يعرض عليهم من فرص عمل.

لتحقيق توازن الموازنة أجريت اقتطاعات فى نفقات الدولة فى أوائل التسعينيات ولكن بدون زيادة فى معدل الفقر أو التفاوت الاقتصادى الكلى. وجزء كبير من تكيف دول الشمال مع التغيير يقوم على اتباع سياسات تدعم الأسرة. فأنشئت تجاربها ألا تتناقض بين حرية التجارة والسياسات الداعمة للأسرة، لا سيما أن العمل غير المتفرغ له كثير من مميزات العمل المتفرغ. ومع أن مستوى

---

(١) سنورد التسميتين "دول الشمال" و "دول إسكندنافيا" بشكل تبادلى ولو أن تسمية "إسكندنافيا" أكثر تحديداً - والدنمارك ليست ضمن شبه جزيرة إسكندنافيا.

(2) Aiginger, 'Towards a new European model'.

التفرقة بين الجنسين مرتفعة في إسكندنافيا، ما يرجع إلى أن كثيرا من النساء يعملن في القطاع الحكومي، فإن المرأة والطفل يحظيان بمميزات خاصة فيها.

أصبحت للعمل أولوية، وذلك لتحقيق معدل عمالة مرتفع، وأيضا لأن الحصول على فرصة عمل طيبة هو السبيل الأفضل للخروج من دائرة الفقر. وهذا المبدأ يصدق على المرأة والرجل على السواء؛ ففي الدنمارك مثلاً نجد أن ٩٠ بالمئة من الأمهات العزباوات يعملن. والتعليم والتدريب بعد المدرسى أصبح منتشرا بشدة. وفيما يتعلق بالخدمات العامة (الحكومية) اتبعت دول الشمال سبيل الإصلاح، بل التجريب أكثر مما فعلت الدول الضعيفة الأداء. (كثير من السياسات المتبعة دار حولها كثير من الجدل في البداية.) والتعليم والصحة نزعت عنهما المركزية إلى حد كبير، واستحدثت حوافز لتحسين الكفاءة فيهما. والمستشفيات الوقفية - هيئات خيرية تتمتع بدرجة عالية من التحكم في موازنتها وبرامج الرعاية الصحية فيها - تعد رائدة في كل من الدنمارك والسويد.

يقول آيغنغر إن الطبيعة الميالة للمساواة بين البشر في بلدان الشمال لا تنأتى من إعادة التوزيع بقدر ما تنأتى من الاستثمار الاجتماعى فى الأطفال وفى تحسين وضع المرأة. السلطة الذكورية لم تختف فى تلك البلدان، ولكنها أضعفت عنها فى سائر البلدان. ونتيجة لذلك - إلى جانب إصلاح أنظمة الرعاية الاجتماعية - أصبحت المرأة والطفل أقل اعتمادا على أجر يكسبه الرجل منه فى بقية أوروبا. والأم العزباء أو المرأة الطالق تفقد من دخلها مقارنة بالرجل أقل مما تفقد فى بلدان أخرى.

لا تزال معدلات المواليد مرتفعة في إسكندنافيا بمعايير الاتحاد الأوروبى بالطبع. ولا تعادلها من بين البلدان القارية الكبرى الثلاث فى معدل المواليد سوى فرنسا. وفرنسا تستثمر فى رعاية الطفل، ولديها نظام رعاية للأُم بغض النظر عما

إذا كانت متزوجة أو في علاقة ما. أما في ألمانيا وإيطاليا فيقوم النظام في المقام الأول على الأسرة التقليدية التي يفترض أنها تمتد يد العون في وقت الشدة. إلا أن الأسرة التقليدية بتوزيعها الواضح للعمل بين الجنسين ومختلف أشكال التبادلية فيها بدأت تتلاشى. وهي على أية حال لم يكن فيها مكان حقيقى للأم غير المتزوجة أو المرأة الطالق.

أصلحت بلدان إسكندنافيا أنظمة رواتب التقاعد فيها بحيث تستمر لمدى أطول. كما اتخذت هذه الدول إجراءات لتشجيع كبار السن على مواصلة العمل أو العودة إلى قوة العمل. وأجرت السويد مثلاً إصلاحات أساسية في نظام رواتب التقاعد في التسعينيات. فاستبدل بنظام المزايا التي تحسب على الدخل نظام مساهمة ثابت. فهناك راتب تقاعد مضمون وعام، لكن حجم العنصر المضمون ثابت في علاقته بمستوى الدخل. ويوفر النظام مراقبة تكاليف فعال ودقيق في حين أن ارتباطه بالدخل على مدى العمر يخلق حوافز للاذخار.<sup>(١)</sup>

من الخطوات الأساسية التي اتخذت في السويد وتبعتها الدنمارك إلى حد ما إدخال نظام الاختيار في المدارس الحكومية. ففي السياسات التي طبقت في السويد في سنة ١٩٩٢ اعتبرت المدارس المستقلة ذات الربحية وغير ذات الربحية مساوية للمدارس الحكومية التقليدية القائمة على أسس مالية متساوية لكل تلميذ. وهناك قائمة تتاح للأباء ليختاروا المدرسة التي يرغبون. وتشير الدراسات إلى نجاح البرنامج، وإن ظل يؤثر بعض الجدل. وتحسن الأداء العام في النظام المدرسى وانخفضت نسبة من ينهونه من التلاميذ دون مؤهلات.<sup>(٢)</sup>

---

(1) Palme, 'Why the Scandinavian experience is relevant for reform of the ESM'.

(2) لمزيد من التحليل انظر Swedish National Institute for Education, Schools like any Other? Stockholm, 2005; and idem, Equity Trends in the Swedish School System, Stockholm, 2005.

ليست بلدان إسكندنافيا الدول الأوروبية الوحيدة التي أبلت بلاء حسناً في السنوات الخمس عشرة الأخيرة. فهناك أيرلندا والمملكة المتحدة وهولندا وإسبانيا. وهناك عناصر تجمع بينها جميعاً، منها التوجه العام نحو الإصلاح وارتفاع مستويات الاستثمار الهيكلي وإطلاق حرية أسواق العمل. وسيكون لدينا المزيد مما نقول عن هذه البلدان فيما بعد.

يرى البعض أن دول الشمال ليس لديها إلا القليل مما ينبغي أن تتعلمه بقية أوروبا. فهي بلدان صغيرة، والبلدان الصغيرة قد تختلف عن البلدان الأكبر بصفة عامة، وهي على أي الأحوال أسهل في التغيير. وعوائد الضرائب فيها أعلى من نظيرتها في سائر بلدان الاتحاد الأوروبي. وهذه نقاط لها أهميتها ولكن ما من أحد قد يذهب إلى حد تصدير "النموذج الشمالي" كتلة واحدة. والمهم تحديد السياسات التي يمكن تطبيقها في غيرها من البلدان.

إن نجاح اليوم قد يصبح غذاً إخفاقاً؛ من ثم فالدروس المستفادة حتى من أفضل التجارب ينبغي أن تعامل ببعض الحذر. فمنذ وقت ليس ببعيد كانت الرأسمالية الألمانية تعد طريق أوروبا كلها نحو المستقبل؛ وهي اليوم على الطرف الآخر من الميزان. ومع ذلك فقد يكون من الحق القول بأن تجارب البلدان الناجحة تخلص من أية دروس تستفيد منها بلدان غيرها. وليست السياسات وحدها التي تعد ذات صلة، بل بعض آليات التغيير أيضاً. فالحركة النقابية في بلدان الشمال تلعب دوراً مهماً في تيسير التغيير والإصلاح. فحين يتصرف شركاء المجتمع (أصحاب الأعمال والنقابات) باعتبارهم شركاء في المجتمع يسعون للإصلاح البناء ولا يدافعون عن مصالح فئوية فإن النتائج قد تكون إيجابية بالنسبة لقوة العمل.

## لشبونة وما بعدها

لا تتقصنا التقارير التي تقترح ما ينبغي أن نعمله لإصلاح الأجزاء المعطوبة من الاتحاد الأوربي وجعل دوله أكثر تنافسية بصورة عامة. وأغلبها يركز على "جدول أعمال لشبونة" التي التزم بها القادة الأوروبيون في مارس ٢٠٠٠. ففي تلك المرحلة وضع الاتحاد الأوربي لنفسه عدداً من الأهداف الإستراتيجية للعقد التالي: «أن يصبح الاقتصاد قائماً على المعرفة والأكثر ديناميكية وتنافسية في العالم والأقدر على تحقيق تنمية اقتصادية مستدامة بفرص عمل أكثر وأفضل ومزيد من التماسك الاجتماعي واحترام البيئة». وكان الهدف الوصول بمتوسط النمو إلى ٣ بالمئة سنوياً ومعدل العمالة إلى ٧٠ بالمئة في سنة ٢٠١٠. ولتحقيق هذه الأهداف المعلنة قبل إن على الدول الأعضاء أن تعمل بالتنسيق فيما بينها. واستحدث "أسلوب التنسيق المفتوح"<sup>(١)</sup> وهو في جوهره اختبار أداء بسبب افتقار الاتحاد الأوربي للسلطة اللازمة للتدخل المباشر في تحقيق معظم الإصلاحات الضرورية. وبمقتضى "أسلوب التنسيق المفتوح" اتفقت الدول الأعضاء طوعاً على العمل على الوصول إلى عدد محدد من الأهداف وضع لتلبية احتياجاتها في مجال الاقتصاد المعرفي.

والنتائج حتى الآن لم تصل لمستوى التوقعات حتى إن طموح التحول إلى الاقتصاد الأكثر تنافسية في العالم بحلول سنة ٢٠١٠ أصبح موضع سخرية على نطاق واسع. وأعقب إعلان "جدول أعمال لشبونة" مباشرة عامان من الانكماش في الاقتصاد العالمي أثرا على اقتصاد الولايات المتحدة، بينما كانت معاناة اقتصاد الاتحاد الأوربي أكبر. وكانت الدول التي حرصت على "جدول أعمال لشبونة".

---

(1) Open Method of Coordination (OMC).

بصورة عامة هي الدول الأقل احتياجاً له، أى الدول ذات الأداء الأفضل التى سبقت الإشارة إليها. وتجاهلته البلدان القارية الأكبر حتى وقت قريب على الأقل.

بلغ متوسط إجمالي الناتج المحلي للفرد فى سنة ٢٠٠٥ فى الاتحاد الأوروبى ذى الخمس عشرة دولة عضواً ٢٧ بالمئة بعد نظيره فى الولايات المتحدة - كما كان الحال تماماً فى سنة ٢٠٠٠. كما أن نمو الإنتاجية فى الولايات المتحدة كان أعلى من نظيره فى الاتحاد الأوروبى بنسبة ١ بالمئة فى كل من السنوات من ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٥<sup>(١)</sup> ومن بين بلدان الاتحاد الأوروبى ذى الخمس والعشرين دولة عضواً حققت اثنتا عشرة منها عجزاً فى الموازنة أو فوق حد الثلاثة بالمئة الذى تقرر فى "اتفاقية النمو والاستقرار" فى سنة ١٩٩٧. أى إنها لا تكاد تملك من المال ما يكفى للاستثمار فى المجالات التى يشملها "جدول أعمال لشبونة".

تحقق بعض التقدم منذ سنة ٢٠٠٠. فارتفع متوسط معدل تشغيل العمالة من ٦٢,٥ بالمئة فى سنة ١٩٩٩ إلى ٦٣,٣ بالمئة فى سنة ٢٠٠٤ فى بلدان الاتحاد الأوروبى ذى الخمس عشرة دولة عضواً. وفى السنة نفسها كان ٤١ بالمئة من الفئة العمرية من ٥٥ إلى ٦٤ سنة يعملون مقارنةً بنسبة ٣٦,٦ بالمئة فى سنة ٢٠٠٠. وحقق معدل مشاركة الإناث نمواً ملحوظاً بلغ ٥٥,٧ بالمئة. وتخفى هذه النسب تفاوتات شاسعة بين مختلف البلدان. فنسبة النساء العاملات فى اليونان وإيطاليا مثلاً لا تزيد عن ٤٥ بالمئة وعن ٣٣ بالمئة فى مالطا. وتوسيع الاتحاد معناه أن الأهداف حتى الآن على الأقل أصبحت أصعب تحقيقاً، ولو أن هذا الوضع يعوضه ارتفاع معدلات النمو فى الدول الحديثة الانضمام. وعند نقطة توسيع الاتحاد انخفض متوسط معدل تشغيل العمالة فى الاتحاد بنسبة ١,٥ بالمئة.

---

(1) Aurore Wanlin, The Lisbon Scorecard VI. London: Centre for European Reform, 2006.

وعلى ضوء ببطء تقدم أوروبا وأوجه ضعفها الاقتصادي بصورة أعم خضع "جدول أعمال لشبونة" لسلسلة مراجعات؛ وروقب وانتقد في عدد لا يحصى من التقارير، أهمها ما أعدته مجموعتان رفيعتا المستوى رأس إحداهما فيم كوك (رئيس وزراء هولندا من ١٩٩٤ إلى ٢٠٠٢) ورأس الأخرى الاقتصادي البلجيكي أندريه سابير.

صدق تقرير كوك على أهداف "جدول أعمال لشبونة" وأيد إمكانية تحقيقها بحلول سنة ٢٠١٠. ومع ذلك أبدى التقرير عددًا من الانتقادات. فالإستراتيجية الأصلية كانت أوسع من اللازم، والمسؤوليات عن التغيير غير محددة بشكل كافٍ. ووردت في تقرير كوك عبارة يستشهد بها كثيرًا تقول: «إن "جدول أعمال لشبونة" يتحدث عن كل شيء وبالتالي فهو لا يتحدث عن شيء. الكل مسؤول ومن ثم فلا مسؤولية على أحد».<sup>(١)</sup> وأكد التقرير بشدة على الحاجة لاستكمال "السوق الموحدة". كما أن استمرار فتح السوق في أوروبا للسلع والخدمات وفي الوقت نفسه مقاومة ضغوط فرض الحماية ضروريان لمستقبل أوروبا الاقتصادي. وفي القطاعات التي جرى تحريرها كالخدمات العامة يشير التقرير إلى أن الجهات المحلية لا تزال لها الأولوية. ويفترض فتح أسواق الكهرباء والغاز بحلول يولية ٢٠٠٧، ومن المتوقع أن تقى الدول الأعضاء بهذا الالتزام وإن كانت المؤشرات تنبئ بغير ذلك.

توصل تقرير سابير الذي نشر قبل ذلك بقليل لنتائج مماثلة. فالنمو في أوروبا محبب في مجمله، وكذلك خلق فرص العمل - «كأن أوروبا علقت في حفرة».<sup>(٢)</sup> وهو تقرير في غاية الدقة، بل لعله أفضل ما كتب في السنوات الأخيرة عن

---

(1) Wim Kok, Facing the Challenge. Report of the High Level Group, November 2004, p. 16.

(2) Sapir, An Agenda for a Growing Europe.



التوقعات الاقتصادية للاتحاد الأوربي وما يمكن عمله لتحسينها. وهو يركز على جدول أعمال من ست نقاط من أجل التغيير:

١. إضفاء مزيد من الدينامية على السوق الموحدة. ولا بد من فتح الخدمات للمنافسة وتخفيف القيود وتغيير السياسة التنافسية لتزويد السوق بمشروعات جديدة. ولا بد من وضع إستراتيجية استباقية تجاه حراك العمالة في أوروبا.

٢. إنعاش الاستثمار في المعرفة: عن طريق زيادة الإنفاق القومى والاتحادى على البحث والتعليم العالى واستحداث انتمانات ضريبية لتشجيع البحث والتطوير فى القطاع الخاص.

٣. تحسين إطار الاقتصاد الكلى من أجل الوحدة الاقتصادية والنقدية يوجد الحوافز للبلدان لكى تدخر فوائض فى أوقات الوفرة وإيداء مزيد من المرونة فى أوقات الشدة.

٤. إعادة رسم السياسات بغرض التوحيد وإعادة الهيكلة. وينبغى توجيه أموال التوحيد المقدمة للدول الأقل دخلاً إلى بناء المؤسسات والاستثمار فى رأس المال البشرى والبدنى. ويجب أن يقدم الاتحاد الأوربي دعماً لإعادة الهيكلة للعمال الذين يفقدون فرص عملهم ويحتاجون لإعادة تأهيل، وإدراج ذلك فى السياسات القومية.

٥. تحسين فعالية اتخاذ القرار ووضع الضوابط عن طريق إيجاد تعريف أوضح للصلاطات بين الاتحاد الأوربي وعمليات اتخاذ القرار القومية.

٦. إعادة توجيه موازنة الاتحاد الأوربي بعيداً عن الإنفاق الزراعى بنقل التمويل الريفى إلى الدول الأعضاء. وإنفاق الموازنة فى المقام الأول على تمويل النمو والتوحيد وإعادة الهيكلة.

أجرى "المجلس الأوروبي" مراجعة لجدول أعمال لشبونة في مارس ٢٠٠٥. وطبقاً لتوصيات تقرير كوك أعيد تنظيم البرنامج وتبسيطه مع التركيز على النمو وإيجاد فرص العمل. ولم تهمل الأهداف الأخرى كتطوير التماسك الاجتماعي والحد من الإقصاء الاجتماعي، ولكن أعطيت إلى جانب الأهداف البيئية أولوية أدنى. فهذه الأهداف تحتاج لاستثمارات، في حين أن النمو وإيجاد فرص العمل لا بد أن تكون لهما الأولوية. فوضعت المفوضية توجيهات جديدة تضمن إنفاق الأموال المخصصة للدول والمناطق الأقل دخلاً وفقاً لجدول أعمال لشبونة.

مع ذلك لم تتضمن اتفاقية الموازنة التي أقرت في ديسمبر ٢٠٠٥ أيًا من هذه البنود وإن تضمنت وعدًا بمراجعة دقيقة لنفقات سنة ٢٠٠٨. والموازنة بحالتها الراهنة تعنى أن أقل من ١٠ بالمئة من نفقات الاتحاد الأوروبي في الفترة ٢٠٠٧-٢٠١٣ توجه لأولويات لشبونة. وبدأت بعض الصعوبات التي يواجهها الاتحاد الأوروبي واضحة في مفاوضات الموازنة. ويعطى القادة الأولوية لمصالحهم القومية حرصًا منهم على جماهيرهم في الداخل. وليست هناك أية فكرة تقريبًا عن التضحية في سبيل الصالح العام؛ بل إن موقفًا كهذا يأول على أنه دليل ضعف.

لا غرو أن "جداول رابطة" لشبونة تتفق تمامًا مع سجلات مسار مختلف دول الاتحاد الأوروبي. فالدنمارك والسويد والنمسا والمملكة المتحدة تحتل مكان الصدارة في هذه الجداول. وتأتي فرنسا في المرتبة الثامنة، وألمانيا العاشرة، بينما تأتي إيطاليا في المرتبة الثالثة والعشرين. وتأتي الدول الحديثة الانضمام في المؤخرة ولديها الكثير مما ينبغي عمله للحاق بغيرها.

هناك وجهتا نظر مختلفتان في أوروبا عن أسباب ضعف السجل للعام للاتحاد الأوروبي في إيجاد فرص العمل وتحقيق النمو الاقتصادي. وجهة نظر "جدول أعمال

لشبونة" (وهذا الكتاب) هو أن غياب الإصلاحات الهيكلية لا سيما في بعض الدول الرئيسية هو السبب الأول. ولا بد من التجديد والإصلاح وعلى الصعيد القومي أولاً.

ووجهة النظر الأخرى أن ضعف أداء أوروبا يرجع أولاً لعيوب في سياسات الاقتصاد الكلى، وهذا هو المستوى الذى يجب معالجتها عليه. ويقال إن البنك المركزى الأوروبى يركز أكثر من اللازم على استقرار الأسعار ولا يركز بدرجة كافية على تحفيز النمو. ويرى أنصار هذا الرأى أن السياسات الكينزية لا تزال تصلح على المستوى الأوروبى وإن لم تعد تنطبق على مستوى قومى. من ثم فقد تكون هناك "مُشروعات كبرى" - استثمارات كبرى مثلاً فى روابط النقل الجديدة - يمكن أن تخلق فرص عمل وتحقق مستويات مرتفعة من النمو. ويميل أنصار هذا الرأى أيضاً للقول بأن العدل الاجتماعى يمكن أيضاً أن يحققها سياسات على مستوى الاتحاد الأوروبى. ففكرة تحديد حد أدنى للأجور على مستوى أوروبا مثلاً منتشرة على نطاق واسع.<sup>(١)</sup>

إن أوروبا "المشروعات الكبرى" قد تكون ذات شأن لو توفرت مصادر التمويل الملائمة. أما باعتبارها وسيلة لإيجاد فرص عمل واستعادة النمو فإنها ستفشل للأسباب نفسها التى فشلت بها السياسات الكينزية على الصعيد القومى. فالمستثمرون يمثلون اليوم عنصراً فى النتائج المتوقعة من المشروعات الجديدة، وبالتالي فهم يبطلون تأثيرهم على الطلب. وتحديد حد أدنى للأجور فى أوروبا ليس خياراً جاداً، لأن مستويات الرخاء فى الدول الأعضاء متفاوتة إلى حد كبير. وقد

---

(١) الهيئة الأوروبية لتحسين ظروف المعيشة والعمل، 'Minimum wages in Europe', July 2005:

<http://www.eiro.eurofound.ie/2005/07/study/tn0507101s.html>.

يكون على أحسن تقدير صيغة تطبق كنسبة من مستويات الدخل في الدول الأعضاء؛ إلا أن التفاوت كبير لدرجة تفرغه من أى معنى.

وضعت قواعد الصرافة في المنطقة الأوروبية الموحدة الحالية لمنع التدخل السياسى في قرارات البنك المركزى الأوروبى وإقرار صدقية العملة الموحدة. يمكن مناقشة إطار النظام المالى للاتحاد الأوروبى بالطبع، إلا أن أى إصلاح لهذا الإطار لا بد أن يتقبل أن المسؤولية المالية سمة أساسية من سمات الاتحاد النقدي. ويمكن توجيه سياسة الاقتصاد الكلى نحو المساعدة على توفير الظروف المعروفة بأنها ذات صلة بالإنتاجية والنمو في الدول. وهذا الوضع عينه الذى اقترحه تقرير سابير.<sup>(1)</sup> وسنعود لبعض هذه القضايا في الفصل السادس.

## بعض النتائج

لنوجز في هذا المقام نتائج المادة التى تناولنا حتى الآن. تعطينا تجربة الدول ذات الأداء الرفيع في أوروبا ومقارنتها بالدول ذات الأداء الضعيف إطاراً لسياسات يمكن تطبيقها على نطاق واسع. والتعليقات التالية تحدد بعض توجهات السياسات النابعة من هذا التحليل.

أولاً، لا بد لأى نموذج اجتماعى فعال أن يضع النمو وفرص العمل في المقدمة كما فعلت الدول ذات الأداء الرفيع، ولكن بدون استبعاد كل شئ غيرهما. فالمستوى المرتفع من فرص العمل إلى جانب حد أدنى معقول للأجور يعد أمراً مطلوباً لأكثر من سبب. فكلما زادت نسبة من لديهم فرص عمل زاد كم المال

---

(1) Jean Pisani-Ferry, 'Growth policies for Europe', in Policy Network, Where Now for European Social Democracy? London, 2004; Sapir, An Agenda for a Growing Europe.

المتاح - بالتساوى مع العناصر الأخرى - للإنفاق على الاستثمار الاجتماعى والحماية الاجتماعية. كما أن حصول المرء على فرصة عمل أفضل سبل الخروج من الفقر. وهدف لشبونة بتحقيق متوسط فرص عمل قدره ٧٠ بالمئة من قوة العمل لا يخرج عن الواقعية من حيث المبدأ. لكن كل شيء يتوقف على إرادة الإصلاح فى الدول التى يقل فيها معدل تشغيل العمالة عن هذا الرقم. هناك عوامل عديدة تدخل فى إيجاد مزيد من فرص العمل بالطبع، ولكن ليس من قبيل المصادفة أن الدول التى حققت معدلات تشغيل أعلى من ٧٠ بالمئة فى أوروبا تتبع سياسات سوق عمل فعالة.

ثانياً، يرى من هم على يمين الطيف السياسى أن الاقتصادات ذات الضرائب المنخفضة وحدها التى تزدهر فى عالم شديد التنافسية. لكن الدليل على العكس لا يخفى. فليس ثمة صلة مباشرة بين معدل الضرائب بالتناسب مع إجمالى الناتج المحلى والنمو الاقتصادى أو إيجاد فرص العمل. ربما كان هناك حد أقصى كما فى حالة السويد التى كانت لديها أعلى نسبة ضرائب بين الدول الصناعية لفترة، لكنها رأت مستوى دخل الفرد فيها يتهاوى نسبياً بشكل ملحوظ. ومع ذلك فالأهم من حجم الدولة مدى فعالية مؤسسات الدولة وطبيعة السياسات الاقتصادية والاجتماعية التى تتبع.

ثالثاً، المرونة فى أسواق العمل جزء أساسى من إطار السياسات فى الدول الناجحة. ولا يعنى ذلك النموذج الأمريكى فى التوظيف والفصل. ففى حقبة يتسارع فيها التحول التكني تصبح "القدرة على العمل" - الرغبة والقدرة على التحرك قدماً - أهمية قصوى. ومبدأ «احم العامل لا الوظيفة» - وهو شعار إصلاح سوق العمل فى الدنمارك - هو المبدأ الأساسى فى عالم الغموض الاقتصادى. والتحرك

قدماً" لا بد أن يحدث غالباً في فرصة العمل نفسها نظراً لأهمية التحول التقني. ففي اقتصادات الاتحاد الأوروبي حين كان يضم خمس عشرة دولة عضواً يقدر أن ٨٠ بالمئة من التقنية المستخدمة في الفترة ١٩٩٥-٢٠٠٥ كان عمرها أقل من عشر سنوات. ومع ذلك فإن ٨٠ بالمئة من قوة العمل ذريت قبل أكثر من عشر سنوات.

للمرونة سمعة سيئة لا سيما لدى بعض أهل اليسار. فهي تعنى عندهم التضحية باحتياجات القوة العاملة فداءً لمتطلبات التنافس الرأسمالي. إلا أن طبيعة تنظيم سوق العمل لا تقل أهمية عن حجمه على الأقل. وكثير من حقوق العمال يمكن بل يجب أن تصان. ومنها حقوق التمثيل والمشورة وتنظيم ظروف العمل وقوانين مناهضة التمييز وما إلى ذلك. وتحقق أيرلندا نمواً مشهوداً بينما تطبق كل تشريعات العمل الخاصة بالاتحاد الأوروبي من هذا النوع.<sup>(١)</sup>

إن كثيراً من العاملين في الحقيقة يريدون عملاً مرناً وعملاً غير متفرغ حتى يتمكنوا من توفيق متطلبات الأسرة. كما تتداخل المرونة إلى درجة كبيرة مع توجهات أوسع نطاقاً في الحياة اليومية في المجتمعات الحديثة. فأغلب المواطنين ألفوا كما من خيارات أنماط العيش أكبر كثيراً مما أُتيح للجيل السابق عليهم، ومن ذلك زمان العمل ومكانه ونوعيته (سنتناول هذه النقطة باستفاضة فيما بعد).

رابعاً، عبارة "اقتصاد المعرفة" الشائعة ليست مجرد مصطلح فارغ، بل هي من ابتكار "جدول أعمال لشبونة" الذي فقد صلته بالموضوع بعد أن فُتت فقاعة دوت كوم. وينبغي أن يسمى اقتصاد معرفة وخدمات وهو أدق، لأن كل الخدمات تتطلب مستويات رفيعة من التدريب. ولا تزيد نسبة القوة العاملة في بلدان الاتحاد

---

(1) James Wickham, The End of the European Social Model Before it Began? Dublin: Irish Congress of Trade Unions, 2004.

الأوربي حين كانت خمس عشرة دولة في مجال التصنيع عن ١٦ بالمئة، وهذه النسبة لا تزال تنخفض. وإذا عبرنا عن هذه الحقيقة بصورة معاكسة نقول إن ما يزيد عن ٨٠ بالمئة من الناس عليهم الآن أن يتعيشوا من أشغال تقوم على المعرفة أو الخدمات.

التشغيل الكامل أو شبه الكامل ممكن في اقتصاد الخدمات/المعرفة - وتحقق في بعض اقتصادات أوروبا الأفضل أداء المذكورة آنفاً. لكن هناك ثمناً يدفع. فأكثر من ثلثي فرص العمل التي توفرت في اقتصاد المعرفة تتطلب مهارة - وهي في ازدياد. وفي الفترة ١٩٩٥-٢٠٠٤ ارتفعت نسبة فرص العمل التي تتطلب مؤهلات متقدمة في بلدان الاتحاد الأوربي حين كانت خمس عشرة دولة من ٢٠ إلى ٢٤ بالمئة.

انخفضت نسبة فرص العمل قليلة المهارة من ٣٤ إلى ٢٥ بالمئة. ولكن لا يزال على كثير من الناس أن يعملوا في أشغال كهذه- في حوانيت أو متاجر كبيرة أو محطات بنزين أو مقاهٍ. ولا سبيل لرفع الحد الأدنى للأجور بحيث تستبعد هذه الأشغال، وإلا فقدنا ما يصاحبها من أشغال ذات مهارة أعلى. علينا أن نعمل على أن يكون الحد الأدنى مناسباً بحيث لا يكون هناك عامل فقير، وأن نضمن قدر الإمكان ألا يعلق الناس في هذه الأشغال إذا أرادوا التحرك قدماً.

خامساً، الاستثمار في التعليم والتوسع في إنشاء الجامعات ونشر تقنية المعلومات والاتصالات كلها أجزاء حيوية من عملية تحديث "النموذج الاجتماعي الأوربي". وتعد فنلنده مثلاً جيداً على مجتمع في طليعة تقنية المعلومات والاتصالات ولديه منظومة رعاية اجتماعية قوية. ويشير مانويل كاستلز وبيكا هيمنان إلى أن ذلك البلد يثبت خطأ فرضية أن الاقتصاد المتقدم لا بد أن يصمم

على غرار وادى السيليكون، أى بيئة أعمال محررة من القيود الحكومية.<sup>(١)</sup> وحققت فنلنده درجة من انتشار تقنية المعلومات أكبر مما حققته الولايات المتحدة. وحققت معدل نمو بلغ ٥,١ بالمئة فى الفترة ١٩٩٦-٢٠٠٠. كما أنها ضمن أوائل الدول المتقدمة من حيث معايير العدل الاجتماعى ولديها قاعدة ضريبية مرتفعة. ويرى كاستلز أن نجاح فنلندا يبعث الأمل فى نفوس غيرها. وقبل ما لا يزيد عن أربعة أجيال أو خمسة كانت فنلندا مجتمعاً فقيراً ريفياً فى معظمه.

هناك تحليل بيانات "مقياس التغيرات الأوربي" قام به "معهد الدراسات المستقبلية" فى السويد يبين الفروق الواضحة بين بلدان إسكندنافيا وغيرها من بلدان أوربا فيما يتصل بالمهارات والسعى لتحصيل المهارات.<sup>(٢)</sup> تتميز بلدان إسكندنافيا بأن لديها:

- هوة صغيرة فى المهارات: نسبة ضئيلة من الناس يقولون إنهم يفتقرون إلى المهارات اللازمة للعمل.
- هوة صغيرة فى المؤهلات: من يقولون إن لديهم المهارات اللازمة للعمل ولديهم المؤهلات التى تثبت هذا الادعاء.
- نسبة كبيرة من الناس شاركت مؤخراً فى دراسة أو تأهيل.
- نسبة كبيرة تؤكد عدم وجود عوائق تمنعهم من المشاركة فى مثل هذا التأهيل.
- نسبة ضئيلة من الأفراد يقولون أن ليس هناك شىء يدفعهم لتحصيل مزيد من التعليم أو التأهيل.

---

(1) Manuel Castells and Pekka Himanen, The Information Society and the Welfare State, Oxford: Oxford University Press, 2002.

(2) Palme, 'Why the Scandinavian experience is relevant for the reform of the ESM'.



سادسًا، زاد التفاوت في الدخل في معظم الدول الصناعية في السنوات الثلاثين الأخيرة، إلا أن هناك دلائل تشير إلى أن هذه الاتجاه في انحسار حاليًا. هناك مجتمعات نجحت في الإبقاء على المساواة إلى حد كبير، وعلى رأسها بلدان إسكندنافيا أيضًا.<sup>(1)</sup> والدرس المستفاد ضرورة الحفاظ على قيمتي المساواة والشمول في إصلاح النموذج الاجتماعي الأوربي في أي مكان آخر. ولا يشترط أن تكون لدينا معدلات ضريبية مرتفعة حتى نحقق ذلك. بل علينا ضمن سياسات أخرى أن نستثمر في التعليم في سنواته الأولى، حيث تكمن قدرات عديدة. فالاستثمار في التعليم المبكر ورعاية الطفل عنصر أساسي في خفض معدلات فقر الطفولة.

سابعًا، يعد إصلاح رواتب التقاعد أمرًا ضروريًا. وتأتي بلدان الشمال في الصدارة هنا أيضًا. فالسويد والدنمارك وفنلندا أصلحوا منظومات رواتب التقاعد لديهم بشكل دائم. ولا بد من إقناع الشباب بمزيد من الادخار. وينبغي أن تساعد في تشجيع الناس على إنجاب مزيد من الأطفال والعمل على توفير الشكل السليم من معايير الرعاية الاجتماعية.

لا يهم ما يستجد من أمور لدفع الناس للادخار، فليس هناك سوى طريقة واحدة لحل مشكلة الالتزام برواتب تقاعد يصعب الوفاء بها. فعلينا أن نقنع كبار السن أو نشجعهم على البقاء في العمل لمدة أطول. وهو هدف ليس سلبيا. علينا أن نقاوم الشيخوخة في مكان العمل وخارجه. وإن كان المقصود بها من هم فوق الخامسة والخمسين أو فوق الخامسة والستين أو فوق السبعين فالشيخوخة لم تعد تمثل العامل المعطل كما كانت من ذي قبل.

---

(1) Andre Sapir, 'Globalization and the reform of European social models', Background document for ECOFIN meeting, Manchester, 9 September 2005; >[www.bruegel.org](http://www.bruegel.org)<.

وأخيراً، فمواصلة إصلاح الدولة نفسها وإصلاح الخدمات العامة لا تقل أهمية بالنسبة لمستقبل النموذج الاجتماعى الأوروبى عن أى من العوامل المذكورة. فاللا مركزية والتنوع حيثما مست الحاجة لهما هما مطلب اليوم. ولا بد من وجود توازن بينهما وتكامل. وينبغى ألا تقل الخدمات العامة عن الهيئات التجارية فى تلبية احتياجات الناس.

## ما وراء الأداء الأفضل

الأداء الأفضل لا يأخذنا لأبعد من ذلك وليس فقط بسبب ما أشرنا إليه من قبل عن صعود وسقوط الدول التى تستحق أن يقتدى بها. فهناك قضايا ومشكلات حتى دول الشمال وغيرها من الدول الناجحة حالياً لا تتعامل معها بالدرجة الكافية. فعلياً أن نذهب بفكرنا إلى ما وراء ما هو قائم فى أى مكان حالياً، وهو ما سنتناوله تفصيلاً فى بقية الكتاب.

• حتى الدول ذات المستويات المرتفعة من تشغيل العمالة لم تتغلب تماماً على انخفاض نسبة العمالة، وهو مصطلح يقصد به أن كل من هو قادر على العمل لديه فرصة عمل. ومعظم البلدان تعاني ارتفاع معدلات المرض والعجز الطويل الأمد. وفى سنة ٢٠٠٤ تضاعف الغياب عن العمل لهذين السببين فى السويد مثلاً منذ ١٩٩٩. وكان عكس هذا الاتجاه هو المتوقع فى الحقيقة، لأن انخفاض التصنيع وتدهور صناعات كالتعدين كان ينبغى أن يحد من حوادث الميكنة أو الإرهاق البدنى الناجم عن قضاء العمر فى العمل اليدوى. وليس معروفًا مدى "حقيقة" ارتفاع معدلات المرض والعجز أو مدى كونه شكلاً مقنعاً من البطالة. ومع ذلك ففي حالة العجز من الواضح أن العاجزين القادرين على العمل يجب إمدادهم بموارد تعينهم على العودة إلى سوق العمل.

• للمرونة أهمية كبيرة باعتبارها وسيلة لجلب الحماية الاجتماعية والتكيف مع التغيير. ولكنها غير كافية في حد ذاتها. والمشكلة الرئيسة فيها أنها لا تظهر إلا عندما يفقد المرء عمله. فعلينا أن نبحث أيضاً عن سياسات تساعد الناس حتى قبل فقدانهم أشغالهم.

• إن الاقتصاد المزدهر ونظام الرعاية الاجتماعية الفعال لا يضمنان استيعاب المهاجرين أو الأقليات العرقية. فالشعبوية اليمينية والمشاعر المعادية للمهاجرين استجمعت قواها في الدنمارك وفنلندا (وبدرجة أقل في السويد). وشهدت هولنده حركة تزعمها السياسي الهولندي بيم فورتوين (الذي قتل في سنة ٢٠٠٢) وكان شعارها 'هولندا كاملة العدد'. وفي أعقاب مقتل المخرج السينمائي تيو فان جوخ في سنة ٢٠٠٤ تداعت سمعة هولنده القائمة على السلم الاجتماعي والتسامح. هذه الأحداث وما عكست وأفرزت من مخاوف وهواجس أثرت بشكل واضح على نتيجة الاستفتاء الهولندي على دستور الاتحاد الأوربي في سنة ٢٠٠٥.

• قد تكون نظم الرعاية الاجتماعية القائمة أساساً على سياسات أولوية العرض- كتلك المتبعة حالياً في البلدان ذات الأداء الأفضل- غير محصنة. فما مدى حصانة هذه المجتمعات من الركود حين لا تكون هناك فرص عمل كافية؟ كما أن إعطاء أولوية أكبر من اللازم للعمل قد تجر في أثرها مشكلات أخرى. فارتفاع معدلات الغياب لدواعي المرض مثلاً قد تعكس في جزء منها الضغوط النفسية لحياة قائمة على العمل. وما من بلد يمكن القول إنه حل ما به من مشكلات تتعلق بالموازنة بين العمل والحياة. وهناك شواهد على تزايد بعض أشكال المرض العقلي وينسب ملحوظة في العقود الأخيرة.<sup>(١)</sup>

---

(1) BBC, 'Mental health linked to diet', BBC News; <http://news.bbc.uk/2/hi/health/4610070.stm>.

• يقوم الحراك الاجتماعى فى حقبة ما بعد الحرب على التحول الهيكلى. أى إن فرص تحسين الذات جاءت فى المقام الأول من تحولات فى توزيع فرص العمل. وشهدت تلك الحقبة اتساعاً متواصلاً لمهن البياقة البيضاء على حساب المهن الزراعية والصناعية. وهكذا تمكن كثير ممن جاءوا من خلفيات طبقية حرفية أو عمالية من امتحان أعمال ذات مستوى أعلى. إلا أن نسبة القوة العاملة فى أعمال التصنيع انخفضت حالياً إلى أدنى مستوياتها. والمصادر الهيكلية للفرص آخذة فى التقلص ويبدو أن هذا الاتجاه سيستمر ما لم تظهر ديناميات جديدة غير متوقعة فى أسواق العمل. ويرجح أن تشهد مجتمعات الغرب سيولة غير موجهة أكبر مما شهدته فى أى وقت مضى.

• ظهرت مشكلات جديدة مع انضمام الدول الأعضاء العشر الجدد إلى الاتحاد. وعبر كثيرون عن هواجس تتصل بالتأثير المحتمل لهذه الدول على البلدان الأغنى - ما أثر أيضاً على نتائج الاستفتاء الدستورى. وعمال هذه الدول بما فى ذلك العمالة الماهرة مستعدون للعمل نظير أجور أقل مما يتقاضى نظراؤهم فى دول الاتحاد الأوروبى المؤسسة. فهل لوجودهم وتحركهم المستمر فى أوروبا تأثير ضار على الأجور؟ هل تهجر الصناعات من الدول الغنية إلى الدول الأعضاء الجديدة وتأخذ فرص العمل معها؟

• تنامي التنافس الدولى يحمل فى طياته أخطاراً على دول الاتحاد الأوروبى كافة، بصرف النظر عما حققت من نجاح فى الماضى القريب. وهو مجال قد تكون الدول الأصغر فيه أضعف من الدول الأكبر. فبلد كفنلندا على سبيل المثال بنى جزءاً من نجاحه على الصناعات ذات التقنيات العالية قد يعانى لو تمكن منافسون جدد من ضرب الأسعار أو قضى التحول التكني فجأة على أسواقها.

نعرض فى الفصول التالية بعض التوجهات للتعامل مع هذه النقاط المختلفة.  
والآراء الرئيسة التى سنركز عليها كالتالى:

١. ركز "جدول أعمال لشبونة" (بحق) على التحولات غير العادية التى تجتاح اقتصاد الدول المتقدمة. كان تأكيد وجود الاقتصاد المعرفى/الخدمى مسألة موضع جدل منذ بضع سنين. أما الآن فأصبح الاقتصاد الجديد واقعاً وبشكل دائم. ولكن لم يظهر إلا القليل من تحليل التحولات الاجتماعية التى صاحبت هذه التغيرات الجذرية. فالمجتمع الأكبر ومعه حياة الناس اليومية يتغير بشكل لا يقل حدة عن النظام الاقتصادى. وعلينا أن نحدد ماهية هذه التغيرات ونتبين نتائجها على السياسات.

٢. لا بد أن ندخل مفهوم العدل الاجتماعى فى لب الجدل حول لشبونة. ولا يكفى إطلاق تصريحات متقائلة عن الحد من الإقصاء الاجتماعى، مما اكتظت به الأدبيات الرسمية للاتحاد الأوروبى. فعدم وجود تحليل متقدم للأشكال المتغيرة للعدل الاجتماعى يعد من الأسباب الرئيسة لصعوبة تطبيق "جدول أعمال لشبونة". ومن يعارضونه على مستوى قومى يعارضونه فى الغالب لأنه يدعم السوق على حساب محدودى الدخل. علينا أن نثبت بالدليل أن الإصلاح يعزز العدل الاجتماعى ولا يضعفه.

٣. أقر "جدول أعمال لشبونة" أن أخطار الرعاية الاجتماعية متغيرة. فهناك على سبيل المثال ارتفاع فى معدل الفقر بين الأطفال فى بلدان عديدة. ومع ذلك فهذه المراجعة ليست بعيدة المدى بما يكفى. وعلينا أن نغير فكرة الرفاه نفسها ومعها بعض من أفكارنا المسبقة عن دولة الرفاه أيضاً. فالرفاه لا يتلخص فى تفادى الخطر. بل هو تغيير نمط الحياة إيجابياً. ولتناول هذه المسألة نحتاج لفكرة عن "الرفاه الإيجابى".

٤. لا بد من إدخال مسألة التنوع الثقافى إلى بؤرة المناقشات التى تتناول الرفاه. فهى عنصر أساسى فى إصلاح النموذج الاجتماعى. ومع ذلك ففكرة التعددية الثقافية أسىء فهمها على نطاق واسع. فهى لا تتضمن ترك المهاجرين أو الأقليات وحدهم للمضى فى حياتهم بما يروونه مناسباً. بل العكس؛ فالتعددية الثقافية تعنى البحث عن سبل ربط التنوع ربطاً مباشراً بقيم التيار السائد.

كل هذه القضايا لها تأثير مباشر على ماهية الاتحاد الأوروبى وما ينبغى أن يصبح عليه.

### خاتمة: أفضل العوالم؟

هناك سؤال يطرح دائماً: هل يمكن لأوروبا أن تتحمل نموذجها الاجتماعى؟ ولكن ربما كان علينا أن نعكسه: هل يمكن لأوروبا أن تتحمل غياب نموذجها الاجتماعى؟ إن مستويات التفاوت الموجودة فى الولايات المتحدة قد تجلب عليها مشكلات هائلة فى السنوات المقبلة. فقد تكون لدى الولايات المتحدة الجامعات الأفضل فى العالم، لكن لديها أيضاً نسبة أمية هى الأعلى بين البلدان الصناعية. ووفقاً لـ "برنامج التقويم الدولى" لا يزيد ترتيب من هم فى عمر الخامسة عشرة فى الولايات المتحدة عن الرابع والعشرين فى مقارنة تشمل تسعاً وعشرين دولة، والرابع والعشرين فى اختبارات مهارات حل المشكلات. ووجود نموذج اجتماعى أوروبى سليم فى عصر يتحول الاقتصاد المعرفى نفسه فيه إلى العولمة قد يعنى أن أوروبا قد تتفوق على الولايات المتحدة.

ولكى تسبق أوروبا العالم لا بد أن يكون لديها:

مستويات فنلندا فى انتشار تقنية المعلومات والاتصالات

الإنتاجية الصناعية الألمانية.

المستويات السويدية فى الجودة.

المستويات الدنماركية فى تشغيل العمالة.

النمو الاقتصادى الأيرلندى.

الطهى الإيطالى والنبيذ المجرى.

المستويات التشيكية فى الثقافة الأدبية.

المستويات الفرنسية فى الرعاية الصحية.

مستوى لوكسمبورج فى إجمالى الناتج المحلى للفرد.

المستويات النرويجية فى التعليم (ولو أن النرويج لم تنضم بعد للاتحاد الأوروبى).

الأممية البريطانية.

مناخ قبرص.

أنقدم باعتذارى للبلدان التى استبعدت من هذه القائمة العشوائية نوعا ولا أقصد أن تؤخذ على محمل الجد تماما. فلا مجال لدمج كل هذه العناصر معا بالطبع. وبعضها لا يتوافق مع بعض على أية حال. ولكن باستثناء المناخ فالتعلم المتبادل ممكن فى كل هذه الأبعاد، وتبين القائمة على الأقل كم السمات الغنية لدى أوروبا.

من مشكلات أوروبا الكبرى تنسيق سماتها المتنوعة دون إضعافها. فأوروبا تستطيع أن تكون قوة كبرى فى العالم، ولكن من المستبعد أن تعود إلى وضعية القوة الكبرى الأولى التى كانت.





## الفصل الثانى

### التغيير والتجديد فى أوروبا

إن تحقيق مزيد من الإصلاحات فى النموذج الاجتماعى الأوروبى ليس سهلاً. فأغلب التجديدات اللازمة يجب إدخالها على المستوى القومى. وبعض الدول لها أولوية على بعض، لا بسبب تاريخ الاتحاد، بل بسبب حجمها ودورها الاقتصادى العام. فكل الدول التى حققت نجاحاً فى الفترة الأخيرة صغيرة باستثناء المملكة المتحدة وإسبانيا. ونرى من جانبنا أن هذا لا يعنى ألا مجال لأن تتعلم غيرها من سياساتها. ولا يعنى أن تأثيرها على الصحة الاقتصادية العامة للاتحاد الأوروبى محدود. فثلاثاً البطالة فى الاتحاد الأوروبى فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وتتركز إلى حد كبير فى مناطق بعينها فى تلك الدول: فى شرق ألمانيا وشمال فرنسا وجنوب إيطاليا.

يشير تاريخ أوروبا بعد الحرب إلى أن الإصلاح الهيكلى البعيد المدى فى الدول لا يتم عادةً إلا بعد تنامى الشعور بوجود أزمة. فتمت التجديدات فى بلدان إسكندنافيا على خلفية المصاعب الاقتصادية الحادة وأولها فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين وأوائل التسعينيات. ولم تبدأ الإصلاحات فى بريطانيا إلا فى أعقاب فترة طويلة كانت البلاد فيها تمثل "رجل أوروبا المريض". وينطبق الشيء نفسه على هولنده التى ظل اقتصادها فى خطر لفترة طويلة.

هناك تساؤل ملح حالياً يتعلق بما إذا كان ثم شعور حاد بوجود أزمة فى اقتصادات الاتحاد الأوروبى الكبرى الضعيفة الأداء بما يكفى لإيجاد زخم للتغيير. وأحداث السنوات الأخيرة توحى بوجود شعور كهذا. وكان التصويت بالرفض فى استفتاء فرنسا على الدستور الأوروبى بمثابة قبول بالواقع - «لا مزيد من تخفيف النموذج الاجتماعى الأوروبى» - ولكنه كان فى الوقت نفسه صرخة إحباط. وكانت الاضطرابات فى مدن فرنسا فى أواخر ٢٠٠٥ تعبيراً أكثر حدة عن مشاعر كهذه.

لم تؤد الاضطرابات فى ألمانيا إلى وضوح الاتجاه بالنسبة للحكومة، بل ربما كانت هناك رغبة فى التجديد أكبر مما كان لفترة طويلة. وليس من الواضح ما إذا كان الشئ نفسه يصدق على إيطاليا التى أبدت بعضاً من المؤشرات الاقتصادية الأسوأ فى الاتحاد الأوروبى ذى الخمسة عشر عضواً بدءاً من ٢٠٠٦.

إن الدفاع عن النموذج الاجتماعى الأوروبى فى هذه البلدان لا يعنى بأى حال الإقرار بالأوضاع الراهنة بغض النظر عن ردود الفعل العاطفية لدى البعض. وهنا لا بد من تكرار ما قيل عن العولمة. فالأحداث فى العالم الخارجى ليست سوى أحد مصادر المصاعب التى تواجهها هذه المجتمعات. وما كان يجدى قبل بضعة عقود من السنين أصبح يمثل خللاً وظيفياً اليوم.

لا مجال لإلقاء تبعة كل مشكلة على كاهل "الثلاثة الكبار الضعاف الأداء". فلا تزال كثرة من المصاعب تكمن فى دول أوروبية أساسية أخرى. فمنذ أوائل التسعينيات زادت الرفاهية الفردية التى تقاس بتفاوت القوة الشرائية بنسبة ٣٣ بالمئة فى المملكة المتحدة، بينما لم تزد عن ٢٠ بالمئة فى فرنسا و١٧ بالمئة فى إيطاليا و١٦ بالمئة فى ألمانيا. وعلى الرغم مما حققت المملكة المتحدة من نجاحات فإن لديها كثيراً من المشكلات. فربع السكان فيها يتركون المدارس بدون مؤهلات

تعليمية أولية. هناك تحسن في خفض مستويات الفقر بين الأطفال، إلا أن البلاد لا تزال تأتي في المرتبة الحادية عشرة بين دول الاتحاد الأوربي الخمس عشرة فيما يتعلق بهذا المؤشر الأساسي. ولا تزال الإنتاجية الاقتصادية تحت مستواها، سواء في ألمانيا أو فرنسا، فضلاً عن الولايات المتحدة.

حققت إسبانيا تقدماً فائقاً سواء على الصعيد السياسي أو الثقافي أو الاقتصادي منذ انضمامها للاتحاد الأوربي - بل نتيجة لانضمامها إليه في جزء كبير منه. ومع أن البطالة فيها انخفضت بقدر كبير فهي لا تزال مرتفعة ومستوى تشغيل العمالة منخفضاً. وهناك مشكلات حادة في نظام التعليم، ولم تحقق إصلاحات سوق العمل تقدماً كبيراً لمنع التقسيمات إلى داخلي وخارجي. وتأتي إسبانيا في مرتبة متأخرة من حيث إصلاحات برنامج لشبونة.

نحاول في مستهل هذا الفصل سبر غور إمكانات الإصلاح في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. فألمانيا دولة محورية بالنسبة لأوروبا كلها حيث إن اقتصادها هو الأكبر فيها. إذن لا بد من حدوث تقدم فيما لا يقل عن اثنتين من الدول الثلاث في فترة زمنية قصيرة نسبياً إذا ما أريد لاقتصاد الاتحاد الأوربي ككل أن يعود إلى مساره الصحيح.

ثم ننتقل لمناقشة وضع الدول الأعضاء الجديدة من أوروبا الشرقية سابقاً (نعرف حالياً بوسط وشرق أوروبا)، حيث أسهم ضمها في زيادة القلق السائد في دول الاتحاد الأوربي الرئيسية. يمتزج هذا القلق بالقلق حيال الأشكال الجديدة للتنافس العالمي العام، وهي قضية حيوية تحتاج لبعض التمهيد. وأخيراً نناقش مدى وجهة هذا القلق بتناول نقاش يركز عليه بشكل مباشر، وهو الجدل حول محاولة مد السوق الموحدة ليشمل الصناعات الخدمية.

## المجتمعات المسدودة

يبلغ تعداد سكان ألمانيا وفرنسا وإيطاليا مجتمعين مئتي مليون نسمة، أى حوالى أربعين بالمئة من إجمالي تعداد سكان الاتحاد الأوروبى. وكانت الأوليان ولسنوات طويلة القائدين الرئيسيين لدمج الاتحاد الأوروبى. وكانت ألمانيا فيما مضى تعتبر "معجزة اقتصادية" وقصة نجاح يقتدى بها. واليوم يبدو ثلاثتهم النموذج الأول "للمجتمعات المسدودة" فى أوربا.<sup>(1)</sup> وتعريفنا للمجتمع المسدود هو مجتمع الحاجة للتغيير فيه واضحة لكثير من مواطنيه ولأغلب المراقبين المطلعين، ولكن إما النزعة المحافظة الطبيعية أو المصالح المكتسبة أو كليهما معًا تحول دون التغيير. وكلما كبرت السدود تعمق الشعور بالآزمة واللازم لحدوث أى إصلاح كبير.

## ألمانيا

المجتمع المسدود ليس مجتمعًا لا يتغير. وفى المجتمعات الثلاثة جميعًا هناك تغيرات كبرى تحدث. فالشركات الألمانية ولا سيما الكبرى منها لديها قدرة على التكيف أكبر كثيرًا مما كانت عليه قبل بضع سنوات. وانتقلت الشركات المالية من دورها القديم فى خدمة الشركات الصناعية إلى إستراتيجيات استثمارية أكبر. وبعد أن أعيدت هيكلة "المصرف الألمانى" بحيث يتخذ صورة أكثر عالمية فإن نصف مستخدميه يعيشون حاليًا خارج ألمانيا. وفى سنة ٢٠٠٠ أدرج ثلث أكبر مئة شركة فى ألمانيا على قائمة أسواق تبادل الأوراق المالية الدولية، وهذه النسبة فى ازدياد منذ ذلك الحين.<sup>(٢)</sup>

---

(1) Wolfgang Merkel, 'How the welfare state can tackle new inequalities', in Patrick Diamond and Matt Browne (eds.), *Rethinking Social Democracy*. London: Policy Network, 2004.

(2) Anke Hassel and Hugh Williamson, *The Evolution of the German Model*. London: Anglo-German Foundation, 2004.

كانت حركة الاتحاد في أواسط التسعينيات أحد المصادر الرئيسة لمقاومة الإصلاح، إلا أن تأثيرها قل وأصبحت أقل تصلبًا. والتفاوض على مستوى المصنع يحدث الآن في أغلب الشركات الصناعية الكبرى، في حين انتشرت عادات العمل الأكثر مرونة في كثير من جوانب الاقتصاد. فأسبوع العمل ذو الخمس والثلاثين ساعة، والذي كان مفخرة العمل النقابي الألماني يكرم الآن في غيابه. ويتفاوض الاتحاد الهندسي الضخم "آي جى ميتال" مثلاً حول اتفاقية لمدة عامين مع أصحاب الأعمال حتى يحسب أسبوع العمل ذو الخمس والثلاثين ساعة بالمتوسط على عامين. إلا أن أغلب العاملين الألمان يعملون لمدة أطول - فأغلبية ذوى الياقة البيضاء يعملون حاليًا بنظام أسبوع عمل يبلغ أربعين ساعة.

جاءت حزمة إصلاحات سوق العمل ولائحة ٢٠١٠ بعد فوات الأوان لإنقاذ حكومة جرهارد شرودر، ولكن سيستفيد منها التحالف الذى تترعّمه المستشار أنجيلا ميركل، والذي يتولى السلطة وقت كتابة هذا العمل. تتضمن لائحة ٢٠١٠ حزمة كبيرة من الإصلاحات، ولكنها مصممة خصيصًا لتوافق الظروف الألمانية. فهي فى السياق الألمانى تمثل تحولاً جذرياً عن السياسات السابقة. إعانات البطالة أصبحت مشروطة ومصممة لتحميل مسؤولية شخصية عن البحث النشط عن فرصة عمل. وألغى العنصر الأساسى فى نظام التأمين الاجتماعى التقليدى وهو ربط إعانة البطالة بالأرباح السابقة. وأخيرًا انخفضت تكاليف العمالة غير المرتبطة بالأجر، والتي كانت تحول دون خلق فرص عمل بالتزامن مع زيادات فى ضرائب الاستهلاك. وإصلاح رواتب التقاعد مدرج بصورة جادة على اللائحة. فتشمل اقتراحات الإصلاح زيادة تدريجية فى سن التقاعد بمعدل شهر كل سنة بدءًا من ٢٠١١ فصاعدًا ليصل فى النهاية إلى سن السابعة والستين. وبعاد النظر فى السياسات التى وضعت بغرض جذب كبار السن إلى سوق العمل أو إقائهم فيه،

إضافة إلى إصلاحات واسعة في الرعاية الصحية لتشمل التكليف، ولو أن المشكلات في هذا المجال حادة.

هل تسهم هذه الإصلاحات في تحديث النموذج الاجتماعي الألماني؟ نعم، تسهم من حيث المبدأ ولو أن جزءًا كبيرًا من إكمال تطبيقها يتوقف على القيادة السياسية العامة وعلى الإصلاحات المستهدفة في ألمانيا الشرقية. فحين يشرع أى مجتمع مسدود في الإصلاح فالإصلاح يمكن أن يتم بسرعة نظرًا لوجود ضغوط مكبوتة من أجل التجديد. والتحالف الكبير يسميه أنصاره "صحبة المصير"، إلا أن مدى فعاليته وقدرته على البقاء غير معروفين حاليًا.

هناك إصلاحات جوهرية مطلوبة في مجال الرعاية الاجتماعية ولو أنها لا تتخذ مكانًا محوريًا في الجدل الألماني. فألمانيا تتفق أكثر من اللازم على كبار السن ولا تتفق على الشباب بالشكل الكافي، والإصلاح المقترح لرواتب التقاعد ليست بعيدة المدى لدرجة تبديل هذا الوضع. ولا تضم قوة العمل إلا نسبة ضئيلة من النساء مقارنة بسائر دول الاتحاد الأوربي ذى الخمس عشرة دولة عضوًا. ولا يزال نظام الرعاية الاجتماعية الألماني يعتمد في جوهره على الأسرة التقليدية مع أن الأسرة التقليدية بتقسيمتها الواضحة إلى دورى الذكر والأنثى على وشك الزوال.

بعد مشكلاتها الأولية يبدو أن ألمانيا استغادت من اتحادها النقدي. ويكمن السر في الاعتدال. ففي سنة ١٩٩٦ كانت هناك مبالغة في تقدير تكاليف العمالة بنسبة ٢٠ بالمئة. ومع ذلك ظل تضخم الأجور في ألمانيا منذ ذلك الحين أدنى من معدلته في الاتحاد الأوربي، ما ساعد على التنافسية إلى حد كبير. وتقف بقية أوروبا تنتظر وتتأمل في قلق. فبدون العودة للنمو وتحقيق مستوى أعلى كثيرًا من إيجاد فرص العمل في ألمانيا فليس هناك أمل كبير في حدوث قفزة إلى الأمام في موقف أوروبا الاقتصادى العام.

## فرنسا

هناك قاسم كبير واحد يجمع فرنسا بألمانيا، ألا وهو نجاح شركاتها الكبرى. وينظر إلى فرنسا في الغالب باعتبارها موطن القومية الاقتصادية. أما فيما يتعلق بشركاتها الرائدة فهي ليست غريبة على العولمة. فشركة دانون على سبيل المثال الموزع الأكبر لمنتجات الألبان وزجاجات الماء في العالم، حيث تنتشر منتجاتها في مئة وعشرين دولة وبإجمالي مبيعات يبلغ ١٤ مليار يورو.<sup>(١)</sup> وفي ترتيب الشركات الكبرى الأفضل إدارة في العالم والذي أعدته مجلة فوربس في سنة ٢٠٠٣ جاءت فرنسا في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة وتقدمت على اليابان والمملكة المتحدة وألمانيا.

هناك واحد من كل سبعة مستخدمين في فرنسا يعمل بشركة تابعة لشركة أجنبية، وهو عدد تضاعف أو كاد بين ١٩٩٤ و ٢٠٠٣. وهذا العدد يساوى الآن ١٦ بالمئة من حجم قوة العمل في القطاعات غير الحكومية، وهي نسبة تفوق نظيرتها في المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة. وللشركات الأجنبية أغلبية الأسهم في ٤٢ بالمئة من الشركات الكبرى المدرجة في سوق باريس للأوراق المالية، مقارنةً بنسبة ٣٣ بالمئة في المملكة المتحدة. وفرنسا ثالث أكبر وجهة للاستثمار الأجنبي المباشر في العالم بعد الولايات المتحدة والصين.

واعتناق العولمة يتم خلسةً كما في ألمانيا. والعولمة في فرنسا وعلى خلاف ألمانيا تعادل الأمركة بصفة عامة، وانتقاد العولمة رسالة سياسية لها جاذبيتها.<sup>(٢)</sup>

---

(1) Sophie Meunier, 'France and globalization in 2003'. US-France Analysis series, Brookings Institution, May 2003.

(2) Philip H. Gordon and Sophie Meunier, The French Challenge: Adapting to Globalization. Washington: Brookings Institution Press, 2001.

والحركة المناهضة للعولمة لها أنصارها في فرنسا بما يخلق مناخاً سياسياً يختلف عنه في أى بلد أوروبى غيرها. هذه الفروق تنعكس في استطلاعات الرأى. فهناك استطلاع رأى جرى في سنة ٢٠٠٢ كشف عن أن ٦٣ بالمئة من سكان فرنسا "قلقون" من العولمة. ولم يعبر عن "الثقة بالنفس" سوى ١٠ بالمئة، بينما لم "يتحمس" لها إلا ٢ بالمئة. من ثم ففرنسا تتسم بالفصام حيال العولمة على أحسن الفروض، وفي حالة إنكار على أسوأها. ويصدق الشيء نفسه على تنوعها الثقافى، أو كان كذلك حتى نشوب الاضطرابات في مدن فرنسا في سنة ٢٠٠٥. ففرنسا لديها الأقليات الإسلامية الأكبر في أوربا، ولديها طوائف أقليات وجماعات مهاجرة أخرى متنوعة. ومع ذلك فهي تعتبر نفسها مجتمعاً أحادى الثقافة. والتعددية الثقافية محسوبة كالعولمة على العالم "الأنجلو سكسونى".<sup>(١)</sup>

لدى فرنسا خدمات رعاية اجتماعية متميزة في بعض المجالات. فوسائل رعاية الطفل مثلاً تفوق نظيرتها في ألمانيا، وهو من الأسباب الرئيسة كما سبقت الإشارة لارتفاع معدل المواليد إلى هذا الحد. ومعايير الرعاية الصحية ممتازة ولو أن نظام الرعاية الصحية ليس في المتناول بحالته الراهنة كما في ألمانيا. أما التعليم العالى فمتهاك إلى حد كبير (كما في ألمانيا أيضاً). والبطالة في فرنسا تنافس نظيرتها في ألمانيا؛ ونسبة كبيرة من المتعطلين في فرنسا يعانون بطالة طويلة الأمد. ومستوى تشغيل العمالة منخفض نسبياً - أدنى بكثير من هدف لشبونة البالغ ٧٠ بالمئة من القوة العاملة. وتتمثل مشكلات فرنسا الرئيسة في انقسامات سوق العمل مقترنة بنسبة بطالة مرتفعة للغاية بين الشباب، وأوضح ما تكون بين الأقليات.

---

(1) Jeremy Jennings, 'Citizenship, republicanism and multiculturalism in contemporary France', British Journal of Political Studies, 30 (2000).



تتفق فرنسا بالفعل قدر ما تتفق السويد على السياسات الاجتماعية، لكن لديها نسبة فقر تفوقها بثلاث مرات إلى أربع. وفي كتابه "فرنسا في أزمة" يبين تيموثي سميث أن السياسات الاجتماعية الفرنسية لا تقوم على إعادة التوزيع، فمعظم الإنفاق الاجتماعي يساعد في الحقيقة على اتساع الفوارق القائمة.<sup>(1)</sup>

ارتفعت البطالة إلى ١٠ بالمئة في سنة ١٩٨٣ وظلت تحوم حول هذا المعدل منذ ذلك الحين. وعلى الرغم من هذا الوضع جرت سلسلة من التدخلات التشريعية في سوق العمل بغرض حماية فرص العمل. وتلجأ للمحاكم حالياً نسبة لا تقل عن ٢٥ بالمئة من المسرحين. ولتفادي إجراءات المحاكم يلجأ أصحاب الأعمال غالباً لدفع تعويضات فصل من العمل أعلى مما يلزمهم به القانون. وتتمثل النتائج الرئيسة في ترسيخ سوق العمل المنقسم والإسهام في زيادة الفوارق الاقتصادية العامة. وكثير من الشباب إن وجدوا فرص عمل يجدون أنفسهم في أشغال ذات عقود عمل محددة المدة - أو يعملون في الاقتصاد الفرعي. و٧٠ بالمئة من فرص العمل الجديدة حالياً أشغال ذات عقود محددة المدة؛ وتدوم نوبات البطالة بمعدل ثلاثة عشر شهراً.

كانت الإصلاحات التي أدخلت - وإن كانت مختصرة - في أوائل ٢٠٠٦ تمثل انفصلاً عن الماضي. كان "عقد العمل الجديد" (CNE) للشركات الصغيرة؛ و"عقد العمل الأولي" (CPE) للشركات الأكبر. هذه الإصلاحات ألغت فعلياً الإطار الكلي لقانون العمل القائم للعامين الأولين من عمل أي شاب. وأصبح من حق صاحب العمل تسريح العمال متى شاء في العامين الأولين من عملهم بشرط

---

(1) Timothy Smith, *France in Crisis: Welfare, Inequality and Globalization since 1980*. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.

إنذارهم قبلها بأسبوعين. وكان المثال الذى ضربته حكومة إسبانيا التى ينتشر فيها العمل بنظام العقود المؤقتة هو الذى أسهم فى رفع معدلات تشغيل العمالة.

بدأ من يفترض أن تستهدف هذه التغييرات مصالحهم فى النزول للشوارع بأعداد غفيرة احتجاجًا عليها. ولم يقتنع المحتجون بأن المقترحات المعروضة ستعود عليهم بالفوائد الموعودة من حيث الفرص. وربما كانوا على حق، إذ لم تفعل الإصلاحات شيئاً حيال مزايا المؤننين - العمال من أصحاب العقود المؤقتة والمحمية وعلى رأسهم العاملين فى الحكومة وفى شركات كبيرة. وتحتاج فرنسا لنسخة خاصة بها من "لائحة ٢٠١٠" التى تركز على سوق العمل ككل وتوفر الموارد اللازمة لإعادة التأهيل للبحث عن عمل. إلا أن إيجاد مناخ سياسى يمكن تأمل مثل هذه الإصلاحات فيه بصورة جادة يبدو أصعب كثيرًا حتى مما كان فى ألمانيا.

## إيطاليا

على الرغم من صعوبة مشكلات ألمانيا وفرنسا فهناك مشكلات تفوقها صعوبة فى إيطاليا أكثر المجتمعات المسدودة انسدادًا فى أوروبا. ففي سنة ١٩٨٧ أعلنت إيطاليا رسميًا أن إجمالى ناتجها المحلى لحق بنظيره فى بريطانيا. وفى السنوات التى تلت كان معدل النمو فى إيطاليا الأدنى فى الاتحاد الأوروبى بعد نظيره فى كل من ألمانيا وفرنسا. وحتى لو أضفنا إليه الاقتصاد الفرعى الضخم فإن اقتصاد إيطاليا لا يزيد على نسبة ٨٠ بالمئة من حجم اقتصاد بريطانيا. وفى سنة ٢٠٠٥ كانت نسبة نموه صفرًا تقريبًا.

يمثل الدين العام أكثر من مئة بالمئة من إجمالى الناتج المحلى؛ وتتفق البلاد ٤,٥ بالمئة من عوائدها السنوية على سداد فوائده. ويقوم رخاء إيطاليا على صناعات معرضة للمنافسة من الخارج كصناعة المنسوجات والثياب والأثاث.

وهي تأتي في ترتيب متأخر من حيث معظم معايير لشبونة، ومن ذلك التعليم والاستثمار في تقنية المعلومات. وقليل ممن تخطوا الخامسة والخمسين من العمر يعملون. وهناك تحليل أجرته المفوضية الأوروبية في سنة ٢٠٠٣ تضمن ثمانية مؤشرات هيكلية وضع إيطاليا في ذيل الدول الأعضاء، وجاءت قدرتها على التنافس أقل من قدرة البرتغال واليونان، وهما من المملكتين غيرها في هذا الصدد.

وعلى خلاف الحال في ألمانيا لم تخفض تكاليف الأجور أو تحتوى حتى. وانخفضت تكاليف عمالة الوحدة بنسبة ١,٥ بالمئة منذ ١٩٩٥؛ وزادت في إيطاليا بنسبة ٤٠ بالمئة. وليس لدى إيطاليا ما لدى كل من ألمانيا وفرنسا من شركات كبرى. وظلت البلاد لمدة طويلة تدبر أمورها بخفض عملتها (كما فعلت المملكة المتحدة في فترة سابقة). وأدى ذلك إلى عودة مؤقتة إلى المنافسة، ولكن كان معناه في الوقت نفسه إرجاء الإصلاحات اللازمة لأجل غير مسمى. ولم يتكشف ضعف إيطاليا الهيكلية تمامًا إلا بعد أن انضمت للعملة الموحدة.

تمثل منظومة الرعاية الاجتماعية الإيطالية حالة قصوى من الاعتماد على الأسرة التقليدية الذي بدأ في التراجع في بلدان متقدمة أخرى. فليست هناك إلا نسبة ضئيلة نسبيًا من النساء في سوق العمل. ومعدل المواليد في إيطاليا من أقل المعدلات في العالم حيث يبلغ ١,٢ لكل ألف نسمة (مقارنة بنسبة ٢,٧ في الستينيات). وبقاء الأبناء في بيت الأسرة من سمات الحياة العائلية في إيطاليا؛ فلا يزال أكثر من ٨٠ بالمئة من الرجال بين سن ١٨ و ٣٠ يقيمون مع آبائهم. وينجب الرجل الإيطالي أول أبنائه في عمر الثالثة والثلاثين في المتوسط.

وإنشاء المشروعات التجارية صعب في إيطاليا بسبب اللوائح السرية. فمن يريد أن يبدأ مشروعًا يحتاج لقطع ثلاث وستين خطوة تستغرق ستين ويوم عمل. وتحتاج

المهمة نفسها لثلاثة وخمسين يوماً في فرنسا، وخمسة وأربعين يوماً في ألمانيا وما لا يزيد عن ثلاثة أيام في الدنمارك. سوق العمل فيها منقسم كغيره في أوروبا، ويحظى المحليون بحماية كبيرة. وكل فرص العمل الجديدة تتوفر في القطاعات غير المحمية وفي الاقتصاد الفرعى الضخم. فالإقتصاد الفرعى هو الذى يمد المجتمع بقوة التحمل التى تكذبها الإحصاءات الرسمية - وبمزيد من المرونة والتكيف.

وكما فى فرنسا هناك أعداد كبيرة من العمال فى الوظائف المؤقتة بالعقود. وليس ثمة منظومة شاملة للتأمين ضد البطالة. والمدفوعات التى تقدمها الحكومة تتحدد كل حالة فيها على حدة، وهى عموماً لا تشمل الشركات الصغيرة - فى حين أن هذه الشركات تمثل ٧٠ بالمئة من إجمالى الناتج المحلى فى إيطاليا. وتقترح حكومة يسار الوسط الجديدة خطة توفر مزيداً من الحماية للعامل كلما طال أمد شغله عمله بدلاً من تحرير عقد عمل جديد كما حاول البعض فى فرنسا.

السن الرسمى للتقاعد فى إيطاليا ٦٥ سنة للرجال و ٦٠ للنساء. إلا أن متوسط سن التقاعد لكلا الجنسين ٥٧ سنة. وتقدمت حكومة برلوسكونى بخطط لجعل متوسط سن التقاعد الحقيقى ٦٠ سنة بحلول سنة ٢٠١٠، وذلك بخفض راتب التقاعد لمن يتقاعد قبلها. إلا أن الإصلاحات الفعلية التى تمت كانت أقل طموحاً من ذلك.

وجامعات إيطاليا شديدة الازدحام لدرجة الإنهاك ولم تشهد من الإصلاحات الفعالة إلا القليل، كما أن الإنفاق على البحث والتطوير قليل أيضاً. وليس لدى البلاد ما تستثمره بدون تغيير هيكله. ونظراً لحجم الاقتصاد الفرعى الذى يتركز كثير منه فى الجنوب ومركزه نابولى فإن حجم التهرب الضريبى يقترب من مئة مليار يورو سنوياً. ويشبه البعض إيطاليا بضفدع فى ماء بارد، «أوقدت النار وسيموت

الصفء فى النهاىة بهءوء وءون أن ىءرى»<sup>(١)</sup> وهو ءشبهه لا ىءلوا من بعض الحقىقة. فالشعور بالأزمة والواضح فى ألمانىا وفرنسا لا ىءو أن له وءوذا فى إىطالىا. فهى بلد ألف الأزماء وصعوء الحكوماء وسقوطها فلم يأخذ المأزق الراهن على محمل الجء.

على أى فالبلاد ءواجه مصاعب شءىءة الإلحاح. وىزءاء نمط حىاءها صعوبة حتى على المءى القصىر نسبىا. ونظرا لأن الحل ءقلىءى السرىع المءمل فى خفض العملة لم ىعء ىمكن اللجوء إلیه فما من ءیار باقى سوى إصلاح هىكلى جءرى. إلا أن النظام السىاسى للبلاد بءحالفائه المعقءة ومصالحه المءشابهة ىءو عاجزا عن ءولء الطاقة السىاسىة اللازمة. وفى ظل الظروف الراهنه ءءو المشكلة أكبر نظرا لضعف الهامش الذى فازء به الحكومة الءى انءءبء فى أبرىل ٢٠٠٦.

وبءون برنامج إصلاح فعال قء ىؤءر مأزق إىطالىا على بقىة الاءءاء الأوروبى ءأءىرا مباشرا. وعضوبة "الاءءاء النقءى الأوروبى" من حیء المباء ءجبر البلاد على مواههة مشكلاءها واءاآء ءطواء فعالة لحلها. ولكن هل سءءمكن إىطالىا من ذلك؟ قء ءصل ءكالىف اسءمرار ءءاعس إلی ءء الانسحاب من "الاءءاء النقءى الأوروبى"، وهو أمر قء ءكون له عواقبه على مسألة ءءامل النقءى برمءها.

إذا نظرنا إلی المءءماعاء الءى نجءء فى الإصلاح نجد أن طبعىة نظمها السىاسىة ءمءل عنصرا أساسىا كما هو مءوقع. والسنظم السىاسىة الءى ءسمء بالإصلاح أو ءساعد علیه صنفان؛ صنف ىءم الإصلاح فىه من ءلال سىاسة إجماع حتى فى مواههة مشكلاء ءءىر الشقاق. وهءه المءءماعاء بها حركة عمالىة قویة

---

(1) Francesco Giavazzi, 'Italy: the frog in cold water', Telos-EU (1 April 2006), p. 2.

تألف العمل مع الحكومة وقطاع الأعمال الحرة على السواء.<sup>(١)</sup> قد تكون هناك نقاشات حامية وشقايات قاسية، لكن هناك من الأخذ والرد ما يكفي لإيجاد إجماع على التغيير. ويبدو أن بلدان الشمال وهولندا وبعض الدول الصغيرة لديها القدرة على إحداث التغيير بهذه الصورة، ولو أن هناك في الوقت الراهن شقايات كبرى في عديد منها حول الأقليات والهجرة.

في البلدان الكبيرة يمكن لأي نظام توافقي أن يعمل بشكل فعال - كألمانيا الغربية في الستينيات والسبعينيات مثلاً - ولكنه قد يترجم إلى نزعة محافظة هيكلية أيضاً. ومن الصعب إفراز قيادة فعالة إذا تداعى الإجماع. كان "نموذج بون" الألماني الغربي ناجحاً، لكن تماسكه كان ناجماً في جزء منه عن وضعية البلاد في الحرب الباردة باعتبارها دولة غربية في وضع "جبهة أمامية". كانت الفدرالية تعمل بكل كفاءة حينئذ، ولكن ليس من الواضح ما إذا ظلت على نجاحها بعد إعادة التوحيد. فمذ التسعينيات أصبح ستون بالمئة من التشريعات الفيدرالية يتطلب تصديق الغرفة الثانية التي كانت لها سلطة الاعتراض المطلق. وكانت الإصلاحات التي جرت في أوائل ٢٠٠٦ تهدف لخفض هذه النسبة لتصبح ٣٥-٤٠ بالمئة، إلا أنها قد تجعل اتخاذ القرار أصعب في بعض النواحي.

وتختلف آليات الانسداد في بلدان أخرى. فهذه دول ينخفض فيها مستوى عضوية الاتحاد لكن النقابات فيها لها تأثير على القطاع الحكومي ولها تراث من الراديكالية. وقدرة قادة الحكومة على القيادة تحكمها "قوة اعتراض الشارع" - قدرة الفئات على تعبئة الفعل المباشر لعرقلة إجراءات الإصلاح. والنماذج الرئيسة في أوروبا هي فرنسا وإيطاليا واليونان.

---

(١) المرجع في هذا الصدد كتاب Conflict: Geoffrey Ingham, Strikes and Industrial Britain and Scandinavia. London: Macmillan, 1974

## أوروبا الشرقية سابقاً

مرة أخرى تختلف مشكلات الدول التي كانت شيوعية. فالدول الأعضاء الجديدة أصبحت ترتبط في نظر كثيرين في أوروبا الغربية بالضرائب المنخفضة والمنافسة غير العادلة، وهي قضايا ظهرت بقوة في الاستفتاءات على الدستور. إلا أن هذه الآراء تفتقر إلى الدقة إلى حد كبير. فهناك أربع دول أوروبية شرقية سابقة في الاتحاد الأوروبي - لاتفيا وليتوانيا وسلوفينيا وسلوفاكيا - أدخلت ضرائب الدخل الموحدة. ولم يكن المنطق وراء إدخال مثل هذه الضرائب خفض الضرائب، بل رفعها. فضرائب الدخل الموحدة تفرض في بلدان - داخل الاتحاد وخارجه - ترتفع فيها مستويات التهرب الضريبي. وعلى أية حال فمتوسط المعدل الضريبي في الدول العشر المنضمة حديثاً للاتحاد في الحقيقة أقل كثيراً من نظيره في أوروبا الغربية. فكان متوسط المعدل الضريبي في سنة ٢٠٠٣ يمثل ٣٦ بالمئة من إجمالي الناتج المحلي مقارنة بما يزيد عن ٤٠ بالمئة في دول الاتحاد الخمس عشرة الأولى.

كانت المستويات الكلية للضرائب في أكبر دولتين شيوعيتين سابقتين في الاتحاد الأوروبي - المجر وبولنده - تقترب كثيراً من نظيرتها في دول الاتحاد الخمس عشرة. والمصاعب التي تواجهها هاتان الدولتان أكبر مما تواجهه دول الاتحاد الخمس عشرة باستثناء إيطاليا ربما، لأنهما تربطان الحاجة لإصلاح منظومة الرعاية الاجتماعية بمستوى متدنٍ من التنافسية الصناعية. فبولندا، وهي الأكبر بين الدول الأعضاء الجدد لديها أقل معدل تشغيل عمالة في الاتحاد الأوروبي بنسبة ٥١ بالمئة من قوة العمل. ولديهما أقل القليل من الأعمال التجارية التي تنافس دولياً والانتقال إلى اقتصاد سوق معناه انهيار عديد من المشروعات التي تملكها الدولة. وتصل نسبة البطالة إلى ٣٠ بالمئة في بعض المناطق، في حين أن

٤٥؛ بالمئة من الشباب أقل من سن الخامسة والعشرين عاطلون. بالتالى فمنظومة الرعاية الاجتماعية تخضع لضغط شديد ولا تعكس الاحتياجات على الرغم من الإصلاحات. ويتركز المستفيدون من منظومة الرعاية الاجتماعية فى كبار السن وإعانات البطالة التقليدية.

كانت منظومة الرعاية الاجتماعية فى أوروبا الشرقية فى العهد الشيوعى تهدف إلى "إيجاد الاشتراكية" من خلال نظام الأجور المركزى وضمان التشغيل والسياسات المرتبطة بالمشروعات الخاضعة لسيطرة الدولة. وكانت المشاركة فى قوة العمل الأساس الأول للاستحقاق. وفى البلدان الأكثر تقدماً كالمجر بدأ هذا النظام فى التغير قبل تحولات ٨٩-١٩٩٠. فسياسات الرعاية الاجتماعية التقليدية حلت محلها الإجراءات المختبرة.

وتتواصل محاولات التحديث فى المجر ولكن فى وضع ينظر الكثيرون فيه إلى الماضى بحنين. وتركز الحكومة الحالية تركيزاً شديداً على الحوار مع فئات المجتمع المدنى فيما يمثل فارقاً كبيراً عن العهد الشيوعى حين كانت أغلب إجراءات الرعاية الاجتماعية تفرض من أعلى لأسفل على الرغم من كثرة الكلام عن الشراكات. وأهداف الحكومة من استمرار عملية الإصلاح موجهة صراحةً نحو أهداف الإصلاح فى الدول الخمس عشرة أعضاء الاتحاد الأوروبى القدامى. والهدف المعلن تحقيق أهداف إستراتيجية لشبونة بما فى ذلك التطلع إلى زيادة التماسك الاجتماعى.<sup>(١)</sup>

ينبغى على دول الاتحاد الأوروبى الأساسية أن تدرك المشكلات التى تواجه الأعضاء الجدد. فكثيرون فى أوروبا الشرقية سابقاً ومنهم القادة السياسيون

---

(١) "The wild East", New York Times, 13 December 2005.



والمواطنون تحرروا من وهم تغيير ما بعد ١٩٨٩ وتأثيرات الانضمام للاتحاد الأوربي. وكما يقول يانوس كورناي فإن ما كان يعتبر «حلم يقظة يائسا» - أى تحرر مجتمعاتهم من نير الاتحاد السوفيتي والتحول إلى اقتصادات سوق ديمقراطية - «بات حقيقة». وبعد أن تحقق ما بدا فيما مضى مستحيلاً «شعر كثير من الناس بإحباط وغصة».<sup>(١)</sup>

الخلفية الاقتصادية فى حد ذاتها مشجعة. درس كورناي ثمانية بلدان دراسة مكثفة: جمهورية التشيك، إستونيا، بولندا، لاتفيا، ليتوانيا، المجر، سلوفاكيا، سلوفينيا. وكان معدل النمو فى ست منها أعلى فى الفترة ١٩٩٠-٢٠٠٠ منه فى السنوات العشر قبل ١٩٩٠. ومنذ ١٩٩٥ ارتفع إجمالى الناتج المحلى للفرد وإنتاجية العمال بصورة أسرع كثيراً منه فى دول الاتحاد الخمس عشرة الأساسية. وحقت إنتاجية العمال نمواً يوازي أربعة أمثال نظيره فى دول الاتحاد الأوربي الأساسية.

مع ذلك فإن عملية الانتقال لم تكن تخلو من منغصات. فقبل ١٩٩٠ كانت نسبة كبيرة من السكان تعيش فى فقر، بل إن منهم من ازداد الآن فقراً. وعانى بعضهم تدهوراً فى دخولهم.<sup>(٢)</sup> وزادت مستويات الفوارق الاقتصادية العامة. ولعل أهم ما فى الأمر زوال الأمن الاقتصادى الذى كان - «نحن نتظاهر بالعمل وأنتم نتظاهرون بأنكم تعطوننا أجورنا». كان النقص المزمن وقوائم الانتظار حتى فى السلع الأساسية أشياء مألوفة فى العهد الشيوعى. ولكن كان هناك أمن وظيفى لكل فرد. والبطالة الآن أصبحت سافرة غير مقنعة كما كانت فى النظام القديم.

---

(1) Janos Kornai, 'The great transformation of Central Eastern Europe'. Presidential address, 14th World Congress of the IEA, August 2005.

(2) المرجع نفسه، ص ٢٦-٢٨.

وصاحب زوال التثبيت الوظيفي المسلم به أشكال عدم الاستقرار الجديدة على جبهات مختلفة. بعضها كمثلها في كل مكان ولكن بالنسبة لقوم ألفوا نظاماً مختلفاً كان الأمر أكثر إزعاجاً. فكانت الأسعار في الحوانيت مثلاً تثبت لفترات طويلة، بينما هي اليوم متغيرة باستمرار. كانت الشركات الخاضعة لسيطرة الدولة كيانات ثابتة في المشهد؛ أما الآن فالشركات تظهر وتزول. كان الفساد مؤسسياً ومتوارياً عن المشهد العام؛ أما اليوم فهو موجود في عدد لا يحصى من التعاملات، من مستوى فردي إلى مستوى حكومي.

وهناك أشكال أخرى من الاستياء أيضاً اتجه بعضها إلى الاتحاد الأوربي، ومنها الشعور بالفراغ الذي يمكن أن يأتي به الانضمام حين يتم. فهناك كم هائل من التغييرات لا بد من إجرائها قبل الانضمام ولا تقدم الكثير بعد إتمامه. ويتطلع كثير من الناس لمزايا فورية لا تتحقق. وأخيراً هناك ظاهرة الحرمان النسبي. فنظرة الناس لحياتهم تتوقف إلى حد كبير على من يقارنون أنفسهم بهم. ففي العهود السابقة كان المواطنون في أوروبا الشرقية يعتبرون ظروف حياتهم أفضل من ظروف حياة الناس في الاتحاد السوفيتي. أما الآن فتحوّلت مرجعيتهم إلى بلدان كالسويد أو النمسا حيث يعيش الناس في ظروف أفضل كثيراً من ظروفهم.<sup>(١)</sup>

## الإغراق الاجتماعي

لا بد من الحرص على ضمان أن تقسيم أوروبا نفسه، والذي كان يُرجى التغلب عليه بتوسيع دائرة الاتحاد لم يعد مفتوحاً. فلم يسمح بحرية الحركة لمواطني الدول الأعضاء الجدد فور الانضمام في سنة ٢٠٠٤ إلا في المملكة المتحدة

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠-٣١.

والسويد وأيرلندا. وظهر "الإغراق الاجتماعي" وأصبح قضية ملحة فى أرجاء أوروبا ووضع فيما يبدو مصالح الدول أعضاء الاتحاد الأقدم فى مواجهة مع مصالح الدول الأعضاء الجديدة. وهو مصطلح عاطفى يدل على أشياء مختلفة عديدة. أحدها أن وفرة الأيدى العاملة الرخيصة من أوروبا الشرقية ستؤدى إلى ضغوط لخفض الأجور فى الدول الأغنى. ومن معانيه أيضا أن الضرائب المنخفضة فى الدول الأعضاء الجديدة ستعطىهم ميزة تنافسية مجحفة على من تفرض عليهم مستويات ضريبية كلية أعلى. ومن معانيها كذلك أن الصناعة ستهاجر إلى الدول الأعضاء الجديدة لأنها ستخفض تكاليفها بهذه الطريقة. ونضيف إلى ذلك المخاوف من المنافسة القليلة التكاليف القادمة من دول نامية خارج أوروبا. وقد يمتزج القلق من هذه الأشياء فى أذهان الناس مع ما يشعرون به من قلق حيال توسيع الاتحاد، ولو أنه ليس ثمة صلة مباشرة بين هذا وذاك.

لعب السباك البولندى الذى حقق شهرة الآن دورا أساسيا فى الاستفتاء الفرنسى - فى غيابه بالطبع لأن فرنسا ليس فيها إلا القليل من السباكين البولنديين. والقلق من "الإغراق الاجتماعي" محسوس لا على مستوى العوام وحدهم، بل لدى الزعماء السياسيين أيضا. فهو يشكل أساس الدعوات للتوفيق بين الضرائب والقلق من "لائحة الخدمات" التى أعلنتها المفوضية فى يناير ٢٠٠٤.

ولكن من الضروري أن نميز القلق المبرر عن القلق الزائف وأن نحصر المشكلات السياسية والضغوط الشعبية للحظة. فإلى أى مدى تعتبر مستويات المعيشة فى بلدان الاتحاد الأوروبى الأغنى مهددة بسبب انضمام البلدان الأفقر؟ ألا يمكن أن يؤدى ذلك إلى انطلاق "سباق نحو القاع"؟ وهناك تساؤل جديد نسبيا برز فى الآونة الأخيرة وإن لم يلق فى أوروبا ما لقى من اهتمام فى الولايات المتحدة،

ويتعلق بالاستعانة بمصادر خارجية لشغل وظائف خدمية وقائمة على المعرفة فى البلدان الأفقر، حيث يتقاضى العاملون فيها أجوراً أقل من نظرائهم فى الغرب.

قد تكون المخاوف من السباق المرتقب نحو القاع نتيجة لتوسيع عضوية الاتحاد محسوسة على نطاق واسع، لكنها ليست صحيحة تماماً. وسبق أن جرى التعبير عن هذه الهواجس فى سياقين، يتعلق أحدهما بتشديد التنافس العالمى بصفة عامة، والآخر بتوسعات سابقة للاتحاد الأوروبى حين قبلت عضوية اليونان وإسبانيا والبرتغال (اليونان فى سنة ١٩٨١، وإسبانيا والبرتغال فى سنة ١٩٨٦). وثبت أن المخاوف التى عبر عنها الكثيرون قبل سنوات من أن تؤدى العولمة الاقتصادية لانتكاسات فى دول الرفاه الأوربية لم يكن لها ما يبررها. وظلت عوائد الضرائب ثابتة باعتبارها تمثل نسبة من إجمالى الناتج المحلى فى كل البلدان الصناعية وإن كانت لم تعد فى صعود إلا فى حالات قليلة كالمملكة المتحدة. وبعض المصاعب الأهم التى يواجهها النموذج الاجتماعى الأوروبى كما سبقت الإشارة داخلية فى المقام الأول وليست خارجية فى جذورها.

هناك دراسات عن التأثير الاقتصادى لانضمام اليونان وإسبانيا والبرتغال تثبت أن هناك نتائج إيجابية لا سلبية على بلدان الاتحاد الأوروبى ذات العضوية الأقدم. لم يكن هناك كبح لتنامى برامج الرعاية الاجتماعية فى الدول الثلاث لوضعها فى موقف تنافسى أفضل. بل على العكس حيث تميزت منظومات الرعاية الاجتماعية التى طبقت منذ الثمانينيات باتجاهات توسعية قوية.<sup>(١)</sup> وفى وقت انضمام البلدان المتوسطة الثلاثة ظن كثيرون أن انقسامات أخرى ستظهر بين دول الاتحاد الأوروبى - الدول الغنية تزدد ثراء، بينما يزداد الأعضاء الجدد فقراً نسبياً. وثبت

---

(1) Ana M. Guillen and Manos Matsaganis, 'Testing the "social dumping" hypothesis in Southern Europe', *Journal of European Social Policy*, 10 (2000).

خطأ هذا الظن.<sup>(١)</sup> قد يرى البعض بالطبع أن الدول الجديدة في الجولة الراهنة من توسيع العضوية أفقر إذا قورنت بما كانت عليه البرتغال أو إسبانيا أو اليونان وطبقت سياسات ضريبية أشرس. إلا أن الهوة ليست بالاتساع الذى نعهده بين البلدان المتقدمة والبلدان الأفقر على مستوى عالمي.

هناك تصورات مغلوطة مهمة أخرى ينبغي تصويبها.<sup>(٢)</sup> أولها أن توسيع العضوية شرقاً يتم منذ سنوات ليست بالقليلة. فرفعت الحواجز التجارية فى أوائل التسعينيات. وفى مطلع القرن الجديد ألغيت التعريفات والحصص فى تجارة السلع المصنعة. وكان رفع الحواجز هذا ما ساعد اقتصادات أوروبا الشرقية على التعافى. وفى تلك المرحلة كانت دول أوروبا الشرقية الأكبر تصدر بالفعل أكثر من ٦٠ بالمئة من بضائعها إلى الاتحاد الأوربي، ودولة أو اثنتين كانت تصدر ما يقرب من ٧٥ بالمئة. كما دخلت استثمارات الشركات إلى هذه البلدان قبل انضمامها الفعلي. وكان خفض الحواجز التجارية إضافة إلى أن دول أوروبا الشرقية توشك على الانضمام للاتحاد الأوربي كافياً لإقناع الشركات بنقل المنشآت الإنتاجية إليها. فبلغت استثمارات الشركات فى البلدان العشر التى انضمت للاتحاد فى سنة ٢٠٠٤ مئة وخمسين مليار يورو قبل انضمامها الرسمي.

ومنذ أواخر التسعينيات فاقت معدلات النمو فى دول أوروبا الشرقية متوسطها فى الاتحاد الأوربي. فهل كانت هذه الإنجازات على حساب فرص العمل فى دول أوروبا الغربية؟ الإجابة المقتضبة بالنفي. ومنذ أن استؤنفت التجارة الحادة بين أوروبا

---

(1) Loukas Tsoukalis, *What Kind of Europe?* Oxford: Oxford University Press, 2005, p. 55.

(2) Katinka Barysch, 'East versus West? The European economic and social model after enlargement', in Anthony Giddens, Patrick Diamond and Roger Liddle (eds.), *Global Europe, Social Europe*. Cambridge: Polity, 2006.

الشرقية والغربية عرف الغرب فائضًا تجاريًا. فحسب إحدى الدراسات عاد التبادل التجارى بما يزيد عن مئة ألف فرصة عمل فى دول الاتحاد الأوروبى الخمس عشرة الأساسية فى عام ٢٠٠٠<sup>(١)</sup> وأحدثت الشركات التى نقلت مصانعها شرقًا خسارة فى فرص العمل، حيث أغلقت مكاتبها ومصانعها فى أوروبا الغربية. ومع ذلك فإذا لم تنتقل الشركات كتلة واحدة شرقًا، وهو أمر نادر الحدوث، فربما زادت فرص العمل التى ظلت فى دول الاتحاد الأوروبى الخمس عشرة الأساسية عما خسرت. والسبب أن بعض الشركات أو أكثرها ما كانت لتزدهر؛ بل أن تظل قائمة دون نقل بعض منشأتها.

فشلت دول الاتحاد الأوروبى الأساسية فى الإصلاح ولديها معدل بطالة مرتفع ولديها حكومات ومواطنون فى غاية القلق من "الإغراق الاجتماعى". وألمانيا وفرنسا فى طليعة الحركات التى تطالب بفترة انتقالية طويلة قبل السماح بحرية التنقل. فالبلدان الثلاثة التى فتحت حدودها تدفق عليها كثير من العمال. وهذه البلدان استفادت من ذلك لا سيما أن كثيرًا من هؤلاء عمال مهرة. ففي أيرلندا مثلاً توافد خمسة وثمانون ألفًا فى السنة الأولى بعد توسيع الاتحاد، وهى النسبة الأكبر مقارنةً بحجم السكان. ومع ذلك فالأيرلنديون يجدون فى استفاد الميزد نظرًا لما تعاني من نقص فى العمالة والمهارة. وفى المملكة المتحدة سجل مئة وخمسة وسبعون ألفًا من الدول الأعضاء الجديدة للعمل بين مايو ٢٠٠٤ ومارس ٢٠٠٥، أربعون بالمئة منهم كانوا مقيمين بالبلاد من قبل. واستوعبوا بسهولة فى القوة العاملة ولا يزال هناك نقص فى العمالة.

---

(١) المرجع السابق.

إن التأثير الكلى لتوسيع العضوية طفيف بالنسبة لكتلة الاتحاد. وإجمالى الناتج القومى فى الدول الأعضاء الجديدة لا يزيد عن خمسة بالمئة من إجماليه فى الاتحاد. ولكن من مصلحة الاتحاد ككل أن تزدهر هذه البلدان وتحقق فترة من النمو الاقتصادى السريع. وهو سيناريو لن يتسبب فى مشاكل كبيرة لدول الاتحاد الأساسية لو تمكنت هى نفسها من الإصلاح. والخطر أن يؤدى سوء الفهم والسخط المتبادل إلى تأثير عكسى. فبواصل الناس فى الدول الأعضاء الجديدة الشعور بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية بينما تعرقل الأخطار التى يفترض أن يواجهوها الإصلاحات اللازمة فى بلدان الاتحاد الأغنى.

## العولمة والصين والهند

لعل العولمة الاقتصادية فى مراحلها الأولى لم تفرز بعد السباق نحو القاع والذى يثير المخاوف على نطاق واسع، ولكن ماذا عن التطورات الجديدة فى المصادر الخارجية؟ فما التأثيرات على أوروبا من جراء ظهور الصين السريع باعتبارها مركز تصنيع العالم وتحول الهند إلى أحد مصادر الخدمات الخارجية؟ وفيما يتعلق بتوسيع الاتحاد فالتأثير العقائدى كبير فعلاً. فعاد فرض الحماية، سواء فى الاتحاد الأوروبى أو فى الولايات المتحدة. فهى من ناحية تبين للغير قيمة حرية التجارة، ومن ناحية أخرى يبدو أنها رد فعل لتوقعات الدول الغنية. وتنأى المكانة الاقتصادية للصين والهند وغيرهما من الاقتصادات النامية أمر محمود بصورة عامة. أما من ناحية الرخاء العالمى العام فلو استبعدنا القضايا المتعلقة بالبيئة نجد أن صافى العائد فى الثروة على المستوى العالمى كبير. كما أن من الواضح أن هناك أسواقاً جديدة لتصدير السلع الغربية من حيث المبدأ.

عندما تدخل البلدان النامية الاقتصاد العالمي لأول مرة على نطاق واسع فهي تدخل إما بالمنتجات الزراعية أو بالسلع المصنعة ذات الكثافة العمالية كصناعة الثياب والمنسوجات. وفي هذه المرحلة تنشأ التوترات في داخل اقتصاد البلد. وبفتح الأسواق تخضع الصناعات المحلية لضغوط من منتجات البلدان الأكثر تقدماً، والتي يعوض ارتفاع تكاليفها تفوقها في الجودة على نظيرتها المحلية. من ثم فمن الصعب تخطي هذه المرحلة، وبعض البلدان النامية تفشل في تخطيها.

حققت كل من الصين والهند ما حققنا من نجاح لأنهما حققنا الآن هذا التقدم. أى أنهما لم تعودا تتنافسان على أساس رخص الأيدي العاملة، بل على أساس الجودة والتقنية. وهناك عدد متزايد من الشركات المحلية في كل من الصين والهند إما دخلت مجال العالمية أو كادت.<sup>(١)</sup> وزاد نصيب سوق الصين من البضائع الإلكترونية المستوردة في الاتحاد الأوربي من ٥ إلى ١٠ بالمئة بين ١٩٩٥ و ٢٠٠٠، ثم تضاعف مرة أخرى إلى ٢٠ بالمئة في سنة ٢٠٠٣. وكانت الإلكترونيات الاستهلاكية كأجهزة التلفزيون وألعاب الحاسوب تمثل ٨٠ بالمئة من صادرات الصين الإلكترونية إلى الاتحاد الأوربي في سنة ١٩٩٨، لكنها لم تمثل أكثر من ٢٠ بالمئة من تلك الصادرات في سنة ٢٠٠٣. ويشمل الباقي حالياً سلعا عالية المستوى كالحواسيب المكتبية ومعدات الاتصالات.

هناك تجمعات للتقنية العالية بدأت في الظهور حول المناطق الحضرية الرئيسية بل الثانوية أيضاً في الهند.<sup>(٢)</sup> وهناك جامعات ومعاهد لها مكانتها في الهند

---

(1) John Sutton, 'Globalization: a European perspective', in Anthony Giddens, Patrick Diamond and Roger Liddle (eds.), Global Europe, Social Europe. Cambridge: Polity, 2006.

(2) A. D. Bardhan and Dwight Jaffee, Innovation, R & D and Offshoring. Fisher Centre for Real Estate and Urban Economics, Fall, 2005.



إلا أن الصف الثانى المتنامى من المؤسسات الجديدة قد يكون تأثيرها على المدى المتوسط أكبر. وفى الصين هناك مبادرات مماثلة بعضها شديد الجراءة. فهناك مثلاً تجمع علمى كبير فى بكين يضم ستاً وخمسين جامعة و ٢٣٢ معيذاً بحثياً تتولى التنسيق بينها "أكاديمية العلوم الصينية". وبعض المبادرات عبارة عن مشروعات مشتركة مع جامعات وشركات أجنبية. وتستورد الشركات الغربية أنشطة فى مجالات منها الصيدلة والتقنية الحيوية وأجزاء الحواسيب وبرمجياتها وليس إلى الهند والصين وحدهما. فلدى شركة إنتل على سبيل المثال معامل متطورة فى تصميم المعالجات الدقيقة فى نوفوسبيبرسك وسان بطرسبورج فى روسيا.

كيف يمكن لاقتصادات أوروبا - وشركاتها - أن تتعامل مع هذا النوع من المنافسة المباشرة؟ يمكن أن نستقى إشارة من دراسة لسكوت وبرنارد فى الولايات المتحدة حيث جاءت المنافسة العالية المستوى من الصين قبل أن تأتى إلى أوروبا.<sup>(١)</sup> قارن سكوت وبرنارد الشركات التى ظلت قائمة بتلك التى تعثرت فى الولايات المتحدة فى الفترة من أوائل التسعينيات. فأوضحا أن الشركات التى نجحت تمكنت من التفوق فى اللعبة. أى أنها تكيفت بما يكفى لتحويل منتجاتها من قطاعات اشد فيها التنافس الخارجى إلى منتجات جديدة أو صناعات قريبة. فالمرونة فى سوق العمل تتحد مع الإبداع فى الإدارة ليؤدى إلى النجاح. وحتى فى سياق أمريكى نجد أن المرونة تعنى التدريب وإعادة التدريب لا مجرد عمالة غير آمنة. فالشركات الناجحة تعين مستخدميها على التكيف.

والشركات الأكثر تأثراً بشكل مباشر بنقل المصانع إلى الخارج سواء فى الولايات المتحدة أو فى الاتحاد الأوروبى ظلت الأقل نجاحاً حتى وقت قريب، وعلى

---

(١) نقلاً عن: Sutton, 'Globalization: a European perspective'

رأسها العمال البدويون. والأنماط الجديدة من الاستعانة بمصادر خارجية والتي تركز قصب السبق فيها الهند لا الصين تؤثر على فئات متباينة. فهي تعنى بالمجال الذى تعتمد الاقتصادات المتقدمة عليه تمامًا حاليًا فى خلق فرص العمل، ألا وهو مجال الصناعات الخدمية الضخم. لم يكن المهنيون من متخصصين طبيين أو مهندسي برمجيات حاسوبية أو محاسبين أو صحافيين يقلقون فيما مضى من نقل فرص عملهم إلى الخارج؛ إذ كانوا يستفيدون من انخفاض أثمان السلع الذى أتاحته حرية التجارة والتطور فى التصنيع.<sup>(١)</sup> أما الآن فعليهم أن يقلقوا. إذ تبين الإحصاءات التى تجرى فى الولايات المتحدة أن قطاع المهنيين الداعم لحرية التجارة والذى كان كبيرًا فيما مضى تقلص بصورة حادة مع دخول فرص عملهم على خط النار.

نتباين ردود الفعل حيال الاستعانة دوليًا بمصادر خارجية تباينًا شديدًا. وتكتظ الصحف فى الولايات المتحدة بقصص تنثير الفزع. فكان عنوان غلاف مجلة فورتشن فى أغسطس ٢٠٠٥ على سبيل المثال هو: «أصبحت قدرة أمريكا على المنافسة شغل الأمريكيين الشاغل».<sup>(٢)</sup> ويرى توماس فريدمان الصحافى بجريدة نيويورك تايمز أننا دخلنا عصرًا جديدًا فى سنة ٢٠٠٠، لا لأنه مطلع قرن جديد بقدر ما هو نقطة «أصبح العالم فيه مسطحًا كالشاشة التى يعقد عليها رجل الأعمال اجتماعًا لسلسلة شركات عالمية بأكملها».<sup>(٣)</sup> والتطورات التى تشهدها تقنية الاتصالات ولا سيما خفض أثمان هذه التقنية تزيد من تمكين الأفراد والجماعات

---

(1) Mary Amiti and Shang-Jin Wei, 'Fears of service outsourcing', Economic Policy, April 2005.

(2) 'America isn't ready', Fortune, 8 August 2005.

(3) Thomas Friedman, The World is Flat: A Brief History of the Twenty-First Century. New York: Allen Lane, 2005, p. 7.

حول العالم لا الشركات الكبرى وحدها. فأصبح من الممكن للمتعهد الصغير أن يفتح السوق العالمية بشكل مباشر.

إن أكثر من ٥٠ بالمئة من السلع المصنعة يجري تبادلها عالميًا حاليًا مقارنةً بما لا يزيد عن ١٠ بالمئة من الخدمات. وقد يزداد حجم تبادل الخدمات وربما بصورة حادة. والتجارة في النظرية الاقتصادية يفترض أن تعود بمنافع متبادلة. والتقسيم الدولي الجديد للعمل ليس استثناء من ذلك. فالاستعانة بالمصادر الخارجية يسمح للشركات بخفض الأثمان ومساعدة المستهلك وفي الوقت نفسه تحقيق عائد لمزيد من الاستثمار. وانخفاض الأثمان يجدد الطلب وبالتالي يوجد فرص عمل جديدة. وهناك دراسة حديثة في الولايات المتحدة بينت هذه الدورة عمليًا. إذ حلل الباحثون الاستعانة بالمصادر الخارجية في إنتاج البرمجيات في شركات التقنية العالية والاتصالات الأمريكية في التسعينيات. ونتيجة لهذه العملية انخفضت أثمان الحواسيب وسائر بضائع التقنية العالية بنسب تتراوح بين ١٠ و ٣٠ بالمئة في فترة قدرها عشر سنوات. إذن فانخفاض الأثمان أحدث طفرة استثمارية في التقنية العالية كما رفع الإنتاجية في الصناعات التي تستعين بالتقنية، وارتفع النمو الاقتصادي الأمريكي بنسبة ٠,٣ بالمئة في نتيجة مباشرة لذلك، ما أدى إلى توسع سريع في فرص العمل في مجال التقنية العالية في البلاد.<sup>(١)</sup>

ولكن في كل هذه العمليات هناك عمال يفقدون أشغالهم ويضطرون للانتقال لمكان آخر. وفقدان العمل مسألة صادمة لمن يعانيها. وما من عائد كلي على الاقتصاد إلا إذا وجد من فقدوا أشغالهم فرص عمل جديدة وبسرعة وتقترب في

---

(1) Simon Commander, Axel Heitmueller and Laura Tyson, 'Migrating workers and jobs: a challenge to the European social model?', in Anthony Giddens, Patrick Diamond and Roger Liddle (eds.), Global Europe, Social Europe. Cambridge: Polity, 2006.

مستواها من مستوى ما فقدوا. وهناك دراسة لماكنزى عن الفروق المهمة بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي. ففي مقابل كل دولار من خدمات يستعان فيها بمصادر في الهند كان صافي العائد على الاقتصاد الأمريكى ١،١٤ دولار فى مقابل ٠،٣٣ دولار للاقتصاد الهندى. وعلى خلاف الولايات المتحدة يحتّم أن يخسر الاقتصاد الألماني ٠،١٥ يورو فى مقابل كل يورو خدمات أعمال يستعان فيها بمصادر خارجية.<sup>(١)</sup> والسبب انخفاض نسبة القوة العاملة التى ستبحث عن فرص عمل جديدة.

لكى تكون هناك ربحية تجارية متبادلة من الاستعانة بمصادر خارجية فى الاتحاد الأوربي لا بد من إصلاح سوق الأيدى العاملة، ولكن لا يشترط أن يكون فى اتجاه تحرير التجارة والأعمال من القيود الحكومية على الطريقة الأمريكية. بل على بلدان أوربا أن تضع خططاً لتحرير الأعمال من القيود الحكومية للعمال المضارين بهدف الحفاظ على فرص العمل ومستويات الدخل. وإعادة التدريب له أهميته ولكن لا بد من برامج أكثر تحديداً للأفراد ذوى المهارات الأعلى، وهو أمر يتوقف كثيراً على مدى قابلية ما لديهم من مهارات للتعميم أو التكيف (المزيد عن هذا الموضوع فى الفصل الثالث). والاستعانة بمصادر خارجية لا يزال فى مراحله الأولى ولم يترك بعد أثراً كبيراً على اقتصادات الغرب، وقد يكون لها تأثير أكبر كثيراً فى المستقبل ويستحسن الاستعداد لمثل هذا السيناريو.

وليس من المؤكد بالطبع ما إذا كان صعود كل من الصين والهند سيستمر، فلديهما كسائر الدول النامية مشكلات هيكلية كبرى ينبغى حلها. فالهند تحقق طفرة اقتصادية حالياً لكن لديها بنية تحتية فوضوية فى النقل وفوارق شاسعة على

---

(1) McKinsey & Co., 'How offshoring of services could benefit France', McKinsey Global Institute, June 2005.

المستوى الأسرى والإقليمى. والفوارق الاقتصادية فى الصين تقترب من ذلك فى حين أن الهيمنة المستمرة للكوادر الحزبية قد تصبح فى مرحلة ما عقبة كأداء. وصحيح أن الصين حققت نجاحاً كبيراً فى أسواق التصدير لكن الكفاءة الاقتصادية الداخلية محدودة. وما لم تحرر غالبية الشركات الخاضعة لسيطرة الدولة بدرجة أكبر فإن المعجزة الصينية ككثير من "المعجزات الاقتصادية" التى سبقتها ستفسد.

يقال إن ١ بالمئة فقط من الشركات فى الصين تخضع لمراجعة مستقلة. والنظام المصرفى فى الصين عاجز عن سداد ٥٠٠ مليار دولار أمريكى. والمصارف الصينية عاجزة عن ترتيب نفسها من الداخل حيث لا يزيد العائد على أرضيتها عن ٠,٢ بالمئة. والسبب أن المصارف ظلت حتى وقت قريب تلبي مطالب السياسة الحكومية بتمويل المشروعات التى تملكها الدولة بغض النظر عن الربحية أو المجازفة.

كما أن البلاد تئن تحت وطأة أزمة بيئية متسارعة - أزمة لها عواقبها على العالم بأسره ولكنها فى داخل الصين تهدد عملية النمو الاقتصادى نفسها. فهناك ما يزيد عن ثمانية ملايين فلاح صينى ينزحون إلى المدن سنوياً. ولدى الصين حالياً تسعون مركزاً حضرياً يسكنه أكثر من مليون نسمة، يختنق أغلبها بتلوث ناتج عن مصانع عتيقة الطراز ومحطات طاقة وقودها الفحم وشوارع تكتظ بالدراجات النارية. وشونغ كينغ المدينة الأكبر فى العالم بسكانها البالغ تعدادهم ثلاثين مليوناً. وست عشرة من مدن العالم الأكثر تلوثاً وتلوثاً فى الصين وأكبرها شونغ كينغ، إذ تحيطها حفر نفائات عملاقة يبلغ عمق أكبرها ثلاثين متراً وتغطى مساحة ٣٥٠ ألف متر مربع؛ ولا يخضع أى من النفائات للتدوير.<sup>(١)</sup>

---

(1) Jonathan Watts, 'Invisible city'. Guardian, 15 March 2006.

## اللائحة الخدمية

العديد من القضايا التي تناولنا حتى الآن في هذا الفصل تعود الظهور بشكل رمزي في الجدل حول اللائحة الخدمية. ففي اقتصاد خدمي/معرفي لا بد "للسوق الموحدة" أن تشمل الصناعات الخدمية، ذلك أن الأغلبية الساحقة من القوة العاملة تعمل فيها حالياً. والتقدم في "السوق الموحدة" عاد حتى الآن بفوائد واضحة على الدول الأعضاء. فمُنذ اكتمال أول برنامج "سوق موحدة" في سنة ١٩٩٣ وجدت ٢,٥ مليون فرصة عمل جديدة في دول الاتحاد الأوروبي الخمس عشرة الأساسية نتيجة لزوال الحواجز أمام التنافس والتبادل. ونقدر الزيادة في الثروة التي تحققت من هذا المصدر في تلك الفترة تسعمئة مليار يورو، بما يساوي ستة آلاف يورو لكل أسرة في الاتحاد الأوروبي. إلا أن أغلب هذه الفوائد تحققت في الأسواق على السلع. والتقرير الذي وضعته المفوضية عن السوق الداخلية للخدمات والذي نشر في يولييه ٢٠٠٢ خلص إلى أن هناك فجوة هائلة بين رؤية اقتصاد تكاملي للاتحاد الأوروبي والطبيعة المقسمة للصناعات الخدمية التي يجب فتح معظمها للمنافسة.

جاءت اللائحة الخدمية استجابة لهذا التشخيص. وهي بصورتها الأصلية تغطي مجموعة كبيرة من الخدمات منها خدمات التمويل والأعمال (كالاستشارة الإدارية والتشغيل) والتبادل التجاري (المشورة القانونية وأشكال التبادل التوزيعي) وشؤون المستهلك والسياحة وبعض الخدمات الصحية والاجتماعية. وتساعد اللائحة إن طبقت كاملة على خفض الأسعار وتشجيع الإنتاجية وإيجاد حافز عام لاقتصاد الاتحاد الأوروبي. وهناك دراسة كبرى تتناول هذه القضايا خلصت إلى أن هناك ستمئة ألف فرصة عمل ستنشأ في أنحاء الاتحاد الأوروبي لو تساوت الظروف

الأخرى.<sup>(١)</sup> وتقدير الستمئة ألف فرصة عمل جديدة تقدير أدنى، حيث يستعين التحليل بافتراضات محافظة ولا يشمل سوى ثلاثة قطاعات خدمية هي المهن المقتنة والتبادل التجارى التوزيعى وخدمات الأعمال.<sup>(٢)</sup> والمستوى الفعلى لإيجاد صافى فرص العمل قد يبلغ ضعف هذا العدد أو أكثر.

طبقاً للائحة فى صورتها الأولى يتم تبسيط شكليات إيجاد خدمات جديدة من تلك المتداولة بين الدول الأعضاء فى اللحظة الراهنة. وكل الإجراءات يمكن إتمامها فى "نقطة اتصال واحدة" بالاستعانة بالوسائل الإلكترونية. ويتاح للشركات تقديم الخدمات فى أية دولة عضو ولفترة أولية لا تخضع إلا لقوانين البلد الذى تأسست فيه الشركة، فيما يعرف بمبدأ "بلد المنشأ".

لقى إطلاق اللائحة استقبالا حاراً فى بعض المناطق وأثار رد فعل حائفاً فى مناطق أخرى. وطالب بعض تنظيمات الاتحاد والنقاد بتغييرات جذرية فى البرنامج بل بحله تماماً. ووضعت التنظيم الاتحادى "يونيسون" فى المملكة المتحدة ثلاثة "مطالب أساسية" فى رد فعلها تجاه اللائحة؛ أحدها إزالة الخدمات العامة من اللائحة تماماً على أساس أن « اللائحة تهدد الخدمات العامة بالانفتاح والخصخصة وتقوض الدور الذى تلعبه فى ضمان تحقيق خدمات عامة جيدة للجميع وليس فقط لمن يطبقونها». <sup>(٣)</sup> وثانيها ضرورة عدم إضعاف قانون التشغيل أو حقوق التفاوض الجماعى. ورأت "يونيسون" أن اللائحة ستقوم بذلك بصورتها الراهنة. والعمال الذين يتنقلون عبر الحدود القومية كما تفعل شركات الخدمات - ما يعرف بـ

---

(1) Copenhagen Economics, Economic Assessment of the Barriers to the Internal Market for Services. Final Report, Copenhagen, 2005.

(2) Anders Sejerø et al., 'The Copenhagen Economics study on the economic impact of the Services Directive', Intereconomic, May/June 2005.

(3) Unison, 'Defending public services in Europe: stop the Services Directive', Unison International, 5 November 2005.

"العمال المبعدون" - لن تغطيهم إلا قوانين العمل في البلد الذي يذهبون إليه. وتفتقد الدولة التي جاءوا منها القدرة على تطبيق قوانينها الوطنية التي تغطي حقوقهم.

وأخيراً عارضت "يونيسون" مبدأ بلد المنشأ بكل قوة. وقال الاتحاد إن المبدأ نو قبل لشهدت أوروبا سباقاً نحو القاع تتبارى فيه الشركات في نقل مقارها إلى البلدان ذات المستوى الأدنى من اللوائح حتى تخفض التكاليف. وهو تطور يؤدي إلى ضغط الأجور وله عواقب أيضاً على الصحة والأمان والحماية البيئية. وذهب نقاد آخرون إلى ما هو أبعد حيث أطلق على الاقتراحات مسمى " اللائحة القادمة من الجحيم".

وفي أوائل ٢٠٠٥ طلب قادة الاتحاد الأوروبي السياسيون المفوضية بإعادة النظر في اللائحة لقلّقيهم حول ما إذا كانت قد تؤثر على النموذج الاجتماعي. وحتى قادة البلدان التي تتعاطف عادةً مع حرية السوق كالسويد عبروا عن تردددهم. فقال توماس أوستروس وهو أحد وزراء التجارة إن حكومته تريد أن نرى «محصلة تتماشى مع قيم المجتمع والحياة العملية التي نلتزم بها في السويد». وقال إن السويد أمامها الكثير لتجنّبه من إنشاء قطاع خدمي أكثر فعالية في أوروبا. فالسويد انفتحت على العالم في مجال التجارة ربما أكثر من أي بلد غيرها في أوروبا. وأكد أن منظومة الرعاية الاجتماعية السويدية لا يجب أن تضعفها التغييرات التي أدخلت.<sup>(١)</sup> وماذا يحدث لو طرحت خدمات الرعاية الاجتماعية على مستويات تقنين أقل من تلك التي تصر عليها حكومة السويد؟

---

(1) Thomas Ostrom, 'The EU Services Directive must be adapted to the Swedish context', Government Office of Sweden, 25 November 2004; [www.sweden.gov.se/sb/d/3212/a/34984](http://www.sweden.gov.se/sb/d/3212/a/34984).



حصلت "اللائحة الخدمية" على تصديق البرلمان الأوروبي في فبراير ٢٠٠٦ ولكن بعد إدخال تغييرات أساسية عليه. فحذف مبدأ بلد المنشأ - فمن يقدمون الخدمات تحكمهم اللوائح المنظمة في البلد الذي تقدم فيه الخدمة. وبدلاً من مبدأ بلد المنشأ مُنحت الشركات الصغيرة بعض المزايا الثانوية. فلا يتحتم على مقدمي الخدمات أن ينشئوا مكتباً في البلد الذي يستضيفهم. واستُبعدت بعض القطاعات منها الرعاية الصحية. ويظل بإمكان الدول الأعضاء تنظيم الأسواق في مجالات الصحة والأمن العام والبيئة؛ ويحق لها أيضاً أن تطبق قانون العمل المحلي الخاص بها.

ويظل هناك ما يجب عمله من أجل التصديق النهائي، ولو أن النتيجة تبدو غير مرضية. فهي ترمز للطبيعة المعيبة لكثير من الجدل الأوسع نطاقاً في أوروبا حول العدل الاجتماعي ودور السوق. ويركز أنصار التنافس الممتد في الخدمات في المقام الأول على المزايا الاقتصادية، ويبدو أنهم لا يبالون بالنتائج الاجتماعية المحتملة. أما من يطالبون بالحد من إعادة تنظيم الأسواق والاستمرار في فرض سياسة حماية مريحة فيظهرون بمظهر المدافعين عن النموذج الاجتماعي. والنتيجة تسوية واهية لا ترضى أحداً، ولا تكاد تساعد على حل المشكلات التي تواجهها أوروبا. وكما قال الكاتب الأمريكي جين سبرلنغ «فأنصار سياسة فرض الحماية يفتقرون لرؤية مستقبلية ويفتقر أنصار حرية التجارة لرؤية حيال الحاضر».<sup>(١)</sup>

إن العلاقة بين التنافسية والعدل الاجتماعي أعقد كثيراً مما توحي به هذه

المواجهة:

---

(1) Gene Sperling, *The Pro-Growth Progressive: An Economic Strategy for Shared Prosperity*. New York: Simon & Schuster, 2005, p. 73.

١. هواجس الإهمال الاجتماعي مبالغ فيها لدرجة كبيرة لأسباب سبق ذكرها. لم يكن مبدأ بلد المنشأ يشكل تهديدًا كبيرًا للمنتجين المحليين إلا من ناحية المنافسة. وتحول الإهمال الاجتماعي إلى تهمة تستغل لتبرير فرض الحماية. لم لا تطلق اللائحة الخدمية سباقًا إلى القمة بدلاً من سباق نحو القاع؟ فالتنافس على أسس المساواة والكفاءة وخدمة المستهلك في مجتمعات الاتحاد الأوروبي يرجح أن يكون أهم كثيرًا من التنافس على أساس التكلفة وحدها. كما أن القوانين الخاصة بحماية المستهلك والصحة والأمان والحد الأدنى من فترات الراحة في أنحاء الاتحاد الأوروبي على مستوى عالٍ بالفعل.

٢. حيثما استمر فرض الحماية ستكون النتيجة في الغالب تحصين أسواق العمل المنقسمة بما يؤدي لعدالة اجتماعية أقل لا أكثر.

٣. كان مبدأ بلد المنشأ أساس فتح جبهة ضد الاحتكارات سواء للدولة أو السوق. ولم تكن مسألة المبدأ لتحديد من المعايير، فهي لم تكن تطبق إلا على النقطة المبدئية لدخول المتعهد. وركز المعارضون مناقشتهم في مسألة الاستهلاك النهائي (الساباكون البولنديون في فرنسا) أو خفض درجة الخدمات العامة (الخدم اللاتفيون في السويد). ومع ذلك فاللائحة في صورتها الأكثر تطرفاً كانت ستؤثر في المقام الأول على المشروعات الصغيرة والمتوسطة. والتكاليف الطبيعية لاستخدام سباكين بولنديين فرادى ضخمة إلا في مناطق الحدود المباشرة. والشركات الكبرى التي قد تكون لاهتماماتها نتائج على الخدمات الخاصة بالدولة لديها على أي الأحوال القدرة على بناء شبكات متعهدى خدمات.<sup>(١)</sup>

---

(1) Patrick A. Messerlin, 'Liberalizing services trade in the EU', Intereconomics, May/June 2005.

٤. كان تزايد التنافس في بعض المجالات التي استبعدت من اللائحة حالياً سيساعد بعض الفئات الرئيسية من الناس. فعلى سبيل المثال حيثما ظلت تكاليف خدمات رعاية الطفل أو الخدمات المنزلية أو خدمات رعاية العاجزين مرتفعة تأثرت فرص توفيق المرأة بين عملها وبيتها.

٥. كما سبق أن ناقشنا فالصناع يقيمون في بلدان أوروبا الشرقية سابقاً ويحصلون على مزايا التكلفة لمنتجاتهم حين تباع في أرجاء أوروبا. أما حين تنقلب هذه المعادلة كما يحدث إلى حد ما في ظل اللائحة الأصلية تزول هذه الميزة التنافسية. فلا غرو أن احتج القادة السياسيون الأوروبيون على تخفيف النسخة الأصلية.

٦. العدل الاجتماعي معناه الاهتمام بالعاطلين لا بالعاملين وحدهم. وزيادة التنافس تخلق المزيد من فرص العمل الجديدة. وليس صحيحاً افتراض أن كل فرص العمل الجديدة تعنى القضاء على فرص العمل القديمة أو أن التنافس يؤدي لخفض الأجور دائماً. والدائرة الفعالة التي سبق وصفها تنطبق في ظروف عديدة بل في أغلب الظروف.

٧. المنافسة من المتعهدين من ذوي التكلفة القليلة في بعض القطاعات الخدمية الأساسية ستحدث في كل الأحوال على افتراض تنامي الاستعانة بمصادر خارجية على نطاق دولي. وبعض المنتجين ممن كانوا سيفلتون لو أن السوق الداخلية أوجدت مزيداً من الكفاءات يطردون من السوق.

٨. للعمال الذين يفقدون وظائفهم الحق في الحماية، إلا أن هذه الحماية ينبغي أن تتخذ طابعاً مرناً. ولكن علينا أن نولي قدراً من اهتمامنا للفئات الأضعف، كمن يفتقرون للمهارات أو العمال المسنين.

## النتائج

يمتزج القلق من العولمة الاقتصادية وبصورة أكثر تحديداً من "اللائحة الخدمية" لا سيما لدى أهل اليسار، مع هموم أكبر تتعلق بقوة رأس المال العالمي. إلا أن من يظنون أن رأس المال مدمر بطبيعته عليهم أن يتفكروا في حالة نوكيا في فنلنده. فنوكيا وغيرها من الشركات الفنلندية التي هيكلت نفسها على غرارها إلى حد ما لعبت دوراً مهماً في نجاح فنلنده ونجاح نموذجها الاجتماعي ضمناً.

يقول يورما أوليلا المدير التنفيذي لشركة نوكيا إن «إدراج الشركة في سوق نيويورك للأوراق المالية في سنة ١٩٩٤ كان خطوة أهم كثيراً مما ظننا. لكن دخول رأس المال كان أقل أهمية من بقاء الوضع كما كان».<sup>(١)</sup> فالتواجد في أسواق رأس المال العالمية يساعد أية شركة على كسب الثقة ويوفر أداة لإيجاد هوية تجارية واضحة. وظل رأس المال الأجنبي خاضعاً لتحكم صارم في فنلنده حتى التسعينيات. وفي سنة ١٩٩٣ انقلب هذا الوضع وأصبحت أسهم الشركات الفنلندية قابلة للشراء والبيع. وكان هذا التحول في الحقيقة تمهيداً لعضوية الاتحاد الأوروبي والتي تمت في سنة ١٩٩٥.

كانت نوكيا من أكبر المستفيدين. ففي أوائل التسعينيات كانت الشركة في أزمة حادة؛ وكانت بحاجة لضخ كم كبير من النقد، ما يعنى ضرورة الذهاب لأسواق رأس المال الأمريكية. إلا أن المستثمرين الأمريكيين لم يبدوا اهتماماً بنوكيا بحالتها آنذاك، فهي مجرد شركة تعمل في المطاط والكابلات والورق

---

(١) نقلاً عن Risto Tainio et al., 'Global investors meet local managers: shareholders value in the Finnish context', in Marie-Laure Djelic and Sigrid Quack (eds.), *Globalization and Institutions*. Cheltenham: Elgar, 2003, p. 7

وأجهزة التليفزيون. ولكي تدرّج ابتكرت الشركة رؤية جديدة - «مركزة وعالمية وتهتم بالاتصالات وذات قيمة مضافة».<sup>(١)</sup> فكانت بداية صعود نوكيا؛ وزادت قيمة سهمها بمعدل ٢٣٠٠ بالمئة في غضون خمس سنوات. وأكثر من ٩٠ بالمئة من أسهم نوكيا يملكها مستثمرون أجانب حالياً. وكان نجاح نوكيا يعنى أن المستثمرين الأجانب جاءوا برأس مال جديد لشركات فنلندية أخرى.

وكانت هناك توترات ومشكلات. فالمستثمرون الأجانب مارسوا ضغوطاً على المديرين الفنلنديين من أجل عوائد أعلى على قيمة الأسهم وتكاليف أقل، ما أدى لخلافات في الدوائر المحلية هدد بضياح بعض فرص العمل. ومن ناحية أخرى حدث تأثير عكسي أيضاً، حيث زاد تفهم الهموم القومية والمحلية من جانب المستثمرين. وأوضح الباحثون ممن درسوا هذه الأحداث أن ليس ثم تدفق أحادى الاتجاه وبسيط للسلطة أو النفوذ؛ بل هناك «صلة تبادلية بين المستثمرين الأجانب والعناصر المحلية الفاعلة تدفع في الوقت نفسه نحو قواعد مشتركة وتحفظ للعالم تنوعه». وخلصوا إلى أن الفكرة التى ترى أن التعرض لرأس المال العالمى يقضى على الخصائص الأوروبية المميزة فى عالم الأعمال خطأ وكذلك الفكرة القائلة بأن كل شيء لا بد أن يتطابق مع إطار "أنجلو سكسونى". وقالوا إن «الاستجابة لمبادئ حملة الأسهم المشتركين قد يودى فى النهاية لاستمرار الخلافات المحلية بل قد يوجد اختلافاً فيما بين البلدان والمناطق يفوق ما هو قائم حالياً».<sup>(٢)</sup>

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٤.



## الفصل الثالث

### العدل الاجتماعي والتقسيمات الاجتماعية

يؤكد "جدول أعمال لشبونة" أن التحولات الثورية حدثت في الاقتصاد مع تقلص التصنيع. فمنذ ثلاثة عقود كان ما يقرب من ٤٠ بالمئة من الأيدي العاملة في المجتمعات المتقدمة تعمل في التصنيع أو في صناعات تتصل به. وفي بعض الدول كان ما يزيد عن ١٠ بالمئة من الأيدي العاملة لا تزال تعمل في الزراعة. وانخفضت هذه النسب في دول الاتحاد الأوربي الخمس عشرة الأساسية حالياً إلى متوسط قدره ١٦ بالمئة و ٢-٣ بالمئة على التوالي. وكما أكدنا من قبل يتكسب ما يزيد عن ٨٠ بالمئة من العمال عيشهم من صناعات تقوم على المعرفة أو الصناعات الخدمية. ولا عيب في أن نقول إننا بحاجة لإستراتيجيات استثمارية وسياسات اقتصادية تختلف تماماً عن إستراتيجيات عصر الصناعة.

ليس هناك استقصاء مقارن أو مفصل للتحولات التي تحدث في المجتمع الأكبر أو لتأثيراتها على الفوارق والحماية الاجتماعية. ولننظر مثلاً إلى أحدث تصريح للمفوضية عن "جدول الأعمال الاجتماعي". نقول الوثيقة إن «المفوضية تلتزم بتحديث النموذج الاجتماعي الأوربي وتطويره وبدعم التماسك الاجتماعي باعتبارهما جزءاً من إستراتيجيات لشبونة والتنمية المستدامة».<sup>(١)</sup>

---

(1) Communication from the Commission, 'The Social Agenda', Brussels, 2005.

ولكن كم من التحليل جرى لأنماط التحول الطبقي والفوارق والتقسيم الاجتماعي؟ لا شيء على الإطلاق في الوثيقة المذكورة على الأقل. وما التوصيات الملموسة التي خرجت عن كيفية التنسيق بين إستراتيجية لشبونة والعدل الاجتماعي وإصلاح الرعاية الاجتماعية في بلدان الاتحاد الأوربي؟ لا شيء. يقال إن جدول الأعمال الاجتماعي «يهدف لتحديث النموذج الاجتماعي الأوربي بتحسين القدرة الجمعية على الفعل وتقديم تحولات جديدة للجميع». كيف؟ كل ما قدم نية الارتقاء بـ "العمل الشريف" باعتباره "هدفًا عالميًا على كل المستويات"، وزيادة قدرة العمال على التكيف، و"تطبيق معايير الدمج في سوق العمل". هناك بالطبع تشريع على مستوى الاتحاد الأوربي فيما يتعلق بالعمل وظروف العمل ويتمثل في "الميثاق الاجتماعي" و"الفصل الاجتماعي". أقر "الميثاق الاجتماعي" في ستراسبورج في سنة ١٩٨٩، ورفضت المملكة المتحدة في البداية التوقيع عليه وعلى اللوائح ذات الصلة. وهنا كان التصديق بالإجماع مطلوبًا لإقرارها. وأوجد "الملحق ١٤" الذي أضيف لمعاهدة ماستريخت لسنة ١٩٩٢ آلية تقضى بعدم إلزام كل الدول الأعضاء بما يستجد من لوائح. فأصبح "الملحق ١٤" يعرف بـ "الميثاق الاجتماعي". (في النهاية وقّعت المملكة المتحدة بعد ١٩٩٧).

يتناول "الميثاق الاجتماعي" حقوق العمال وأجورهم. فهو يتضمن بنودًا تقضى بتحسين المعايير في مجالات كظروف العمل والأمن الاجتماعي وحقوق نقابات العمال. كما سنت تشريعات الاتحاد الأوربي بغرض التعامل مع المشكلات عبر الحدود والتي تنشأ عن الأمن الاجتماعي. إلا أن "الميثاق الاجتماعي" لم يحدث أن أدرج ضمن فهم للطريقة التي تعيد بها الظروف الاجتماعية-الاقتصادية المتغيرة صوغ الصورة المثلى لتنظيم بنود الرعاية الاجتماعية. وهذه حقيقة غير



مفاجئة، فالتشريع جاء فى وقت كانت القوة الكاملة للتحويلات التى أثرت على الاقتصاد وعلى المجتمع ككل لا تزال فى بدايتها.

إن الحماية الاجتماعية تقع فى قلب الهموم التى تشغل كثرة من المواطنين عند معاشتهم التحويلات المرتبطة بعصر العولمة. فمجتمعاتنا ومعها حياة الناس اليومية تمر بتحويلات لا تقل حدة عما يمر به النظام الاقتصادى. وعلينا أن نحدد ماهية هذه التحويلات ونتأمل تأثيراتها على السياسات. ولا يكفى إطلاق تصريحات وهمية عن الحد من الإقصاء الاجتماعى. وغياب التحليل المتقدم للأنماط المتغيرة للعدالة الاجتماعية من الأسباب الرئيسة التى تجعل تنفيذ "جدول أعمال لشبونة" بهذا القدر من الصعوبة.

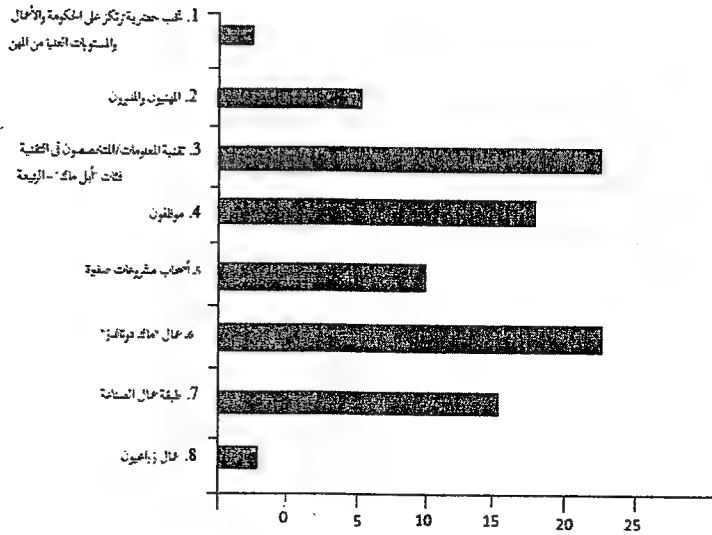
نسعى فى هذا الفصل لإيضاح هذه القضايا، ونبدأ بتناول الشكل المتغير لنظام الترتيب الطبقي ونركز بصورة خاصة على الفقراء والمعدمين. فأنماط الفوارق الاجتماعية تختلف عنها قبل عقدين أو ثلاثة عقود، وهى ظاهرة لها نتائج مهمة على السياسات. وهناك سيولة فى المجتمعات المعاصرة بدرجة أكبر مما كنا نظن. كما أن تحولات الحياة أصبحت غير متوقعة بصورة أكبر مما كانت لأسباب شتى. ولا بد للابتكار فى رسم السياسات أن يستجيب لهذه التطورات.

من غير المرجح أن تتسم المجتمعات المتباينة ثقافياً بدرجة عالية من التساوى فى النتائج. ومع ذلك فالفوارق الاقتصادية المتزايدة ليست ثمناً لا بد من سداده لضمان معدلات نمو معقولة. بل العكس؛ فاتجاه أوروبا نحو المساواة لا يمنع اتجاهها فى الوقت نفسه نحو التنافسية. والمجتمعات المسدودة التى تناولناها فى الفصل السابق لا تضحى بالنمو الاقتصادى فى سبيل الحفاظ على المساواة. بل تزداد الفوارق الاجتماعية فى الوقت الذى يتدهور فيه اقتصادها. وفى ختام الفصل نتناول الفقر بين الأطفال بشكل أكثر تفصيلاً.

## الطبقات الجديدة

تختلف البنية الطبقيّة والتقسيمات الطبقيّة المرتبطة بالاقتصاد المعرفي/الخدمي عن نظيرتيهما في عصر الصناعة تمام الاختلاف. فالطبقة العاملة ذات الياقة الزرقاء كانت الشريحة الطبقيّة الأكبر في النظام الاجتماعي القديم. ويطلق ماركس على الطبقة العاملة مسمى "الطبقة الشاملة" وتوقع بالطبع أن تكون العنصر الفاعل في التغيير الثوري. أما اليوم فالطبقة العاملة اليدوية أقلية حقيقيّة ويقدر لأعدادها أن تتناقص مع استمرار تقلص نسبة العاملين في التصنيع. وتفتتت شرائح الطبقة العاملة القديمة التي كانت مصدر كثير من التضامن المحلي. وتغير ما كان يمثل "الطبقة المتوسطة" تغيراً كبيراً، بينما اختفت الطبقة العليا مالكة الأراضي إلى حد كبير. كما تبخرت الفئات الزراعية المنفصلة تماماً تقريباً.

نشأت تقسيمات مهنية جديدة على أساس التحولات الاجتماعية والتقنية المرتبطة بالاقتصاد المعرفي/الخدمي. وما يقرب من ثلثي فرص العمل التي نشأت عن الاقتصاد الجديد مهاري، إذ يتطلب إلماًاً فنياً بتقنية المعلومات ومهارات أخرى أيضاً. وفرص العمل هذه تزداد وفرة بالمعايير النسبية. ففي الفترة ١٩٩٥-٢٠٠٤ زادت نسبة فرص العمل التي تتطلب مؤهلات متقدمة في تقنية المعلومات في دول الاتحاد الأوروبي الخمسة عشرة الأساسية - فرص عمل "أبل ماك" - من ٢٠ إلى ٢٤ بالمئة، ولكن على كثير من الناس أن يعملوا في أشغال أكثر روتينية تتصل بـ "ماك دونالدز" - مقاهٍ أو حوانيت أو متاجر بقالة أو محطات وقود. ولعل نسبة هذه الأشغال في انخفاض مقارنةً بمهن أكثر مهارة ولكنها تظل لا يستهان بها.



شكل 3-1: الطبقات في المجتمع بعد الصناعي (% من تعداد السكان)

تبدو البنية الطبقية لأي مجتمع بعدًا صناعيًا كما هو موضح في الشكل (3-1). وهي صورة عامة، لأن المجتمعات تتفاوت فيما بينها تفاوتًا كبيرًا. والنسب المعطاة تقريبية وتشير إلى أفراد لا إلى أسر. والفئة العليا غير متبلورة تتألف من نخب لها نفوذ ورؤية دولية ووطنية لا سيما في مدن أوروبا "العالمية". وقد تشمل نسبا لا يستهان بها من المهاجرين. فالمصرفي الفرنسي الذي يعمل في مدينة لندن يغادر مكتبه في أول المساء. وحين يغادر يدخل عامل فيليبي يرسل المال لأسرته في بلده بانتظام ليرتب المكان وراءه.

هناك نسبة لا تقل عن خمسين بالمئة من فرص العمل في الاقتصاد المعرفي/الخدمي تتطلب مستوى رفيعًا من المهارات المعرفية والشخصية، وتمتد لتشمل الأعمال التي يقوم بها الموظفون "الكتابيون" - أي من يستخدمون الحواسيب

معظم اليوم، ولكنهم ليسوا متخصصين في تقنية المعلومات. ويمكن لكل شرائح الطبقة أن تضم موظفي الدولة أو العاملين في مشروعات تتحكم فيها الدولة. والفارق بين الموظفين الحكوميين وغيرهم يكاد يتطابق مع تقسيمات سوق العمل؛ لكن الأمن الوظيفي يأتي على قمة أولويات الشرائح ١ و ٢ و ٣.

من السمات المميزة للاقتصاد المعرفي/الخدمي ارتفاع نسبة المرأة في القوة العاملة، وإن كانت قلة من النساء يعملن في حرف يدوية. وللمرأة تمثيل كبير في أعمال "ماك دونالدز" وفي شريحة الموظفين الكتابيين. والأرجح أن تزيد نسبة النساء العاملات غير المتفرغات عن الرجال. فنسبة الرجال العاملين غير المتفرغين في دول الاتحاد الأوروبي الخمس عشرة الأساسية لا تزيد عن ٧ بالمئة، بينما تصل هذه النسبة بين النساء إلى ٣٠ بالمئة. وتقل أجور النساء بنسبة ١٥ بالمئة تقريباً عن أجور الرجال في الأعمال نفسها أو المتقاربة.

هذه الأرقام الإجمالية تخفي وراءها اتجاهات ذات مغزى. فالهوة بين الجنسين في الأجور تتجه للانحسار في كل مكان تقريباً. كما أن المرأة في العموم تتفوق على الرجل في الأداء، ويبدو تدنى مستويات الأجور والأمن الوظيفي بصورة أوضح كثيراً بين رجال الطبقة العاملة قليلة المهارة عنها بين النساء من ذوات المستويات المهارية المماثلة. ودور المرأة في زيادة دخل الأسرة في ازدياد كبير. وهي تتساوى مع الرجل في الدنمارك بنسبة ٤٢ بالمئة في حين أن هذه النسبة لا تزيد عن ٢٧ بالمئة في كل من إسبانيا وإيطاليا.<sup>(١)</sup>

---

(1) Gosta Esping-Andersen, 'Inequality of incomes and opportunities', in Anthony Giddens and Patrick Diamond (eds.), *The New Egalitarianism*. Cambridge: Polity, 2005, pp. 22-4.

وضعف الأجر لا يعنى بالضرورة أن المرء يعيش فى ضيق لو كان دخله يمثل إضافة ثانوية فى الأسرة. والفوارق داخل الأسرة أقل كثيراً منها بين الأفراد فى معظم بلدان الاتحاد الأوروبى الخمسة عشر الأساسية. والأسر التى يرجح أن تكون فقيرة هى أسر بها متكسب واحد وأسر ليس بها أحد يعمل. وتتراوح نسبة الأسر التى ليس بها أحد يعمل فى بلدان الاتحاد الأوروبى الخمسة عشر الأساسية بين ١٥ بالمئة فى المملكة المتحدة و٦ بالمئة فى الدنمارك.

ساعدت البنية الطبقيّة المتغيرة على تغيير طبيعة السياسة وأشياء كثيرة معها. فالسياسة فى المجتمع القديم كانت تصاغ حول الخطوط الفاصلة بين الطبقة العاملة اليدوية وغيرها. وكان هناك دائماً "توريو الطبقة العاملة" وأحزاب ديمقراطية اجتماعية ضرورية لتخاطب الفئات غير الطبقة العاملة. إلا أن النشاط السياسى كان يرتبط بالطبقة ارتباطاً وثيقاً، وكانت خيارات التصويت تتسم بالاستقرار التام من انتخابات. أما الآن فعلى الأحزاب السياسية أن تخاطب جماهير انتخابية متنوعة، وهناك ناخبون كثر آخرون "يخرجون عن الصف" - فلا يلتزمون بالتصويت لحزب واحد تلقائياً.

كانت الطبقة العاملة (ولا تزال) تنقسم إلى خطوط مهارية. فالعمال المهرة، سواء الحرفيون منهم أو من يعملون فى شتى مجالات التقنية الصناعية، كانوا يحظون بفرص عمل ثابتة فى العادة وكانوا يحظون فى الغالب بوفرة أكبر مما يحظى به الموظفون الكتبة وغيرهم من الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة. فالعمال المهرة فى الحرف الثابتة التى ظلت مزدهرة يظلون مطلوبين؛ لننذكر مرة أخرى حكاية السباك البولندى. وكانت أوضاع العامل غير الماهر تسوء. فالعمال غير المهرة - لا سيما الرجال - ليس أمامهم إلا فرص عمل فقيرة فى مجالات

غير مزدهرة. حتى فرص عمل "ماك دونالدز" تحوى مهارات اجتماعية شخصية يجد أهل الطبقة العاملة التقليدية صعوبة فى إتقانها. وكثير من الرجال من هذه الفئة لا يرضون بأى حال أن يعملوا فى أعمال يرون أنها "أعمال نسوية". لذا فالرجال من غير ذوى المهارة عرضة لنوبات الفقر والبطالة إلى حد كبير. وهو موقف ينطبق فى الغالب على المهاجرين أو من ينتمون لفئات الأقلية.

انتشر مصطلح "الإقصاء الاجتماعى" على نطاق واسع فى إشارة لوضع الفئات فى قاع السلم الاقتصادى-الاجتماعى. والهدف إدراك أن هناك عوامل غير الفقر قد تمنع الأفراد أو الجماعات من لعب دور كامل فى المجتمع. وترجع الفكرة عادةً لأحد أعمال الكاتب الفرنسى رينيه لينوار. فالمهمشون فى تحليله يشملون عددًا من الفئات تشكل ١٠ بالمئة من السكان لا تقتصر على الفقراء وحدهم، بل تشمل المعوقين والمرضى العقليين والمسنين ومتعاطى المخدرات ومن إليهم. وكان ابتكار المفهوم مهمًا لأنه يلفت إلى أن وعود الرعاية الاجتماعية لم تصل إلى الناس من هذه الفئات؛ ولأنه يؤكد أن الحرمان الاقتصادى ليس وحده الذى يمنع الأفراد من التعرف على إمكاناتهم.<sup>(١)</sup>

ذاع فى وقت ما الحديث عن مجتمع الـ "١٠/٤٠/٥٠" فى أوروبا؛ فخمسون بالمئة من السكان العاملين يشغلون وظائف مستقرة، وأربعون بالمئة يعملون فى وظائف غير مستقرة نوعًا، بينما تتكون العشرة الباقية من المهمشين اجتماعيًا، سواءً العاطلين أو من يتتايبون دخول سوق العمل والخروج منه (ولو أن النسبة تفاوتت بتفاوت التحليلات). فهناك طبقة معدمة حلت محل الطبقة العاملة التقليدية أو المستويات الدنيا منها. فنسبة معينة من السكان شردت عن المجتمع الأكبر.

---

(1) René Lenoir, Les exclus: un français sur dix, Paris: Seuil, 1974.

هذه الفكرة ثبت خطأها.<sup>(١)</sup> فعلماء الاجتماع يجمعون على عدم وجود طبقة معدمة بهذا المعنى فى بلدان الاتحاد الأوروبى، ولو أن المفهوم يجد تطبيقاً له فى الولايات المتحدة. لذا فإن "وحدة الإستراتيجيات" الحكومية فى المملكة المتحدة درست أربعة مقاييس للإقصاء الاجتماعى هى: المحرومون من العمل أو التعليم أو التأهيل؛ محدودو الدخل (أقل من ٦٠ بالمئة من متوسطى الدخل)؛ من لهم روابط اجتماعية محدودة بغيرهم؛ من يعتبرون أنفسهم يعيشون فى منطقة تتميز بارتفاع معدلات الجريمة أو التخريب العمد أو الخراب المادى. ووجد أن المهمشين على هذه المقاييس الأربعة لا يزيدون عن واحد بالمئة من سكان المملكة المتحدة. فالحرمان المركب لا وجود له ولكنه يتركز فى أحياء بعينها ولا يسم "طبقة" من الناس.<sup>(٢)</sup> والإقصاء الاجتماعى مفهوم له بعض القيمة، ولكن لا يجب استخدامه بشكل عشوائى أو تعميمى. وهو يكاد يتطابق فى معناه مع "الحرمان المركب" الذى يميز جيوباً من أحياء وفئات بعينها من الأفراد (كالمشردين).

### التقسيمات الاجتماعية الجديدة

لم تعد التقسيمات الاجتماعية فى المجتمع بعد الصناعى سلوكية فى عمومها، بل تحددها فرص حياة تفاضلية. وهذا تغيير فى غاية الأهمية. فالناس على اختلاف شرائحهم الطبقيّة يمكن تمييزهم عن بعضهم بصورة واضحة فى أغلب البلدان. باختلاف نمط الحياة لا يزال قائماً بين من هم فى شرائح طبقيّة مختلفة، ولكنهم

---

(١) انظر John Goldthorpe and Abigail McNight, The Economic Basis of Social Class. London: Centre for Analysis of Social Exclusion, London School of Economics, 2004.

(2) Prime Minister's Strategy Unit, Strategic Audit of the UK. London, 2003.

يتأثرون غالبًا بالذوق والعادة أكثر من تأثرهم بالقيود المالية وحدها. والحراك المادى الذى يشمل السياحة الخارجية متاح لكل فعليًا. والحريات الحقيقية التى يمتع بها أغلب الناس، والتى تتركز حول حرية اختيار نمط الحياة تعتبر اليوم أكبر مما حظيت به الأجيال السابقة. وسنطلق على هذه الظاهرة "التحول الديمقراطى اليومى". ويمتد التحول الديمقراطى اليومى "لأسفل" و"لأعلى" فى مسار الحياة. وفى عصر الإنترنت لم يعد يمكن حماية الطفولة كما كان الأمر فيما مضى؛ ويشعر الكبار بحرية تجريب أنماط الحياة بقدر ما لدى الشباب من حرية.

والتحول الديمقراطى اليومى لا يحقق المزيد من الأمن أو الشعور بالأمن بالضرورة. بل إن هناك سلسلة من أشكال انعدام الأمن تصاحبه، بعضها اقتصادى مباشر وبعضها الآخر اجتماعى فى طابعه. وأكثر الناس يريدون ويتوقعون المزيد من حياتهم مما كانت تريده الأجيال السابقة وتتوقعه، ما يؤدى لآمال لا تتحقق دائماً.

ودرجة الأمن الفعلية لدى الشرائح الطبقية المختلفة تفرز صدوعاً عقائدية جديدة فى المجتمعات بعد الصناعية. تقوم هذه الصدوع فى جزء منها على مخاوف عقلانية (كالخوف من فقدان فرص العمل)، وفى جزء آخر على هواجس لا أساس لها. ومن تزدهر أحوالهم فى الاقتصاد الجديد يفرحون بالتنوع ويعتقون أنماط حياة عالمية. وهناك من يغرق فيما يعتبر عدم أمن. فقد يتلذذ بفكرة الانتقال من عمل إلى عمل ولا يتوقع أن يضمن مستقبلاً وظيفياً من النوع التقليدى ولا يريده. وتوجد هذه الفئات من الناس بكثافة عالية فى الصناعات الإبداعية والأعمال ذات الصلة بالتقنية الرفيعة والمال والصرافة والمهن العليا.

يشمل ما يسميه ريتشارد فلوريدا "الطبقة المبدعة" أكثر من ٢٠ بالمئة من الأيدى العاملة، تتركز بكثافة فى بعض المناطق الحضرية. وهى تتألف فى الأساس من أناس من الطبقتين ٢ و ٣ فى تصنيفنا (انظر الشكل ٣-١). وأعضاء الطبقة



المبدعة متنوعون من حيث الخلفية؛ فهم من كل الأعمار ومن فئات عرقية متباينة ومن ذوى التوجهات الجنسية المختلفة.<sup>(1)</sup>

ولقياس توزيع الطبقة المبدعة فى الولايات المتحدة ابتكر فلوريدا "فهرسنا إبداعيا" يقوم على أربعة عوامل: نسبة الطبقة المبدعة فى القوة العاملة، نسبة العاملين فى الصناعات ذات التقنية الرفيعة، التجديد قياساً بنسبة براءات الاختراع لكل فرد، والتنوع وفقاً لتقدير "فهرس الشواذ" أى نسبة الشواذ الذين يؤخذون دليلاً على الانفتاح. وبعض المدن كسان فرانسيسكو أو أوستن أو سان دييجو تأتى فى ترتيب متقدم على كل المقاييس. وهناك مدن تتجاوزها طبقة المبدعين كمفيس أو بيتسبرج.

هذه المدن القريبة من قمة قائمة فلوريدا تنصدر البلاد فى الرخاء الاقتصادى وخلق فرص العمل. وتتميز أكثر الاقتصادات المحلية حيوية بثلاثة مقومات هى الموهبة والتقنية والتسامح. وهى جميعاً فوق هذا وذاك عالمية. وأعضاء الطبقة المبدعة كثيرون التنقل وينجذبون إلى المدن التى تقع فى مناطق تقدم لهم ما يرغبون من حيث نمط الحياة. وهم يؤثرون الاستجمام النشط والجماعى وثقافة الشوارع، ومزيجاً من المقاهى والمطاعم ومعارض الفنون والمسارح. وهم يهوون تنوع الرياضات النشطة. ومنهم نسبة كبيرة من المهاجرين الأكفاء. وثلاث الأعمال التجارية التى أنشئت فى وادى السيليكون فى التسعينيات حسب ما ورد فى إحدى الدراسات بدأها مستثمرون من أصول هندية وصينية.

ومن المواطنين العالميين بالمعنى الذى يقصده فلوريدا من نجده فى شرائح طبقية أخرى أيضاً. ومع ذلك فكثير ممن يشعرون بالحساسية تجاه أى تغيير غير

---

وللمزيد (1) Richard Florida, *The Rise of the Creative Class*, New York: Perseus, 2002. عن تأملات الكاتب التالية انظر Richard Florida, *The Flight of the Creative Class*, New York: HarperBusiness, 2005.

مرغوب يستحسن وصفهم بالمحليين، وهم من يرغبون في الإبقاء على الترتيب الراهن للأشياء أو يحنون إلى الماضي، سواء أكان حقيقياً أو افتراضياً. وقد يبحثون عن كباش فداء من المهاجرين مثلاً ليلقوا عليهم تبعة متاعبهم؛ وقد تجذبهم الشعبية السياسية وفرض الحماية الاقتصادية. والمهاجرون أنفسهم ليسوا بالضرورة عالميين. وقد يصبحون محليين في توجهاتهم ولا يقلون عداء لمزيد من الهجرة عن بعض فئات السكان المحليين.

إلى جانب سائر التغيرات لا سيما في مجال الأسرة فالبنية الطبقيّة المتغيرة تغير توزيع الشرائح "المعرضة للخطر" وطبيعة الفوارق وشكلها. فالظروف التي تقرر الشرائح "المعرضة للخطر" هيكلية، إلا أن مدى ترجمتها إلى حساسيات فعلية يتوقف على مزيج السياسات في مجتمع ما وبعض العقبات التي يمكن أن تعترض سبيلها. والجانب الآخر من الخطر هو الفرصة. وعلمنا ألا نخطئ بافتراض أن الخطر عامل سلبي دوماً. فمن التغيرات الأهم ما يلي:

١. هناك في المتوسط فرص عمل بمتشعب آمن للناس في أغلب أوضاع العمل، ولو أن هناك تفاوتاً يتوقف على قوة التقسيمات إلى داخلي وخارجي في أسواق العمل.

٢. المجازفة (والفرصة) توزعان على مدى العمر بطريقة تختلف عما كانتا عليه فيما مضى. والمجازفة والفرصة لا تحدث "صدفة". فالناس يزدادون تفكيراً إستراتيجياً في حياتهم من حيث احتمالات المستقبل - حتى في قرار الإنجاب. والتحوّلات في مختلف مراحل العمر أقل قابلية للتنبؤ بها وأقل آلية مما كانت. وارتفاع معدلات الطلاق والانفصال تعني أن التحوّل قد يحدث في أوقات شتى.

٣. كثافة التحول التقنى المرتبط بتقسيم أكثر عولمة للعمل يوجد حساسيات جديدة لبعض الفئات. فاحتمالات نجاح الشباب ممن يفتقرون إلى أية مؤهلات كما سبقت الإشارة ضعيفة. والعمال الكبار ممن تزول فرص عملهم يواجهون نوبات بطالة طويلة بل احتمال ألا يعملوا مرة أخرى ما لم يحدث التدخل بسياسات مناسبة.

٤. لكبار السن فى المتوسط نصيب من إجمالى الثروة والدخل أكبر مما كان لهم فيما مضى مقارنة بالشباب. ومع ذلك فكثره منهم لا يزالون عرضة لخطر الانزلاق إلى الفقر عند التقاعد. وكبيرات السن ممن لا عائل لهن هن الأضعف. إلا أن الأخطار أصبحت تميل نحو الشباب أكثر مما هى بين الكبار.<sup>(١)</sup> والفقر بين الأطفال انتشر حيثما قلت فرص عمل المرأة.

٥. فرص العمل من نوعية "ماك دونالدز" غالباً ما لا تقدم فرصة لمستقبل ذى شأن. وهو وضع قد لا يهم إذا تولته فئات لديها القدرة على الانتقال إلى قطاعات أخرى، كالطلاب ممن يعملون فى المقاهى فى أثناء العطلات أو فى سنوات الانقطاع عن الدراسة. وقد يكون شديد الأهمية بالنسبة لمن لديهم قدر من المؤهلات يسمح لهم بالحراك.

٦. فى المجتمع المعرفى/الخدمى تكون للمؤهلات - الشهادات والدبلومات والدرجات الجامعية - أهمية قصوى فى حراك المستقبل العملى. ومن الصعب على الآباء الأكفاء أن ينقلوا كفاءاتهم لأبنائهم. لذا فهم يركزون على تعليمهم. فخريجو الجامعات مثلاً يجنون فى المتوسط من المال على مدى سنوات عملهم أكثر مما يجنيه من لم يلتحقوا بالجامعة.

---

(1) Esping-Andersen, 'Inequality of incomes and opportunities'.

٧. قد تكون الأقليات العرقية عرضة للخطر حيث تقتقر للمؤهلات. وقد تفتقر أشكال التحامل وقد يتبناها إلى حد ما بعض أفراد الأقليات نفسها. وقد تكون ثمة مشكلات مضاعفة للمرأة حيث تقصر معتقدات التراث دورها على البيت.

٨. كثير من النساء يعملن ولمدة طويلة من أعمارهن لكن دخولهن ضرورية في الغالب للحفاظ على مستوى معيشة الأسرة. والمرأة هي المكتسب الوحيد في نسبة كبيرة من الحالات. وهذا الوضع ليس السبب في تدنى معدل المواليد في أوروبا. بل على العكس، فالأسر ذات النسبة الأعلى من النساء العاملات هي أيضاً الأسر ذات المعدلات الأعلى في المواليد. إلا أن قضايا العمل والحياة تكتسب أهمية كبرى. ولا تزال المرأة تمثل المعنى الرئيس، ومستقبلها الوظيفي يقطعه الإنجاب أكثر مما يقطع مستقبل الرجل.

٩. هناك قدر كبير من السيولة في المجتمع المعاصر، إلا أن الموارد الهيكلية للحراك كما سبقت الإشارة في الفصل الأول تختلف عنها قبل بضعة عقود من السنين. ولن يكون ثم "اتجاه" واضح للحراك بين الأجيال كما كان عندما انتقلت كثرة من الناس من خلفيات طبقية عمالية إلى وظائف إدارية ومهنية. والحراك الهيكلي يتوقف على تنمية شاملة متواصلة للوظائف القائمة على المعرفة على حساب المهن الخدمية الأقل مهارة. ويرجح أن يكون هناك قدر أكبر من الحراك الوظيفي الطوعي وغير الطوعي، وقد ينطوي على قدر من الطرق الجانبية نحو نطاق وظيفي مختلف أو استقطاع بعض الوقت من العمل لتلقى تعليم أو إعادة تأهيل.

١٠. الشيخوخة تتغير طبيعتها لا لمجرد أن مزيداً من الناس سيعملون لمدة من أعمارهم أطول، بل لأنه لن تكون هناك الانقطاعات نفسها التي كانت بين

حياة العمل وحياة غير العمل. وبدأ "سجن تقاعد" كبار السن - وهو نوع من الإقصاء الاجتماعي لو صح التعبير - في التصدع. وقد تندثر مفاهيم التقاعد والمعاش في المستقبل وتحل محلها توجهات أكثر مرونة حيال العمل وموارد أكثر رشداً للدعم الاجتماعي للفئات الأكثر عرضة للخطر من كبار السن والعديد من النساء المسنات بصفة خاصة.

### العدل الاجتماعي في المجتمع بعد الصناعي

"العدل الاجتماعي" فكرة اشتهرت بأنها تثير الجدل. فإلى أى مدى تنطوى هذه الفكرة على إعادة توزيع الثروة والدخل مقارنةً بتعزيز المساواة في الفرص؟ ماذا يمكن أن يقصد بها في سياق المجتمع بعد الصناعي؟ أول هذه التساؤلات قد تسهل الإجابة عليه من حيث المبدأ. ففي مجتمع يقوم في رخائه على سوق شديدة الحيوية لابد أن يحتل الطموح والفرصة والتطلعات مكان الصدارة. وتكافؤ الفرص مهم لأنه يستغل المواهب المتاحة الاستغلال الأفضل. لكن الحد من عدم تكافؤ الفرص ينطوى بالضرورة على إعادة التوزيع، وإلا فالناجحون في جيل قد يتشبثون بثمار نجاحهم. وفوارق ما بعد الضرائب في بلدان الاتحاد الأوربي أقل كثيراً من فوارق ما قبل الضرائب، وهي محصلة ضرورية ومطلوبة لأنها تحدد إطاراً لسائر المعايير. ومزيد من إعادة التوزيع يحدث من خلال منظومة الرعاية الاجتماعية ومن خلال الآثار المباشرة للسياسات حسب مزيج الرعاية الاجتماعية في المجتمع. ومع ذلك فسنرى فيما بعد أن فكرة إعادة التوزيع لها حدود.

وكيفية تعريف العدل الاجتماعي مسألة صعبة دونت فيها مجلدات فلسفية ضخمة. إلا أن هناك تعريفاً مفيداً لأساذ العلوم السياسية الألماني فولفجانج ميركل.

فهو يحدد خمس أولويات للعدل الاجتماعى فى الظروف الاجتماعية بعد الصناعية:<sup>(١)</sup>

١. مكافحة الفقر لا بسبب الفوارق الاقتصادية نفسها، بل لأن الفقر (أو بالأحرى تحمل الفقر) يحد من قدرة الفرد على الاستقلالية واحترام الذات.

٢. إيجاد أعلى المعايير الممكنة للتعليم والتدريب والمتأصلة فى إتاحتها بصورة متساوية وعادلة للجميع.

٣. تأمين فرص العمل للراغبين فى العمل والقادرين عليه.

٤. منظومة رعاية اجتماعية توفر الحماية والكرامة.

٥. الحد من الفوارق فى الدخل والثروة لو عرقلت تحقيق الأهداف الأربعة الأولى أو عرضت تماسك المجتمع للخطر.

من الواضح أن الشر يكمن فى التفاصيل لا سيما فيما يتصل بالنقطة الخامسة. لكن الصيغة تقدم خطة متواضعة، بسيطة وواضحة فى أن معاً. فهى تقر بدور تكافؤ الفرص فى مجتمع يتسم بالتمايز على خلفية ضرورات اقتصادية قائمة. وهى تعطى التفوق للكفاح فى سبيل خفض مستويات الفقر، ذلك أن الفقر يحد من فرص الحياة والقدرة على تحقيق الذات. ويترتب على الصيغة اعتبار استهداف الفقر بين الأطفال أمراً ذا أهمية خاصة. وكلما ارتفعت نسبة من يعانون الفقر من

---

(1) Wolfgang Merkel, 'How the welfare state can tackle new inequalities', in Patrick Diamond and Matt Browne (eds.), *Rethinking Social Democracy*. London: Policy Network, 2004.

يقوم رأى ميركل على رأى أمارشيا سن. وترى سن أن السياسات التى ترمى إلى تعزيز المساواة يجب أن تقوم على "مجموعة قدرات" الفرد - الحرية العامة التى يتبعها المرء فى رخصته.

Amartya Sen, *Inequality Re-examined*. Oxford: Clarendon Press, 1992.

الأطفال زاد احتمال التنازل عن الأهداف الخمسة جميعاً. وفي دراسة حديثة أجريت اختبارات نمو إدراكي على أطفال في عمر ٢٢ شهراً، ووجد أنها مؤشرات دقيقة على المستوى التعليمي في سن السادسة والعشرين. فالأطفال ذوو القدرات المتساوية في أوائل العمر تفاوتت درجات نجاحهم تفاوتاً كبيراً بمرور الزمن حسب الوضع الاجتماعي-الاقتصادي لأسرهم.<sup>(١)</sup>

إن العدل الاجتماعي والإقصاء الاجتماعي والحماية الاجتماعية كلها أمور تتصل ببعضها البعض، وينبغي الإشارة إلى كيفية اختلافها. ونرى من جانبنا أن مقاومة الإقصاء الاجتماعي ليس إلا عنصراً واحداً في إيجاد مجتمعات أكثر عدلاً اجتماعياً. والعدل الاجتماعي مفهوم أقوى وأشمل. فهو يتصل بالحد من الفوارق المهمة - الاجتماعية والاقتصادية - وموازنة فرص الحياة. والعدل الاجتماعي يتداخل مع الحماية الاجتماعية التي تشير إلى أدوات توفير الرعاية الاجتماعية. إلا أن الحماية الاجتماعية فكرة أوسع نطاقاً، فهو يغطي التأمين ضد الأخطار إضافة إلى الاستثمار في التعليم والرعاية الصحية وسائر الخيارات المطلوبة اجتماعياً.

يصف إسبنغ-أندرسن الأسرة والبيت بأنهما في قلب الاهتمام بالعدل الاجتماعي في المجتمع بعد الصناعي. ويرى أن «المرأة جزء حيوي من أي توازن جديد بين الأسرة والاقتصاد».<sup>(٢)</sup> والاقتصاد المعرفي/الخدمي محوره الأسرة. وارتفاع معدلات تشغيل الإناث بشكل دائم تستعين الأسر بمصادر خارجية في أنشطة كانت تتولاها ربات البيوت بشكل أساسي فيما مضى، ما أدى لإيجاد

---

(1) Leon Feinstein, 'Inequality in the early cognitive development of British children in the 1970 cohort', *Economica*, 70 (2003).

(2) Gosta Esping-Andersen, 'A new gender contract?' in Wping-Andersen (ed.), *Why We Need A New Welfare State*. Oxford: Oxford University Press, 2002, p. 69.

فرص عمل فى الصناعات الخدمية. وهو وضع يخلق "إضافة مضاعفة" حيث إن المرأة تعمل أيضا فى هذه الصناعات نفسها.

إن المساواة بين الجنسين يُظن أحيانا أنها لصالح المرأة فى كفاحها فى سبيل تحسين وضعها فى الأسرة وفى العالم خارجها. إلا أن جودة الرفاه فى المستقبل تتوقف على المحصلة. «إن المساواة بين الجنسين خيرا كانت أو شرا تصبح "شأنًا اجتماعيًا" وشرطًا لانضباط آلية عمل المجتمعات بعد الصناعية».<sup>(١)</sup> وهناك نوعان من المساواة، داخل البيت وخارجه. وهما متصلان بشكل واضح ولكنها ليست صلة متكافئة بالضرورة. فلا تزال هناك فروق كبرى بينهما، ولكن يمكن القول إن مستقبل المرأة المهني يزداد شبيهاً بمستقبل الرجل بمرور الوقت. ومع ذلك فهذا الوضع تقطعه متطلبات رعاية الأطفال والأمومة.

تشير كاثارين حكيم إلى أن المآزق التي تواجهها المرأة تصنف فى ثلاثة خيارات فى الحياة.<sup>(٢)</sup> فمن ناحية، هناك المرأة "ذات التوجه الأسرى"، والتي تتمثل أولوياتها فى الزواج والأمومة. وإن عملت فللضرورة؛ ولا تهتم بصنع مستقبل مهني. أى أنها تحفظ بنية الأسرة التقليدية. وإذا كانت هذه المرأة تتمثل فى الجيل الأكبر سنًا فهي تتلاشى حتى فى بلدان كالليونان أو إيطاليا.

والمرأة العاملة على طرف النقيض الآخر؛ وهى لا تتجلب إلا إذا كان الإنجاب لا يتعارض مع مستقبلها المهني. وهذه الفئة على خلاف النوع الأول فى ازدياد مطرد، وترى كاثارين حكيم أن خمس النساء تحت سن الخامسة والأربعين لديهن هذه الرؤية، ولو أن النسبة تختلف باختلاف بلدان الاتحاد الأوربي. ومع ذلك فأغلب النساء يندرجن ضمن "الدور المزدوج". فهن يردن مستقبلاً مهنيًا والأمومة معًا.

---

(١) المرجع نفسه.

(2) Catherine Hakim, Key Issues in Women Work. London: Athlone, 1996.



عندما ننظر في أرجاء الاتحاد الأوربي نرى القطبية نفسها التي لاحظناها في الفصل الأول. ففي الدنمارك على سبيل المثال نجد المرأة التي تتجيب طفلين أو أكثر لا تقطع مستقبلها المهني إلا فيما ندر وتبقى في الغالب متفرغة لوظيفتها. وفي ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا تقل نسبة الأمهات من ذوات الأسر التي تضم طفلين أو أكثر ممن يبقين في العمل.<sup>(١)</sup>

هل يحكم "الدور المزدوج" على المرأة بـ "توبة عمل مزدوجة" تتحمل فيها أغلب الأعباء المنزلية بينما لا يزال عليها أن تكافح من أجل النجاح في العمل؟<sup>(٢)</sup> هذا سؤال لا يجاب إلا إذا نظرنا من منظور عمر كامل؛ وإلا إذا نظرنا إلى المساواة من زاوية السلطة واتخاذ القرار لا من ناحية التساوي الاقتصادي الشكلي. من غير المرجح (وإن لم يكن مستحيلاً) أن يكون ثم "تأنيث" واسع النطاق لمهن الرجل، حيث تتساوى الالتزامات الأسرية مع التطلعات المهنية. واقتربت السويد من ذلك، حيث تمثل عطلة رعاية الطفل للأباء ١٣ بالمنة من إجمالي عطلات رعاية الطفل، ما يمثل ضعف نظيرتها في سائر بلدان الشمال. كما تباهى السويد بالمستوى الأعلى في الأعمال المنزلية غير المدفوعة الأجر، والتي يؤديها الزوج أو الرفيق - بمتوسط إحدى وعشرين ساعة في الأسبوع. وليس هذا ببعيد عن نظيره بالنسبة للمرأة، وهو سبع وعشرون ساعة تقريباً في الأسبوع. وهناك نسبة ضئيلة من الأسر يركز الرجل فيها على الأعمال المنزلية بينما تركز المرأة على مستقبلها المهني.

---

(1) Esping-Andersen, 'A new gender contract?'.  
(2) Arlie Russel Hochschild, The Second Shift. London: Penguin, 2003.

## الفوارق والفقر

نشرع الآن فى تناول أنماط الفوارق بالتفصيل، فنركز على الفقر والحرمان قبل أن نتجه إلى ما قد يلى ذلك من تجديد فى السياسات. فالفوارق الاقتصادية العامة قياساً بمعامل جينى فى ازدياد فى أغلب بلدان الاتحاد الأوروبى وإن استقرت مؤخراً فى المملكة المتحدة. إلا أن ما تعنيه هذه الزيادات بالنسبة لتوزيع فرص الحياة بين السكان غير واضح حيث تشير البيانات (كما يشير كثير من الإحصاءات) إلى الأفراد لا الأسر. والعديد من محدودى الدخل قد يكونون ذوى دخل ثانوى فى الأسر ذات الدخل الكلى المعقول أو الجيد. وما يمكن قوله عن يقين أن وجود عائلتين حاضرين يمثل حماية كاملة من الفقر. وكما سبقت الإشارة الفوارق بين الأسر فى أغلب البلدان أقل كثيراً فى المتوسط من الفوارق بين الأفراد.

يعزى تغير أنماط الفوارق الاقتصادية بين الرجال فى المقام الأول إلى العودة إلى ذوى المهارات المحدودة. فالمهارات ولا سيما تلك التى تحتل صدارة الاقتصاد المعرفى/الخدمى لها الغلبة. وزاد عدم استقرار فرص العمل بالتوازى مع الاتجاهات التى سبق أن أشرنا إليها. وهو فى الحقيقة أعلى نسبياً فى الصناعة منه فى الصناعات الخدمية نظراً لتدهورها المستمر، إضافة لتأثير التحول التكني.

اعتباراً من ٢٠٠٥ يعيش ما يقرب من ستين مليوناً من الناس فى فقر فى دول الاتحاد الأوروبى الخمس عشرة الأساسية، وهم طبقاً لمعيار الاتحاد الأوروبى القياسى من يكسبون أقل من ستين بالمئة من متوسط الدخل القومى. ويمثل هذا العدد حوالى ١٦ بالمئة من إجمالى تعداد السكان. وقد تكون النسبة الحقيقية أقل، إذ ليست بين أيدينا بيانات مقارنة موثوقة عن الأسر. والدول الأعضاء الجديدة لا

تُقاس من المنطلق نفسه، فأحصاءاتها لا تزال تقوم على قياسات قومية متباينة. ونسبة من يعيشون تحت خط الفقر من الأفراد بتعريف تلك البلدان تتراوح بين ٨ بالمئة في سلوفينيا و ٢٦ بالمئة في المجر.<sup>(١)</sup>

أدنى معدلات الفقر في دول الاتحاد الأوروبي الخمس عشرة الأساسية نجدها في بلدان الشمال، وأعلىها في بلدان المتوسط. وتشير معدلات الفقر بين الأطفال (قياساً بالأفراد) إلى التوزيع نفسه تقريباً. فهي أقل من ٤ بالمئة في السويد والدنمارك وفنلندة اعتباراً من سنة ٢٠٠٠؛ وحوالي ٢٠ بالمئة في اليونان و ٢٢ بالمئة في المجر.<sup>(٢)</sup> ونسبة الأسر التي ليس فيها إلا أحد الوالدين بين الأطفال الذين يعيشون في فقر أعلى في كل المجتمعات. ومع ذلك فنسبة لا يستهان بها من الأطفال الفقراء يعيشون في أسر "طبيعية"، بنسبة لا تقل عن ٤٨ بالمئة في اليونان.

والفقر محدد في مناطق بعينها في كل مكان تقريباً من حيث إجمالي المقارنات بين قطاعات من البلاد (كشمال إيطاليا وجنوبها، أو شمال إنجلترا في مقابل جنوبها الشرقي) وفي سياقات أصغر. ففي المملكة المتحدة مثلاً يعيش محدودو الدخل في ٢٠ بالمئة من المناطق المحلية، ويتركز ٥٠ بالمئة من الأطفال في عمر المرحلة الابتدائية ممن يعيشون في أسر محدودة الدخل في ٢٠ بالمئة من المدارس. والنسبة نفسها تقريباً موجودة في الأحياء داخل المدن.

كان الفقر موضوعاً للحديث مع أنه كان (١) حالة كلية (٢) حالة ثابتة لا تتغير، فالفقير مرة يظل فقيراً دائماً ما لم تنتشله سياسات اجتماعية فعالة. وكلا الافتراضين خطأ، وإيضاح الأسباب له نتائج على إصلاح السياسات.

---

(1) Brigita Schmognerova, The European Social Model: Reconstruction or Destruction? Bonn: Ebert Foundation, 2005, p. 70.

(٢) النسب بمعدل أقل من ٥٠ بالمئة من متوسط الدخل.

و"الفقراء" شديداً التباين. يقول لوتز لايزرينغ وستيفن لايفريد إن «النظرة الجديدة أن للفقر أوجه عديدة».<sup>(1)</sup> فهناك على سبيل المثال أنواع شتى من المناطق والأحياء المحرومة تحركها ديناميات شتى. ومن المناطق المحرومة تلك التي أغلقت فيها مصانع أو مناجم أو أحواض بناء سفن. ويضم بعضها نسبة عالية من الأقليات العرقية؛ وبعضها الآخر يخلو منها. بعضها في المدن الكبرى، وبعضها في بلدات صغيرة. وفقر الريف يختلف في الغالب عن فقر الحضر، ويغطي هو نفسه عدداً من الظروف المتباينة. وقد تتباين إستراتيجيات التعامل معه تبايناً شديداً حسب هذه الفروق وغيرها.

والأهم أن الفقر ليس ظاهرة ثابتة. فحتى وقت قريب لم تكن هناك دراسات تقربنا عن تجربة الفقر على مر العصور. وجاءت هذه الدراسات لتغير فهمنا للظاهرة. فالتركيز على العصر والعمر له أهمية خاصة في سياق المجتمعات بعد الصناعية. لأن الحركة والتدفق انتشرا فيها أكثر من ذي قبل. فأعداد من يمرون بنوبات من الفقر أكثر من المتصور، إلا أن أغلب نوبات الفقر قصيرة الأمد. والأرجح أن يكون الفقر تجربة منفصلة عن أن يكون حالة ثابتة. ولكن كثيراً ما يعاني الأفراد والأسر نوبات فقر متكررة، فيما يعرف بـ "عرض الأرجوحة". وفي بلدان الاتحاد الأوروبي الخمسة عشر الأساسية ككل ينتهي ٣٩ بالمئة من نوبات الفقر في غضون سنة. وترتفع هذه النسبة إلى ٥٠ بالمئة في بلدان الشمال. وهي ٣٦ بالمئة في المملكة المتحدة و٢ بالمئة في البرتغال. وفي أغلب بلدان الاتحاد الأوروبي الخمسة عشر الأساسية أقل من ٨ بالمئة ممن يصيبهم الفقر في أية فترة

---

(1) Lutz Leisering and Stephan Leibfried, *Time and Poverty in Western Welfare States*, trans. John Veit-Wilson. Cambridge: Cambridge University Press, 2001, p. 239.

مدتها خمس سنوات يظلون على فقرهم طوال تلك الفترة. ومع ذلك فالفقر الطويل الأمد أو الدائم يمثل مشكلة في عديد من البلدان أو أكثرها.

يشير لايزرينغ ولايفريد اللذان أجريا دراسة سلسلة زمنية في ألمانيا إلى سمات رئيسة للفقر في المجتمعات بعد الصناعية (كلها تنطبق على سائر الشرائح في التركيبة الطبقية أيضا). أولى هذه السمات التوقيت، إذ تتوقف تجربة الفقر على مدتها وما يحدث بين نوبات الفقر وفي أية فترة من العمر. والثانية الديمقراطية، إذ تصيب تجربة الفقر أعدادا كبيرة من الناس ولا تدل بالضرورة على التهميش. وثالثتها أن نسبة كبيرة من الفقر ظرفية - أي ترتبط بأحداث أو فصول بعينها في حياة المرء، كالطلاق أو المرض أو ترك بيت الأسرة أو فقد العمل.<sup>(١)</sup>

على ضوء هذه النتائج علينا أن نبدأ في النظر إلى "الفئات الفقيرة" بعيون جديدة. وحتى في وجود أعداد لا يستهان بها من المهاجرين والأقليات العرقية فإن أية منطقة تظل على فقرها طوال فترة من الزمن يمكن أن تجرى فيها تنقلات كبيرة للأفراد منها وإليها. أثبت البحث في بولتون وبرادفورد في المملكة المتحدة، وهما مدينتان بهما نسبة كبيرة من الأقليات من شرق آسيا، أن أغلب المهاجرين لم يبقوا في مكان واحد. فكانوا يرغبون في الخروج من داخل المدينة إلى الضواحي، وكثير منهم خرجوا فعلاً. وبدا كأن أحياء المهاجرين تظل على حالها، إلا أن تركيبها كانت في تغير دائم.<sup>(٢)</sup>

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤٠-٢٤٣.

(2) Yasmin Hussain and Paul Bagguley, 'Citizenship, ethnicity and identity: British Pakistanis after the 2001 riots', Dept. of Sociology, University of Leeds, Working Paper, July 2003.

ولكى نرسم سياسات فعالة علينا أن ننظر إلى الظروف التى تؤدى بالناس إلى السقوط فى دائرة الفقر والظروف التى تمكنهم من التحرك قَدَمًا. هناك عوامل عديدة تؤثر على قدرة الأفراد أو الأسر على التحمل إذا حدث تحول فى سوق العمل مثلاً. وهناك دراسة أجريت فى أنحاء بلدان الاتحاد الأوروبى الخمسة عشر الأساسية أثبتت أن الناس فى المرحلة العمرية ٥٥-٦٤ يتحملون أزمات الحياة بصورة أفضل من غيرهم، لأنهم جمعوا أرصدة وأبناءهم غادروا البيت فى الأحوال العادية.<sup>(١)</sup>

## نتائج السياسات

فى تناولنا نتائج التحليل حتى الآن علينا أن نأخذ فى الحسبان ما قيل فى الفصل الأول عن أفضل الممارسات. ونلخص النقاش فيما يلى:

١. يجب الكف عن اللغظ حول الإقصاء الاجتماعى؛ ولا بد أن يكون له معنى محدد. وعلينا أن نفك التشابك بين الفوارق والفقر والإقصاء الاجتماعى الذى هو فى الحقيقة مفهوم أضيق من حيث التطبيق. ولا ينبغي استخدام مصطلح "الإقصاء الاجتماعى" إلا فى الإشارة إلى مواقف يعانى الأفراد أو الأسر فيها حرماناً مضاعفاً منهم من المشاركة الاجتماعية والاقتصادية الأوسع.

٢. لرفع مستويات العدل الاجتماعى لا بد من التركيز حسب قول ميركل على الحد من الفقر. وبما أن الفقر يعرف فى علاقته بالدخل المتوسط فهو على

---

(1) Robert Walker, 'Opportunity and life-chances: the dynamics of poverty, inequality and exclusion', in Anthony Giddens and Patrick Diamond (eds.), *The New Egalitarianism*. Cambridge: polity, 2005, p. 77.

أية حال مقياس للفوارق. والرفع في المجتمع المتميز أكثر وطنية من الخفض. وعلى أى فالمهم في الفقر ليس الحرمان الاقتصادي بهذا المعنى، بل ما يترتب عليه بالنسبة لرفاه الفرد وقدراته.<sup>(1)</sup>

٣. أغلب السياسات الاجتماعية تهتم بتحسين حالة الناس بمجرد سقوطهم في دائرة الفقر، لكن هذا الموقف التقليدي لا يكفي في سياق مجتمع اليوم. والمرونة هي السبيل الأفضل للتعامل مع التنقل بين فرص العمل ويمكن أن تعين الفقراء لأن الحصول على فرصة عمل خير وسيلة للخروج من الفقر بالنسبة للرجل والمرأة على السواء. لكننا بحاجة لتوجه أكثر وقائية يركز على الأحداث التي تعجل بنوبات الفقر والعوامل التي تنتهي هذه النوبات وما يترتب على الفقر من عواقب تالية.

٤. الاستثمار في الأطفال قد تكون له فائدة مضاعفة لا بسبب مشكلة فقر الأطفال وحسب، بل لأن السياسات التي اتخذت مبكراً قد يكون لها أثر طوال العمر. وللتعليم دور حيوي في المجتمع بعد الصناعي ولكنه لا يؤدي تلقائياً إلى توازن فرص الحياة. وقد يتحول بسهولة إلى ساحة حرب لأصحاب الامتيازات ليحافظوا على امتيازاتهم أو ليعزروها. ولا بد من وضع سياسات نشطة لمواجهة هذه التوجهات وإلا فإن الأولوية الجديدة للتعليم قد تخلق عوائق جديدة في طريق من هم أقل تميزاً.

٥. يجب ألا نتجه السياسات "للفقراء" أو "المهمشين" وحدهم باعتبارهم فئات مغمورة، ولا يجب أن نركز على من أصابهم الفقر في فترة بعينها من

---

(1) Sen, Inequality Re-examined.

الزمن. فبعض السياسات يجب أن تستهدف من هم فوق خط الفقر على ضوء عوامل المخاطرة المعروفة التي قد تدفع بهم إلى السقوط تحته أو تعيدهم إلى الفقر بعد أن أفلتوا منه. وهذه السياسات لا بد أن تكون هيكليّة وشخصية في آن. ويجب ألا تقتصر على الجانب الرأسمالي من الإنسان. وبمشاركة أصحاب العمل لا بد من تحسين كل من ظروف العمل وفرص الارتقاء الداخلية. وكل هذه تدخلات من شأنها أن تساعد على الحد من عرض الأرجوحة.

٦. لا بد أن نركز لا على السبل التي قد يلجأ إليها العاطلون للحصول على فرص عمل وحدها، بل أيضاً على ديناميات فرص العمل ذات الأجر المنخفض. أجرى استطلاع "اللجنة الأسرية البريطانية" لقاءات مع أفراد أكثر من خمسة آلاف أسرة في كل سنة منذ ١٩٩١، ووضعت في اللقاءات أسئلة عن تجارب الناس قبل بدء البحث. وتمثل اللجنة مصدراً غنياً ومفصلاً للمعلومات عن أصحاب الأجور المنخفضة. وكما هو متوقع فمن هم في أدنى سلم الأجور يرجح أن يمروا بنوبات بطالة. ففي الفترة من ١٩٩١ إلى ١٩٩٤ أمضى ٣٠ بالمئة من الرجال في الربع الأدنى من العاملين فترة بدون عمل في مقابل ١٢ بالمئة لمن هم في الربع الأعلى.<sup>(١)</sup> وتؤكد الدراسة على أهمية التثبيت في العمل - الرجال من أصحاب الأجور المنخفضة ممن ظلوا في أعمالهم بشكل متصل لأكثر من خمس سنوات تزيد فرص خروجهم من دائرة الأجر المنخفض بنسبة ٨٠ بالمئة ممن ظلوا في أشغالهم لأقل من

---

(١) بيانات "اللجنة الأسرية البريطانية"، نقلًا عن John Rigg and Tom Sefton, Income Dynamics and the Life-Cycle, Center for the Analysis of Social Exclusion, LSE, 2004.



سنتين. ولمستوى المهارة تأثير مهم. فأكثر من ٤٠ بالمئة من الرجال ممن يبدعون العمل في أشغال منخفضة الأجر يفتقرون إلى المؤهلات الرسمية. وهم الأقل احتمالاً أن ينتقلوا إلى فئات دخل أعلى في أية مرحلة تالية.

٧. السياسات العامة التي تنمي المهارات وتهدف لخفض التدنى التعليمي تعتبر ضرورية لتحسين فرص حياة هذه الفئات. ومع ذلك فالتدخلات الهادفة قد يكون لها تأثير كبير. فيجب أن توجه البرامج إلى محاولة ضمان بقاء من يبدعون العمل بلا مهارات في أشغالهم لفترات طويلة وقدرتهم على التقدم فيها. ويمكن لفرص التدريب في العمل أن تمثل جزءاً من حزمة السياسات. وقد يكون للنقابات بل يجب أن يكون لها دور مهم في ذلك.

٨. بالنسبة للمهمشين هناك أنواع مختلفة تماماً من السياسات تناسبهم، ولو أن الحصول على عمل يظل هدفاً أساسياً لديهم. والسلوك الإدماني الذي يفرز دائرة تدهورية في القدرة على التعامل له تأثير مهم. والعون المادي بل منح فرص عمل حقيقية ليس لهما تأثير كبير وحدهما. ولا بد من سياسات موجهة على مستوى اجتماعي مصغر. ويجب أن تشمل تقديم خدمات استشارية وجماعات دعم في الأحياء ووسائل لمساعدة ضحايا العنف المنزلي أو سائر صور العنف.

٩. لا بد أيضاً من اتخاذ سياسات موجهة للتعامل مع الصدمات الخارجية المصدر، لا سيما حين يستغنى عن أعداد كبيرة من العمال عنى المدى القصير. ويجب أن تتضمن تنسيقاً وثيقاً بين الشركاء الاجتماعيين ووسائل الهيئات. ومع ذلك فالتسريح كالفقر ليس تجربة فردية، وقد تكون المسافة بين

إستراتيجيات التعامل قبل الحدث وبعده شاسعة. ولا بد من فهمها من منظور مواقف الحياة الأكبر.

١٠. للمرونة أهمية بالغة في مواقف كهذه، ولكنها وحدها لا تكفى. وهناك عدد من المقاربات طرحت في الولايات المتحدة وقد تكون ذات صلة في أوروبا أيضاً. فبرامج إعادة التشغيل الوقائية فكرة، فالعمال في الصناعات المهددة يمكن أن يتقدموا من فترة مبكرة لإعادة التأهيل؛ أو يشجعوا للبحث المبكر عن عمل. والسبيل الأنجع في رأى سبرلينغ تقديم دورات تدريبية جامعية محلية على شبكة الإنترنت بما يسمح للعمال غير العاطلين بالشروع بالتعلم في بيوتهم. وخدمات الشبكة في مجال البحث عن عمل ثبت أنها من أكثر الخيارات فعالية. وقد تسهم الدولة في ذلك، إذ يجب أن تكون هناك مدخرات من هذه البرامج لو اقتطعت فترات البطالة.<sup>(١)</sup> ونسبة عالية من العاملين ومنهم الأعداد المتزايدة من النساء يريدون أن يبدعوا مشروعاتهم الخاصة. وهناك بعض النتائج المشجعة للبرامج التجريبية. وجرى تطبيق اثنين من هذه البرامج في واشنطن العاصمة وفى ولاية ماستشوستس بالولايات المتحدة. وكان احتمال بدء مشروع خاص فى غضون ثمانية عشر شهراً بعد التدريب بين من شاركوا فى البرنامج ضعف نظيره عند غيرهم. وزادت عوائدهم بمقدار ٧٥٠٠ دولار. ووضعت برامج أخرى لإتاحة الفرصة لمن يريد أن يجمع بين البدء فى مشروعه الخاص وفرصة عمل لبعض الوقت.

وبرامج التعليم المرنة قد تعين العمال على اجتياز عقبات المهارة فى مشروعاتهم، كما قد تعينهم بالتدريب الاستباقي. واستحدثت إدارة كلينتون انتماناً

---

(1) Gene Sperling, *The Pro-Growth Progressive: An Economic Strategy for Shared Prosperity*. New York: Simon & Schuster, 2005, pp. 77-82.

للتعلم مدى الحياة يمكن من خلاله أن يحصل العمال على انتمان بنسبة ٢٠ بالمئة لتكاليف تصل إلى عشرة آلاف دولار في السنة للتعليم وإعادة التأهيل وهم لا يزالون في أعمالهم. ولعل هذه النسبة كان يجب أن تكون أكبر حتى يحقق هذا البرنامج الغرض المرجو منه.

يجب إتاحة فرصة دخول شبكة الإنترنت بسرعة عالية وتوفير برامج التدريب للمناطق الفقيرة من الاتحاد الأوربي. وتكاليف العمالة تنخفض في إنتاج بعض أنواع المنتجات؛ فتكاليف العمالة في إنتاج حاسوب مثلاً لا تزيد عن ٢ بالمئة من إجمالي تكاليف الإنتاج. ويجب تمكين المناطق الفقيرة من أوروبا من المنافسة الفعالة مع المناطق المنخفضة التكاليف في الخارج إن توفرت المهارات اللازمة.

ويجب استخدام دعم الشركات باعتبارها أداة لاعتیاد تحمل المسؤولية في تسريح العمال. وليس هذا بموقف ساذج أو غير فعال. فهناك دائماً مجال للتفكير الإداري حتى في شركة تواجه مشكلات صعبة في تحقيق الربحية. ففي سنة ٢٠٠١ واجهت شركة طيران ساوثوست في الولايات المتحدة تدهوراً في العوائد على أثر إحجام الناس عن الطيران غداة ١١ سبتمبر. فلجأت الشركة لبعض إجراءات توفير التكاليف، ومنها استقطاعات في رواتب الموظفين الإداريين وتحملت الأزمة دون تسريح كثير من العمالة. وبعد سنة واحدة عادت الشركة لتحقيق أرباح.<sup>(١)</sup>

هل هناك دور لفرض الحماية عندما يتهدد العمال خطر التسريح للزيادة عن الحاجة؟ الإجابة عن السؤال يجب أن تكون بالسلب لو كان المصطلح يشير إلى دعم شركات تقادمت تقنياً أو أصبحت غير اقتصادية أو غير تنافسية. وهناك بضعة

---

(١) المرجع نفسه، ص ٨٨.

أمثلة لشركات نجحت في تحمل عاصفة اقتصادية عادت بعدها للربحية. إلا أن هذه تعد الاستثناء لا القاعدة؛ فهناك حالات أكثر لشركات أنفقت شكلها لتتهار بعد ذلك بقليل بنتائج أسوأ على العاملين فيها لو لم يتم "الإنقاذ". وأى نوع من الحماية تقدمه الدولة لشركة لا بد أن يكون مؤقتاً ويجب توجيهه لإعادة التأهيل والمساعدة في البحث عن فرص عمل جديدة.

وإصلاح الخدمات العامة لزيادة الاستجابة لاحتياجات العملاء يجب أن يصاحب معظم النقاط الأخرى المشار إليها آنفاً. ويجب أن يكون الهدف تمكين متلقي الرعاية الاجتماعية من تحمل المسؤولية في الاختيارات بدلاً من الاستجابة للحاجة بطريقة بيروقراطية. وفي التعليم والرعاية الصحية يجب ألا يفتح اختيار الخيارات البديلة للمقتردين وأقل كثيراً لمن يتجهون للقطاع الخاص. ومع ذلك فمن المهم توفير حوافز كافية لإقناع الفئات القادرة بالاستفادة من الخدمات العامة بحيث يظل لديهم بعض الالتزام حيالها.

وحين نتحدث عن الفوارق الاقتصادية علينا ألا ننسى ما يحدث في القمة وإن كانت نسبة من فيها ضئيلة إذا قورنت بنظيرتها في أغلب البلدان التي تعيش في فقر. فنسبة الدخل التي يتحصل عليها الواحد بالمئة من المتكسبين زادت في أغلب بلدان الاتحاد الأوربي في الثلاثين سنة الأخيرة، ما يعد قلباً لاتجاه استقر لعقود عدة قبلها. (لكننا لا نعلم الكثير عن التوزيع حسب الأسر). فتوزيع الثروة في كل مكان أكثر تفاوتاً من توزيع الدخل، وإن كانت هناك فروق شاسعة في بلدان الاتحاد الأوربي واختلافات عن الولايات المتحدة. تستحوذ نسبة الواحد بالمئة في قمة السكان على نحو ٢٥ بالمئة من إجمالي الثروة في كل من فرنسا والدنمارك،

ولو أن هذه النسبة لا تزيد عن ١٥ بالمئة في السويد. وفي الولايات المتحدة تبلغ هذه النسبة ٣٥ بالمئة.

هل علينا أن نقلق من النسب غير المتناسبة من الثروة والدخل والتي تذهب للواحد بالمئة على القمة؟ فيما يتعلق بمساعدة الأكثر حرماناً فإن ما يجرى لدخول كبار المتكسبين لا يحدث فارقاً يذكر. ومهما جرى من إعادة توزيع من شديدي الثراء للفقراء لن يكون له أثر كبير، لأن أعداد من يعانون الفقر أكبر بكثير مما نتصور. وأغلب البلدان خفضت النسب العليا من ضريبة الدخل فيها على أصحاب الدخل الكبيرة، والتي زادت في بعض البلدان عن ٩٠ بالمئة. إلا أن الشواهد تثبت أنه على الرغم من هذا التحول أو بسببه زادت نسبة الدخل التي يؤديها أصحاب الدخل الكبيرة في الضرائب ولم تنخفض مقارنةً بتلك الفترة.

إن وضع الواحد بالمئة على القمة ينبغي أن يسبب القلق من ناحية التكافل والقدرة. فهل يقدر القائمون على الشركات الكبرى ما عليهم من مسؤوليات المواطنة؟ هل تتناسب دخولهم مع إسهاماتهم؟ هناك ما يدعو للقلق في هاتين المسألتين. فالتهرب الضريبي ودفع التحاشي الضريبي إلى أقصى حدوده هما المعيار اليوم أكثر مما كان عليه الحال من قبل. ويبدو ألا صلة تذكر بين دخول مديري الشركات والأداء الفعلي للشركات.

ما الذي يجب ويمكن فعله؟ على ضوء الطبيعة غير الثابتة لرأس المال فالحوافز قد تكون أفضل من العقوبات إلا حيثما أمكن تطبيق الأخيرة على مستوى دولي، كما في حالة التشريعات المناهضة للاحتكار. والإعفاء الضريبي للأعمال الخيرية من السياسات. في بعض دول الاتحاد الأوروبي - كالمملكة المتحدة - يقدم الأثرياء من دخولهم للأعمال الخيرية أو القضايا العامة نسبة أقل مما يقدمه الفقراء؛

والعكس صحيح في الولايات المتحدة. ودخول كبار المديرين الأمريكيين مرتفعة بصورة صادمة بالمعايير الأوروبية (وفي نظر كثير من الأمريكيين أيضاً). إلا أن بعض أصحاب الدخول الكبيرة يقتدون بأنندرو كارنيجي، ويتنازلون عن معظم ثرواتهم في حياتهم. فببرع بيل جايتس لبرامج مكافحة الإيدز في أفريقيا بأكثر مما تبرعت به أية دولة (بما فيها بلده).

إن الفوارق في الثروة أكبر من الفوارق في الدخل، وهنا ينبغي التفكير في عمل شيء. فالثروة قد تنتقل من جيل لآخر على خلاف الدخل ما لم يكن مستمداً من الثروة. والآلية الواضحة لسياسات المساواة هي ضريبة التراكات. وتحركت بعض بلدان "منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية" (OECD) من أجل إلغاء ضريبة التراكات، إلا أن جعلها أكثر تقدمية قد يكون أفضل للعدل الاجتماعي. والسبيل إلى ذلك وقف الإعفاءات الضريبية كإعفاء على الهدايا. فمن الممكن بل لا بد من وضع قيود تقدمية على ضريبة التراكات ورفعها حيثما وجدت.

واقترحت هذه الخطوة في المملكة المتحدة مثلاً. ونفرض حالياً نسبة ٤٠ بالمئة على كل جنيه من الإرث أكثر من ٢٦٣ ألف جنيه. وهو نظام تقدمي لأنه يعني أن أية شركة تعادل ثلاثمئة ألف جنيه لا تزيد الضريبة المفروضة عليها عن ٥ بالمئة؛ والتركة التي تبلغ قيمتها مليون جنيه تصل ضريبتها إلى ٢٩ بالمئة. ومع ذلك فعلى الرغم من رفع الفوارق في الثروة فإن إجمالي ما يحصل للضرائب من قيمة التراكات في كل سنة لا يتعدى ٦ بالمئة. وفرض قيود أكثر تقدمية من شأنه أن يرفع إجمالي العائد ويوجد محصلة إجمالية أكثر عدلاً. ويرى أصحاب الاقتراح أن الزيادة الناتجة من المال يمكن إنفاقها على صندوق ائتماني للأطفال أو لرعاية طويلة الأجل للمسنين الضعفاء.<sup>(١)</sup>

---

(1) Dominic Maxwell, Fair Dues. London: IPPR, 2004.

## أسواق العمل التحولية

أيا كان ما يحدث للأثرياء فمن المؤكد أن حياة معظم الناس تتأثر بشكل مباشر بتوقعاتهم من أعمالهم. فالعلاقة بين العمل والبطالة ازدادت تعقيدا. وتبرز قدرة المرء على الاستفادة من التحولات بدلاً من أن تكسره، سواء أكانت بطالة أو نوبة فقر أو تجربة طلاق أو إصابة بعجز. ومن ناحية السياسات الاجتماعية فإن هذه الاعتبارات توحى بتغييرات جوهرية في الطريقة التي ينبغي أن ننظر بها إلى أسواق العمل.

كان تعريف التوظيف في عقد العمل النموذجي قديماً أنه حيازة فرصة عمل في فترة بعينها. إلا أننا قد نشرع في رؤية العمل بطريقة مختلفة تماماً - باعتباره حالة مؤقتة أو تعبيراً راهناً عن صلاحية طويلة الأجل للعمل. وهدف سياسات سوق العمل يجب أن يكون دعم التحولات الإيجابية للسوق بناءً على دعم القدرة على العمل والحد من فرص التدرج إلى عمالة غير مستقر.<sup>(1)</sup>

ومن ناحية السياسات الاجتماعية علينا أن نتعلم التركيز على مسار الحياة وعلى التحولات التي يمر بها الناس وأن نتعامل معها. فالتحولات أصبحت أكثر "انفتاحاً" وأقل توقّعاً مما كانت. ومفهوم العمالة الدائمة كما صاغه بيفيريدج في الأربعينيات تقادم. فإيجاد فرص عمل للجميع بنموذج الذكر رأس العائلة (آنذاك) الذي يعمل لفترة محددة كل أسبوع لمعظم سنوات عمره لا معنى له اليوم. فلا بد أن يكون للعمل غير المتفرغ دور مهم، ولا بد من أن تتسم الحدود بين العمل المدفوع الأجر والأنشطة الموجهة لسائر أهداف الحياة بقدر كبير من السيولة.

---

(1) Bernard Gazier and Günther Schmid, 'The dynamics of full employment', in Schmid and Gazier (eds.), *The Dynamics of Full Employment: Social Integration through Transitional Labour Markets*. Cheltenham: Edward Elgar Publishing, 2002. p. 6.

للعلاقة بين الجنسين أهمية خاصة فى هذا الصدد. فكان الرجل فيما مضى يتبع نمطاً ثابتاً فى العمل بساعات ثابتة فى أعمال تمتد على مدى فترة طويلة الأجل. وكانت أنماط عمل المرأة على النقيض من ذلك، فكانت تؤدي أعمالاً ثانوية غير ثابتة، ولم تكن فرص عملها موحدة بأى حال. لا شك أن انكسار هذا التعارض الآن يعتبر تطوراً تقدمياً، ولكنه يعنى أن علينا أن نتبع سبلاً جديدة فى التفكير فى السياسات. ومما يذكر أن فرنسا وألمانيا وإيطاليا لا تزال أقرب إلى التوزيع التقليدى للعمل والقائم على الجنس منها إلى النمط المتبع فى المملكة المتحدة أو هولنده أو بلدان الشمال. وما من بلد اقترب حتى الآن مما قد يعتبره المرء نموذجاً يحتذى سواء فى المساواة بين الجنسين أو المرونة الدائمة - وضع تقرب فيه فرص عمل كل من الرجل والمرأة- على مدى العمر من ثلاثين ساعة فى الأسبوع مثلاً.<sup>(1)</sup>

نظراً للتركيز الحالى على العولمة فإن تحليلات الطبيعة المتغيرة لأسواق العمل تميل للتوكيد على الصدمات الخارجية باعتبارها مصدر مواقف الحياة المتقطعة. ولكن بحذى التوكيدات السابقة فى هذه الدراسة لا بد من الإشارة إلى أن أغلب التحولات تنشأ محلياً وإن قل منها ما لا يتأثر بالعولمة. ومن هذه التحولات تغيير أنماط الذوق بما يقضى على منتج أو سوق، وضعف الإدارة من جانب صاحب العمل وما إلى ذلك، لكنها تشمل عوامل عديدة أيضاً (سلبية وإيجابية) من جانب العامل. ومن الأمثلة المشكلات الصحية أو تغير العلاقة أو أخذ عطلة مؤقتة لإعادة التدريب. ومن يعملون فى وظائف قاسية قد يعانون استفاد الطاقة أو قد يغيرون مهنتهم بعد فترة من الوقت.

---

(1) Günther Schmid, 'Towards a new employment contract', in Schmid and Gazier (eds.), *The Dynamics of Full Employment: Social Integration through Transitional Labour Markets*. Cheltenham: Edward Elgar Publishing, 2002.



والعوامل الإيجابية متعددة أيضاً. فقد يقرر أحد الناس قبول فرصة عمل قاسية في قليل أو كثير في وقت ما من حياته. وكثير ممن يلزمون أنفسهم بـ "أعمال قاسية" يخططون للتوقف في فترة مبكرة من أعمارهم. فهناك على سبيل المثال نسبة عالية من العاملين في وظائف مالية يخططون لتغيير مهنتهم في حوالي الأربعين، وكثير منهم يقدمون على ذلك فعلاً. ومن التأثيرات الإيجابية الأخرى إنجاب طفل أو اتخاذ قرار بإكمال الدراسة أو استعادة الصحة بعد فترة مرض أو اكتشاف المعوق إمكانية أن يؤدي عملاً مجزياً.

تختلف نوبات البطالة الناتجة "داخلياً" أو الانتقال لعمل غير متفرغ عن المصادر الداخلية للبطالة الناجمة عن الحركة الدائرية للاقتصاد أو التحول التقني. وحتى حين تتجم عن صدمات سلبية فقد تدفع لتحولات إيجابية في الحياة وتؤدي إلى رواتب أعلى أو وظائف أكثر إرضاء للذات. ولكنها قد تمثل بداية انحدار. فإذا فقد كبار السن وظائفهم فقد يجدون أنفسهم بلا عمل بقية أعمارهم. وللتعامل مع هذه المسائل نحتاج لسياسة الفرص الثانية، أي إعطاء فرص للبدء من جديد عقب انتكاسات. سواء في العمل أو الأسرة أو سائر المجالات.

ومن المشكلات الأساسية كيفية تحقيق تحولات إيجابية للعاملين في وظائف من نوعية "مكدونالدز". فنصف هذه الوظائف في بلدان الاتحاد الأوروبي الخمسة عشر الأساسية يشغلها شباب (تحت سن الخامسة والعشرين) وكبار سن (فوق الستين). وليس ثم ما يمنع أن تعمل نسبة عالية من كبار السن في هذه الوظائف. والمانع اجتماعي خالص، ويتمثل في مقاومة من القائمين على هذه الأعمال كالمقاهي وروادها. وهناك أمل في التغلب على مثل هذه الصور من التحامل في المستقبل مع اتجاه السكان أنفسهم نحو الشيخوخة وتراجع التحيز ضد كبار السن.

هناك نسبة من الشباب من العاملين فى وظائف من نوعية "مكدونالدز" نزلت أسواق العمل الانتقالية، حيث يعملون مؤقتًا قبل أن يلتحقوا بمرحلة تعليمية أعلى أو يستقطعوا وقتًا للسفر قبل الالتحاق بعمل جديد. وهناك عدد كبير من الشباب من العاملين فى فنادق ومطاعم ومقاهٍ فى لندن مثلاً يمرون بوضع انتقالي، لتعلم الإنجليزية أو التعرف على المدينة أو ربما للتدرب المهني فى مجال الصناعات الخدمية.

وهناك نسبة أخرى - أغلبها من النساء - تتألف من عمال ثانويين لدى أسر عاملة. وفرص ترقّيهم فى أعمالهم ضعيفة وإن كانوا لا يعملون بالضرورة لدى أسر فقيرة. ومن أمثلة هؤلاء عمال التوصيل فى محلات البقالة الكبرى وعمال النظافة وعمال الحوانيت. فهل علينا أن نقلق على هؤلاء مع العلم بأن كثيرًا منهم يرغبون فى العمل لجزء من الوقت وفى أعمال خفيفة؟ نعم، لأن فرص التقدم لو سحبت لهم فقد يرغبون فى انتهازها. كما أن أقربهم لاحتمال السقوط فى دائرة الفقر أغلبهم نسوة يغلن أسراً لا يعمل فيها غيرهن أو يعمل أزواجهن فى مهن محدودة الأجر أيضاً. وتبين الإحصاءات أن نسبة من تتاح لهم نقلة مباشرة من الأعمال المتواضعة إلى أعمال أكثر استقراراً وقيمة تعد ضئيلة بصورة تدعو للقلق.

## الانتقال

ما السياسات التى يمكن اتباعها فى التعامل مع احتمالات أسواق العمل بعد الصناعية ومشكلاتها، لا سيما الوقائية منها لا من مجموعة شبكة الأمان؟ يطرح غونتر شميد عدداً من المقاربات. فعلىنا أن نتبع سياسات:

• تبقى على مستوى الدخل أو ترفعه في أثناء التنقل بين التعليم أو التدريب، أو إعادة التعليم أو إعادة التأهيل.

• توفر دخلاً آمناً في أثناء الانتقالات المهمة بين العمل غير المتفرغ والعمل المتفرغ وبين العمل بعقد والعمل الحر (أو العكس).

• توفر دخلاً داعماً في مراحل من العمر ينخفض فيها الدخل نتيجة التزامات اجتماعية كإعارة الأطفال أو غيرها من مهام الرعاية التي تستهلك كثيراً من وقت الفرد.

• توفر استمراراً للدخل في فترات الانتقال بين العمل والبطالة.

• توفر بديلاً للدخل حين ينخفض الدخل أو ينعدم نتيجة إعاقة أو غيرها من الأسباب التي تحول دون القدرة على العمل بأجر. ولتأمين نسبة أعلى من العاملين من كبار السن في القوة العاملة فإن التقاعد باعتباره مؤهلاً لاستبدال الدخل يجب أن يكون محدوداً قدر الإمكان بمزيج من الحوافز والعقوبات.<sup>(١)</sup>

ونضيف إلى ذلك:

• استحداث برامج تدريبية يمكن أن تفيد العاملين في الأعمال الخدمية المنخفضة المستوى ممن يرغبون في الانتقال لمهن أعلى مهارة. وينبغي تقديم الحوافز لأصحاب الأعمال لبناء أدرج وظيفية من الأعمال المتدنية إلى درجات وظيفية أعلى.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٩٤-٣٩٨.

ولإيضاح هذه السياسات المقترحة قد نبدأ بالتفكير فى نظم 'التأمين على العمل' أو التأمين على الأجور بدلاً من نظم التأمين ضد البطالة القائم حالياً.<sup>(1)</sup> وهو توجه يتسق مع ضغط على العمل الكامل باعتباره تصوراً ثابتاً. وإعانات البطالة حتى فى ظل ظروف سوق العمل النشطة لا تمنح إلا عندما يفقد الفرد عمله. والتأمين على العمل يستهدف هذه الظروف وكذلك الجانب الإيجابى من أسواق العمل الانتقالية. ومن المزايا الأساسية للتأمين على العمل حث الناس على مجازفات قد تعود بنتائج إيجابية، كاستقطاع بعض الوقت لتحسين القدرة على العمل من خلال عمل ترتيبات للتعليم الدائم أو إجراء تغييرات ترجئى التقاعد.

والظروف التى توازن الاستقلالية والعدل الاجتماعى والحيوية الاقتصادية فى الاقتصاد المعرفى/الخدمى بعيدة كل البعد عن أسواق العمل المحررة من القيود. وهى تشمل فى أحسن الظروف التنسيق التام بين الشركاء الاجتماعيين - أصحاب العمل والنقابات - والحكومة. والسياسات المتاحة لها أنواع مختلفة عدة؛ ومنها ما هو مطبق بالفعل إلى حد ما فى بعض البلدان. ومن الأطروحات استخدام الإيصالات للتدريب فى أثناء العمل باعتباره جزءاً من حزمة تشمل قبول أجور مبدئية أقل؛ و "شركات عمالة" تنشئ شبكات محلية تعمل عندما يسرح عدد كبير من العاملين، كما تساعد المتعطلين لفترات طويلة. وتجرب مثل هذه الأفكار جارٍ فى هولنده وبلجيكا والنمسا وبلدان أخرى. وفى هولنده مثلاً هناك هيئة تطوعية تسمى "ستارت" تستخدم مؤقتاً من لا يستطيعون دخول سوق العمل بالسبل التقليدية وتعييرهم لأصحاب الأعمال الخاصة حتى يكتسبوا خبرة عملية أو توفر لهم التدريب إن لم يقبلهم أصحاب الأعمال.

---

(1) Erik de Gier and Axel van den Berg, Making Transitions Pay! Amsterdam School for Social Science Research, June 2005.

وتوفر مؤسسات العمالة التي أنشئت في النمسا إمكانات مهمة. وهدفها توفير شبكة من الموارد للعمال الزائدين عن الحاجة حتى لا يضطروا للتعامل مع التحول إلى عمل جديد وحدهم. وتعد مؤسسات العمالة مثلاً طيباً للشاركة الاجتماعية. فعندما تستغنى شركة ما عن عدد كبير من العمالة الزائدة فإن العمال الذين يبقون فيها يسددون ٠,٢٥ بالمئة من أجورهم إسهاماً في المؤسسة، في بادرة تضامن مع زملائهم السابقين. وتقدم الشركة نفسها مساهمة مالية أكبر. وهناك مزيد من المساهمات يسدها العمال الزائدون عن الحاجة أنفسهم حيث يقدمون أكثر من ٥٠ بالمئة من رواتب عمالتهم الزائدة للمؤسسة. وأخيراً فالدولة تضمن سداد إعانات البطالة بحد أقصى أربع سنوات بما يغطي معظم التكاليف. ويبدو أن التجربة نجحت. إذ أثبتت المقارنة بين من شاركوا وغيرهم ممن لم يشاركوا أن نسبة عالية من الفئة الأولى وجدت عملاً في فترة زمنية أقصر نسبياً.<sup>(١)</sup>

والانتقال إلى نظام تأمين على العمل على النحو المذكور لن يكون بالضرورة أكثر كلفة من البرامج المجزأة القائمة حالياً في أغلب الدول. فالتجارب من النوعية المشار إليها توفى بتكاليفها وأكثر لو احتسبنا ما يعود على الاقتصاد من فائدة كلية.

حققت سياسة سوق العمل النشطة نجاحاً، بل إنها تمثل عنصراً حيوياً في السياسة المتبعة في البلدان التي خفضت نسبة البطالة وحققت معدل تشغيل عمالة مرتفعاً. ولكن بحدى هذه التوكيدات ينبغي أن يكون ثم تحول نحو تنشيط سياسة سوق العمل، وهو مفهوم أشمل. وأغلب برامج سوق العمل النشطة حالياً لا تعمل إلا عندما يكون الفرد عاطلاً عن العمل بالفعل لفترة ما. ولو حظ أن «هذا يشبه

---

(1) Schmid, 'Towards a new employment contract', pp. 417-18.

الدفع بالعاطل في الطرف العميق من البركة والانتظار لرؤية ما إذا كان سيفلح في النجاة دون عون بدلاً من سؤالهم قبلها عما إذا كانوا يستطيعون العوم وإلى أى مدى». (١) ويستحسن عمل تقدير فوري لخطر البطالة المتوسطة أو الطويلة الأجل. وسياسة سوق العمل النشطة تغطي في العادة تكاليف إعادة التدريب. لكن هذا النظام لا يشتمل على حوافز ذاتية تضمن كفاءة مكتب التوظيف؛ والأجدى أن يكون هناك تمويل مشترك كما في مؤسسات العمالة المشار إليها.

في عقد العمل التقليدي تركز أدوار الشركاء الاجتماعيين في المقام الأول على التفاوض حول الأجور وظروف العمل. وفي تنشيط سياسات سوق العمل تتركز المساومة بالقدر نفسه في ترتيبات وقت العمل بما في ذلك الفترات التي يمكن فيها ربط العمل بالالتزامات الأسرية أو فترات التدريب. والتكاليف الإضافية على العاملين وأصحاب العمل على السواء. وعلى الشركات أيضاً عمل برامج موارد بشرية بغرض تعزيز مرونتهم وقدرتهم على التنافس إلى جانب تلبية احتياجات العمال قدر الإمكان. وفي التخطيط التقليدي لإعانات البطالة تحصل الدولة كل تكاليف استثمار رأس المال البشري. لكن الأجدى أن تقدم حوافز للشركات نفسها لكي تشارك في هذا الدور لأن بإمكانها أن تتوافق مع مصالحهم الاقتصادية في الاقتصاد المعرفي/الخدمي. واستحدثت بعض برامج سوق العمل الجديدة من هذا النوع في فنلنده، وإن كانت لا تزال هامشية حتى الآن. ومن الأمثلة ما يتعلق بنظم تناوب فرص العمل ونظم التشاور في حالة إعادة هيكلة الشركة أو التجارة.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٢٧.

وكسياسات سوق العمل النشطة يشتمل تنشيط سياسات سوق العمل على التزامات وحقوق لكل من يشملهم. ومن التزامات العاطلين حالياً مطلب التحاقهم بدورات تدريبية وقبول فرص العمل المعروضة عليهم. لكن مسؤوليات متلقى الإعانات قد تتسع. فقد يلزمون مثلاً بالإسهام فى صناديق استثمار الأجور.

### مربع ٣-١ المساواة الجديدة

١. تتعلق بالعدل الاجتماعى والحيوية الاقتصادية. ونحن نعلم أن الأمرين قد يتواءما وإن كانت هناك بعض التناقضات.
٢. تشمل آليات التوزيع التقليدية سارية ولكن يشكل معسل. فالضريبة التصاعدية مثلاً لا تزال مهمة ولكنها تتغير حين تتعارض مع الاحتياجات الاقتصادية ويحتاج فرص العمل.
٣. بعض التوجهات فى رسم السياسات ينبغي أن توجه نحو التثراء والمهمشين. ولكن لابد أن نهم بالتحولات. ولا سيما أسواق العمل التحولية.
٤. السياسات التى تقيد القنات القادرة مهمة لو دعمت الالتزام بنظام التكافل الاجتماعى.
٥. السياسات الخاصة بالجنسين لها أهميتها الواضحة لتحسين الوضع الاقتصادى للمرأة ومساعدة الرجل من القنات الضعيفة.
٦. التركيز على تنشيط إستراتيجيات سوق العمل.
٧. المستويات العليا من المواطنة الاجتماعية والاقتصادية المطلوبة من كبار العاملين.
٨. الحد من قدر الأعفان يحتل مكانة محورية خاصة.

### الأطفال والطفولة وفقر الأطفال

فى ختام هذا الفصل نعود إلى مسألة الأطفال. فالقضايا الاقتصادية فيها تتداخل مع قضايا اجتماعية أعم. ففى المجتمعات بعد الصناعية يعيش الناس حقبة

"الطفل الثمين". فقرار إنجاب طفل يعد برمته قراراً عاطفياً شديداً خصوصية والتميز. فالطفل لم يعد ينجب بشكل عرضي إلا فيما ندر. فالأبوة والأمومة تغيرتا تغيراً جذرياً بينما لا تزال الطفولة نفسها في تطور. والطفولة قد لا تكون "اختفت" كما يرى البعض، لكن الأطفال يتعرضون لعالم الكبار في مرحلة أسبق مما كانوا يتعرضون له قبل جيل مضى بسبب وجود الإعلام في كل مكان.<sup>(1)</sup>

لعل فقر الأطفال أبشع أشكال الفقر، وله أبشع العواقب. لكنه أصبح الآن يمتد إلى أشكال من الحرمان أدق وأصعب أيضاً. ولا نعلم أية آثار ستترتب على نشأة بعض الأطفال على الدخول اليومي إلى شبكة الإنترنت وتنوع وسائل الإعلام بينما لا ينشأ غيرهم على ذلك. فمن المحتمل أن يؤثر "إنضاج" الطفولة على الأطفال ممن يعيشون في أوساط فقيرة بصورة أكثر سلبية من غيرهم ممن يعيشون في أوضاع أفضل. فهناك ما يدل مثلاً على أن عصابات الشوارع -حتى العنيفة- منها تتكون من أطفال في سن صغيرة تؤخذ القدوة فيها من التلفزيون مباشرة. وهي فروق تزخر بالإسقاطات على التعليم والتجربة التعليمية.

في حقبة "الطفل الثمين" يدرك الآباء (أو ينبغي أن يدركوا) أن المسؤولية عن الأطفال تمتد لعشرين سنة أو يزيد، وترتبط ضمناً بوجود دخل آمن. ومرونة ظروف العمل حين يكون الأطفال صغاراً لا تحل تلك المشكلة. ولسياسات أسواق العمل التحولية دور أساسي في هذا الصدد. فبالنسبة لكثير من الأسر في أوروبا لا بد من وجود دخلين للبقاء فوق خط الفقر لا في البداية وحسب، بل على المدى الطويل أيضاً. ووجود السكن المناسب يمثل عاملاً بالغ الأهمية لا سيما في ضوء ارتفاع أثمان العقارات في بقاع عديدة من أوروبا.

---

(1) Neil Postman, The Disappearance of Childhood. London: Vintage, 1994.



إن سياسات الاستثمار في الأطفال لا بد أن ترتبط ارتباطاً دقيقاً بمسائل المساواة بين الجنسين، وبالتالي فهي تهم الرجل والمرأة على السواء. وعلى الرغم من المصاعب التي أشرنا إليها من قبل فالسياسات التي تركز على المزيد من المساواة في توزيع العمل المنزلي قد يكون لها بعض الأثر. فنتيجة لمبادرات كهذه في هولنده مثلاً ارتفعت نسبة الرجال الذين يعملون جزءاً من الوقت إلى ٢٣ بالمئة في مقابل المتوسط الذي لا يتجاوز ٧ بالمئة في بلدان الاتحاد الأوربي الأساسية الخمسة عشر.

والعديد من بلدان الاتحاد الأوربي بعيدة حالياً كل البعد عن تحقيق أهداف برشلونة في مجال رعاية الطفل. فعدم توافر الأماكن الملائمة يمثل مشكلة كبرى، لكن التصميم أيضاً مشكلة كما ترى جاين جنسن.<sup>(١)</sup> من ثم فإن أهداف برشلونة تتحقق في بعض الحالات بإنشاء أماكن للحضانات. وبما أن هذه الحضانات لجزء من الوقت فإن الآباء يضطرون للبحث عن مصادر أخرى لرعاية الطفل لبقية اليوم والأسبوع. وإذا كانت الأمهات يتركن لأعمال مدفوعة الأجر فإن هذا لا يكون إلا لبضع ساعات ولا يعود إلا بدخل لا يذكر.

اتضح بعض سبل التقدم في السنوات الأخيرة. فخفض فقر الأطفال لا يعنى التركيز على الأطفال أنفسهم، بل على الأسر. وبالتالي فالأسر هي المعرضة للخطر لا الأطفال. والأسر التي لا يعمل فيها أحد أكثر عرضة لفقر الأطفال، تليها الأسر التي بها عائل واحد. وملحقات الدخل المقصود بها دعم دخل الأسر ودفع المزيد من أفرادها إلى العمل أثبتت فعاليتها. ومن الأمثلة المهمة على ذلك استخدام الانتماء الضريبي في

---

(1) Jane Jensen, 'The European social model. Gender and generational equality', in Anthony Giddens, Patrick Diamond and Roger Liddle (eds.), *Global Europe, Social Europe*. Cambridge: Polity, 2006.

المملكة المتحدة - انتشل ما يقرب من سبعمئة وخمسين ألف طفل من الفقر في الفترة من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠٤.

ولتقديم العون للأسر ذات العائل الواحد أهمية في الحد من فقر الأطفال، ولكنه ليس حاسماً، ويبدو أن حصر الاهتمام من ناحية رسم السياسات في الأسر ذات العائل الواحد في السنوات الأخيرة في غير موضعه. فهناك دراسة أثبتت ذلك بحساب ما يحدث لو كانت كل الدول المتقدمة بها نسبة واحدة من الأسر ذات العائل الواحد. وأوضحت النتائج أن ترتيب الدول لا يتغير لو كان كل منها يضم أسرة من كل عشر أسر ذات عائل واحد، ما يؤكد استنتاج أن الأسر هي ما يهم.<sup>(١)</sup>

تأتي بلدان الشمال مرة أخرى في الصدارة في تدنى مستويات فقر الأطفال و "الإرث الاجتماعي" - تكافؤ فرص الحياة. وهناك الكثير مما يمكن لسائر البلدان أن تتعلمه. ففي السويد يقف فقر الأطفال عند مستوى ٢,٦ بالمئة: قبل الضرائب والتحويلات يصل المستوى إلى ٢٣ بالمئة. ويأتي الفارق كله من السياسات لا من إعادة التوزيع المباشرة للدخل. وأغلب هذه السياسات يمكن نسخها في بلدان ذات معدلات ضريبية كلية أقل من خلال نشر الحوافز الضريبية وإشراك القطاع الخاص وسائر الآليات. ويبدو أن رعاية الطفل الشاملة والفعالة تمثل العامل الأهم في ربط تدنى معدلات فقر الأطفال بتدنى معدلات الإرث الاجتماعي، ولو أن النتائج بالنسبة للمرأة مشكوك فيها إلى حد ما.

يؤثر القصور في المهارات وفي معرفة القراءة والكتابة في بعض بلدان الاتحاد الأوروبي في ٢٠-٣٠ بالمئة من السكان، وهو وضع ينذر بكارثة في عالم تكاد تتلاشى فيه فرص العمل اليدوى المتوسط المهارة والعديم المهارة. وتركز

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦٥.

السبل التقليدية لتحسين هذا الوضع على الإصلاحات المدرسية كتفادى التسرب المبكر واستحداث مدارس شاملة وفصول لتعليم القراءة والكتابة وما إلى ذلك من إستراتيجيات. لكن هناك المزيد مما يمكن تحقيقه بالتركيز على المناخ الأسرى. إذ تشير الشواهد إلى أن ما هو أهم من الفقر البحث في التأثير على النمو الإدراكي لدى الأطفال الموارد الثقافية للأسرة. فالثقافة والمال ليس بينهما ارتباط وثيق كما أثبتت إحدى الدراسات عن البيانات الدولية عن المدارس.

قارن البحث تأثيرات تعليم الآباء والدخل والمستوى الثقافى بالأداء الإدراكي لدى أطفالهم فى سن الخامسة عشرة.<sup>(1)</sup> ودخل الأسرة لا يشكل عاملاً تفسيرياً مهماً فى الفروق التى لوحظت، لكن الثقافة تشكل عاملاً كهذا، حيث قيس بمصادر المعلومات المتاحة وتكرار مناقشة المسائل الثقافية وارتياح الحفلات الموسيقية أو المسرح. يبدأ الأطفال من ذوى الموارد المعرفية الشحيحة بإعاقه تتضخم فيما بعد، بسبب البيئة المدرسية فى بعض الحالات.

لا بد من جعل خفض معدلات فقر الأطفال هدفاً رئيساً فى (أغلب) بلدان الاتحاد الأوروبى، وكذلك رفع معدل المواليد. لا يقتصر انخفاض معدل المواليد على الاتحاد الأوروبى؛ فمعدل المواليد فى سنغافورة والبالغ ١.١ بالمئة هو الأقل فى العالم. وشيلي التى تعد أكثر اقتصادات أمريكا اللاتينية تقدماً يبلغ معدل المواليد فيها ١.٧ بالمئة. وعلى أى فالاتحاد الأوروبى يضم عدداً كبيراً من السكان وأصبح الأمر فيه أهم كثيراً.

هناك فجوة بين عدد الأطفال الذى يقول الناس إنهم يريدونه والعدد الذى ينجبونه فعلاً. ومن العوامل فى هذا الصدد غياب دعم الدولة لرعاية الطفل.

---

(1) Esping-Andersen, 'Inequality of incomes and opportunities', p. 33.

والبلدان التي ينخفض فيها معدل المواليد لأدنى حد في الاتحاد الأوروبي كإسبانيا وإيطاليا تقدم أقل دعم في هذه المجالات. والبلدان التي يرتفع فيها معدل المواليد كالدينمارك أو فرنسا تقدم خدمات رعاية طفل أفضل كثيراً. لكن هذا التفسير ليس إلا جزءاً من القصة. فجزء مما يحدث ناجم عن انخفاض تعداد من لديهم أطفال أكثر مما كانوا يريدون، ذلك أن القدرة على تحاشي إنجاب فائض من الأطفال زادت عما مضى.<sup>(1)</sup>

لوسائل رعاية الطفل وأوقات العمل المرنة أهميتها. إلا أن الإحصاءات تبين أن الخوف من البطالة يأتي في مرتبة متقدمة للغاية على قائمة الأسباب التي يذكرها الناس لإنجابهم أطفالاً أقل مما يريدون. وفي حبة "الطفل الثمين" يعد إنجاب طفل وتربيته بصورة مناسبة عملاً مكلفاً. وآباء المستقبل قلقون من إنجاب طفل في حين أن مستقبلهم الاقتصادي هم أنفسهم يبدو أقل من ودي. وهو استدلال في غاية الأهمية، لأنه يبين مدى ارتباط مستقبل أوروبا السكاني بإصلاح النموذج الاجتماعي بشكل أعم.

يرتبط مستقبل النموذج الاجتماعي الأوروبي بالاستثمار الناجح في الأطفال، لأسباب اقتصادية وأسباب تتعلق بالعدل الاجتماعي. ولكن لا جدوى من التركيز على الأطفال على حساب نتائج السياسات على العلاقة بين الجنسين. وهناك بعض الحلول الوسط الممكنة. فساعات العمل المرنة للمرأة مثلاً تسمح بقدر من التوازن بين مسؤوليات الأسرة والعمل إلا أنها قد تجبر الكثيرين فيما بعد على البقاء في فرص عمل ضعيفة الأجر وضعف فرص الانتقال إلى عمل متفرغ. والمرأة التي

---

(1) Jenson, 'The European social model', p. 159.

تعمل لدى أمهات مقدرات لرعاية الأطفال منزلياً تتعرض لمصير مائل. وثم  
تدخل كبير بين هذه المسألة وقضايا الهجرة، حيث إن كثرة من هؤلاء النسوة  
ينتمين لأقليات عرقية. وسنتناول بعضاً من هذه القضايا في الفصل التالي الذي  
نركز فيه على إصلاح نظم الرعاية الاجتماعية.



## الفصل الرابع

### من الرعاية الاجتماعية السلبية إلى الرعاية الاجتماعية الإيجابية

لمناقشة إصلاح نظام الرعاية الاجتماعية قد نبدأ بفض الاشتباك بين "الرعاية الاجتماعية" و"الدولة". فدور الدولة في المجتمعات بعد الصناعية لم يعد مقصوراً على "توفير" الرعاية الاجتماعية. فعليها أن تلعب دوراً تنظيمياً أكبر ولكنه أكثر حرية. فمهمة الدولة أن تساعد على إيجاد مناخ عام فعال ومصلحة عامة ذات قيمة. وهي ليست العامل الأوحد في الموضوع. فالتوزيع الفعال للمنتجات الغذائية على الحوانيت وغيرها مثلاً مصلحة عامة، إلا أن دور الدولة لا يتعدى توفير الإطار التنظيمي العام له.

وفكرة "الخدمات العامة" لا بد من الحذر في التعامل معها. ذلك أن "الدولة" و"المناخ العام" أو "المصلحة العامة" ليسوا سواء. فالخدمات التي تقدمها الدولة قد تخلق الظروف المثلى لتحقيق المصلحة العامة، وقد لا تخلقها. قد تقتصر الدولة للكفاءة أو تفرط في البيروقراطية أو تغلب عليها مصالح المنتج أو تغالى في المركزية، وكل هذه سمات عرقلت توفير الرعاية الاجتماعية في "دولة الرفاه" فيما مضى.

و"الرفاه" أيضاً مصطلح غامض. يقدم معجم أوكسفورد الإنجليزى له معنيين أساسيين؛ أحدهما "العون الاقتصادى للمحتاجين"، والآخر أعم ويشير إلى "حالة السرور والصحة" أى "العافية". وكان المقصود بـ "دولة الرفاه" فى تصور

مؤسسيها منظومة ضمان أو إدارة مخاطر، وبالتالي كانوا يقصدون التعريف الأضيق للرعاية الاجتماعية. كان ويليام بيفيريدج مثلاً يرى في دولة الرفاه وسيلة للهجوم على "العمالة الخمسة" - الحاجة والمرض والجهل والفساد والكسل. إلا أن تعامله مع الرعاية الاجتماعية لا يقل تقدماً عن النظام الصناعي الذي نشأت فيه. والمجتمع بعد الصناعي يتسم بمستويات من الفردية أعلى، وبتنوع في نمط الحياة أكبر مما كان فيما مضى. وفي مجتمع كهذا لا معنى لأن تفكر في الدولة باعتبارها مجرد آلية ضمان، أو أن تنظر للرعاية الاجتماعية من منظور المخاطرة الاقتصادية وحدها.

علينا أن نبدأ في فهم "الرعاية الاجتماعية" باعتبارها "الصلاح" أو السعي الإيجابي لتحقيق أهداف الحياة. وقد نعتبر ذلك انتقالاً من إدارة وقائية للأخطار إلى صلاح إيجابي. وكل من سلبيات بيفيريدج يمكن استبدال إيجابية بها. فالحاجة نستبدل بها الاستقلالية أو الحرية الشخصية؛ لا نحاشى المرض، بل الصحة النشطة؛ وبدلاً من الجهل التعليم باعتباره جزءاً متواصلاً من الحياة؛ والثراء بديلاً عن الفساد؛ والمبادرة محل الكسل. وبعد تحويل هذه السلبيات الخمس إلى إيجابيات فهي تشكل نواة لأهداف الحياة الإيجابية وينبغي أن توجه إليها السياسات الاجتماعية. والأمريكيون كما تبين الاستطلاعات أكثر تفاؤلاً من الأوروبيين في المتوسط. فهل لهذا صلة بكون أهداف الحياة الإيجابية جزءاً أساسياً من دستورهم: الحياة والحرية والسعي إلى السعادة؟



كان نظام الرعاية الاجتماعية التقليدي يسعى لنقل المخاطرة من الفرد للدولة (انظر مربع ٤-١). وكان الأمن يعرّف بأنه خفض المخاطرة وكان يتخذ هدفاً أساسياً لدولة الرفاه جنباً إلى جنب مع السعى لزيادة العدل الاجتماعي. إلا أن هذه الرؤية مرة أخرى سلبية للغاية، لا سيما في عالم ينزع كثير من الناس فيه لاستكشاف فرص لأنماط حياة جديدة. وبدلاً من "دولة الرفاه" علينا أن نتحدث عن مجتمع "الرعاية الاجتماعية الإيجابية"، الذي تلعب الدولة فيه دوراً محورياً ولكنه غير مهيم. فالدولة في المقام الأول "استثمار اجتماعي" وهيئة "تنظيمية". ويتحدث كثيرون في السنوات الأخيرة عن الدولة باعتبارها قوة تمكين، ولكن يستحسن أن نتحدث عن "الدولة الضامنة" في مجتمع الرعاية الاجتماعية الإيجابية. فدولة التمكين تلجأ للاستثمار الاجتماعي كلما أمكن لمساعدتهم لكي يساعدوا أنفسهم. لكن هذا المفهوم يوحي بأن الناس يزودون بالموارد ثم يتركون وحدهم ليغرقوا أو يسبحوا. أما الدولة الضامنة فتسعى للتأثير على النتائج في المصلحة العامة أو لضمانها في بعض الحالات. وينطبق مبدأ الضمان على مجالات من قبيل الحد الأدنى للأجور أو ضمانات الدخل أو مزايا الأطفال أو أرضية للالتزامات رواتب التقاعد.

#### مربع ٤-١: دولة الرفاه التقليدية

١. السياسات "بعد الحدث" - لم تشتت الأشياء بعد الفشل. فدولة الرفاه في الأساس منظمة تأمين جماعي يقيم على فكرة شبكة أمان.
٢. بعيداً عن مجال التعليم والصحة لا تعتبر دولة الرفاه هيئة إنتاجية. وهذا التوجه يرجع في جزء منه إلى أن نشاط الحياة لا يعد مشكلة - فالسلوك وعديد من البنى (كأدوار الجنسانية) يتلها العرف.
٣. تهدف دولة الرفاه لزيادة التماسك ولكن من خلال المصالحة بين الطبقات. "المشكلة الاجتماعية هي مشكلة الصراع الطبقي وتتمركز حول الانقسام إلى طبقة للعمل اليدوي وشرائح طبقية رئيسية أخرى في المجتمع.
٤. تنشأ دولة الرفاه في الأساس من انشغال نطاق الحقوق. ويحدد ت. ه. مارشال ثلاث "طبقات" متتالية للحقوق: حقوق قانونية (كحق التعبير عن الرأي) والحقوق السياسية (حقوق عالمية) وحقوق اقتصادية (التأمين ضد البطالة وما إلى ذلك).
٥. مصاح المنتج تغلب على مصاح العملاء الذين يكون عليهم أن يأخذوا ما يقدم لهم". فعقلية "الطبيب يعرف أكثر" تسود في معظم المجالات. والمواطنون تتعرض فيهم السلبية باعتبارهم متلقين للخدمات.
٦. السياسات توجه نحو المشكلات الآتية وقت وقوعها في حياة الناس. لكن العمر الكلى يفترض أن يكون مستقراً ومتوقعاً. وتقوم رواتب التقاعد على هذه الافتراضات. وكذلك أغلب السياسات الأخرى.
٧. للتعليم مكانة مركزية. لكنه ينزك من منظور التعليم الإبتدائي والإعدادي والثانوي ومن منظور اعتداده إلى فئات وجمعت قيود على وصولها إليه.

كانت دولة الرفاه القديمة تعرف المزايا - وبصورة حصرية في بعض السياقات، من منظور الحقوق - الحق في فرصة عمل أو إعانة البطالة أو التعليم المجاني. لكن الحقوق في مجتمع أنماط الحياة الأكثر انفتاحاً تشمل التزامات أيضاً، التزامات لا بد من النص عليها أو إقرارها في القانون. وفي مناخ أسواق العمل

مثلاً ترتبط إعانات البطالة بحوافز وعقوبات لضمان الجد في البحث عن فرصة عمل.

لا بد من إعادة تعريف الرفاه من منظور الاستقلالية الشخصية وتقدير الذات. فهاتان القيمتان تكتسبان أهمية في مجتمع طموح ولكن تقترب فيه قضايا أنماط الحياة من السطح لأنها تشير إلى تغير سلوكي نشط. وتقدير الذات أو بالأحرى افتقاده ثبت أن له صلة بعدد من المشكلات الاجتماعية، منها الفقر والجريمة والصحة وغير ذلك. وتدنى تقدير الذات يحد من الاستقلالية ومن قدرة المرء على تحسين حياته؛ بل إنه قد يؤدي إلى إيذاء الذات أو العدوان على الغير. وكثير من السلوكيات التي تتمركز حول الإدمان ومنها اضطرابات الغذاء وإدمان الكحوليات بل بعض صور العنف الجنسي لها صلة بتقدير الذات وغياب الإحساس المستقر بالنفس.<sup>(١)</sup>

قد يبدو الحديث عن تقدير الذات غامضاً أو غير واقعي مقارنةً بالمفهوم الاقتصادي الضيق للرفاه. والحقيقة أن تقدير الذات في الاقتصاد المعرفي/الخدمي يرتبط فعلياً ببعض المسائل الشديدة الواقعية. ولنأخذ مثلاً أسواق العمل الانتقالية. ففي ظروف العمل التي تسود في الاقتصاد الجديد تكون لسوق العمل مداخل ومخارج مرنة حسب الفرص وتوازنات الحياة العملية وسبل تراكم خبرات العمل. وإذا نظرنا إلى أسواق عمل كئذه من زاوية إيجابية «تبشر بنهاية العمل التابع وخلاص الفرد من قيود الشركة وبداية نمط جديد من العمالة الذاتية».<sup>(٢)</sup> ولتحقيق هذه الاحتمالات ينبغي أن

---

(1) Anthony Giddens, *Modernity and Self-Identity*. Cambridge: Polity Press, 1991.

(2) Bernard Gazier and Günther Schmid, 'The dynamics of full employment', in Schmid and Gazier (eds.), *The Dynamics of Full Employment: Social Integration through Transitional Labour Markets*. Cheltenham: Edward Elgar Publishing, 2002, p. 6.

يعتمد الفرد على نفسه حتى يتمكن من التعامل مع التغيير بل التحكم فيه إن لزم الأمر.<sup>(١)</sup>

سنحاول في هذا الفصل ربط هذه الأفكار بتقويم واسع لدولة الرفاه ومستقبلها. فدولة الرفاه التقليدية في رأينا ولى زمانها إلى حد بعيد، أو على الأقل تحتاج لإعادة نظر عميقة. وسبق أن تناولنا بعض أسباب ذلك في الفصل السابق، لأن العدل الاجتماعي من الهموم الثابتة في أي منظومة رفاه. لكن هناك همومًا عديدة أخرى ينبغي العمل عليها، لا سيما ما يتصل منها بالتكافل الاجتماعي. وأهمها ما قد نطلق عليه المشكلة الاجتماعية للعصر، ألا وهي كيف لمجتمعاتنا أن تتعامل مع تنوعها الثقافي والعرقي المكتشف حديثًا. والتساؤلات في هذا المجال ملحة لدرجة أننا سنكرس لها النصف الثاني كله من هذا الفصل.

## مبدأ التدخل والفاعلية

التوجه الإيجابي للرعاية الاجتماعية ينبغي أن يكون "تدخلًا" أو وقائيًا لا علاجيًا. والتدخلية تعني السعي لمعالجة المشكلات من منبعها لا اتباع قالب دولة الرفاه التقليدية التي تغطي الأخطار ثم تلمم الأشلاء فيما بعد. فصورة شبكة الأمان صارت مضللة في وقتنا الراهن. وهناك تقارب هنا بين الدينامية الاقتصادية والعدل الاجتماعي. والاستثمار في رأس المال البشري بما يضمن أقصى قدر ممكن من التكافؤ في فرص الحياة في السنوات الأولى من العمر، والنهوض بمستوى المؤهلات التعليمية للمتعثرين حاليًا، كلها توجهات لسياسات يمكن أن تعمل على الارتقاء بالتنافسية الاقتصادية والمساواة الأكبر.

---

(٣) المرجع نفسه.

ومبدأ التدخل يتمشى مع الفاعلية. وللفاعلية معنيان. أحدهما خدمات الرعاية الاجتماعية، وينبغي أن توجه لمساعدة الناس أن يساعدوا أنفسهم. وعلينا أن نتعامل بجدية مع حقيقة أن دولة الرفاه تأتى فى بعض الحالات أو السياقات بنتائج عكسية على المواطنين أنفسهم ممن وجدت لمساعدتهم. فالإعانة قد تؤدى إلى التواكل. والاعتماد على الرعاية الاجتماعية الذى شرع النقاد فى جلد دولة الرفاه بسببه فى التسعينيات حقيقى، وإن بالغ البعض فى تضخيمه آنذاك.<sup>(١)</sup> ومرة أخرى قد يكون عنصر العدل الاجتماعى بسيطاً تماماً على الأقل لو رسمت السياسات بشكل ملائم. ولنأخذ العجز مثلاً. تعريف "العجز" نفسه يمكن أن يوجد التواكل أو السلبية لدى من ينطبق عليهم. وهذا سبب تغيير المصطلحات - وكان "المعوق" مصطلحاً أسوأ.

هناك كثير من العجزة يريدون أن يعملوا أو أن يعيشوا حياة أكثر عطاء مما يعيشون. ويرى أصحاب العجز الفعلى أن التقنية يمكن أن تساعد فى هذا المجال بالأطراف الصناعية مثلاً أو بالأجهزة التعويضية للنطق أو السمع. والزيادة الحالية فى أعداد من يصنفون ضمن العاجزين عن العمل تشمل أيضاً أعداداً كبيرة ممن لديهم حالات من العجز أقل تحديداً ومنهم من يعانون اكتئاباً نفسياً أو اختلالاً عقلياً. وتوافر الخدمات العلاجية من سبل مساعدة الناس على استعادة حياتهم. و"العجز" - إن كان يقصد به إحدى صور الإقصاء الاجتماعى وعدم القدرة على لعب دور كامل فى المجتمع - يتوقف إلى حد بعيد على مسلك من يعانيه، نظراً لتوافر الموارد لمساعدته. ولننظر ماذا فعل الممثل كريستوفر ريف حين فقد القدرة على

---

(١) انظر كتابات تشارلز موراي العديدة عن "الطبقة التحتية" ومنظومة الرفاه - ومنها  
Institute of Economic Affairs, Charles Murray and the Underclass, London: IEA, 1996.

تحريك جسده بل على النطق. فنرى مرة أخرى أهمية تقدير الذات في سياق كهذا. والتغلب على العجز لا يتعلق بالتقنية أو الموارد وحدها، وإن كان يمكن لها أن تساعد على إيجاد تقدير الذات، ما يساعد بدوره على إيجاد مزيد من الاستقلالية في التصرف.

اشتملت إصلاحات سوق العمل في الدنمارك في التسعينيات على استخدام "خطة عمل فردية". فيدخل العميل في حوار مع أحد الإخصائيين الاجتماعيين لبناء ملف لحياته وتطلعاته. والهدف الأمثل لخطة العمل الفردية تحقيق التوازن بين احتياجات الفرد واحتياجات سوق العمل.<sup>(١)</sup> وخطة العمل الفردية عقد يوافق الفرد فيه على التصرف بالصورة المنصوص عليها من حيث إعادة التدريب والبحث عن فرصة عمل؛ ولا بد من توفير الموارد لتحقيق هذه الأهداف. وعندما لا تتوفر فرصة العمل يكون هدف خطة العمل الفردية استقرار حياة الفرد والحيلولة دون حدوث عملية اغتراب وفقدان لتقدير الذات.

ومع أن للمنظومة نقادها فإن النتائج الكلية تبدو مشجعة. ومما يقال إن خطة العمل الفردية «تمكن العاطل من التصرف باعتباره مواطناً مسؤولاً، كما تدفع الأفراد العاطلين إلى حل مشكلاتهم».<sup>(٢)</sup> ومن النتائج المهمة دفع الأفراد للتفكير في مستقبلهم الوظيفي بصورة نشطة وطويلة المدى.

---

(1) Asmund W. Born and Per H. Jensen, 'Individualising citizenship', in J. G. Andersen et al., The Changing Face of Welfare. Bristol: Policy Press, 2005.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٢.

والمعنى الآخر "للفاعلية" الفاعلية الاجتماعية. فنحن نعلم من فشل برامج مكافحة الفقر التي لا تنتهى مثلاً أن تحويلات الدخل السلبية لها حدود، لا سيما عندما يواكب الفقر أشكالاً أخرى من الحرمان. فالفاعلية المحلية والمشاركة مهمان. ولا بد من أن يكون لهيئات المجتمع المدني دور محوري في تنفيذ برامج الرعاية الاجتماعية ووضعها. وينطبق هذا الاقتراح بقوة أكبر على حل قضايا الرعاية الاجتماعية التي تقتضى تحولاً في نمط الحياة.

مع ذلك لا يسعنا أن نضفي الشرعية على هيئات المجتمع المدني كلها. فالفاعلية والشرعية لا تقلان ضرورة هنا عن أى مكان آخر. ويمكن أن يكون للجمعيات الخيرية من الطراز القديم دور محدود على أحسن الفروض. ولا بد لجماعات القطاع الثالث والجمعيات الأهلية مهما كانت محلية أو شاملة أن تلبى معايير المسؤولية العامة، لأنها ليست منتخبة ولا تخضع لضغوط السوق كما تخضع أية شركة تجارية. ولا بد لهذه الكيانات أن تكون لها حسابات منشورة على الملأ وإدارة داخلية فعالة وصريحة واستعداد للعمل بشكل مباشر مع مجموعات متنوعة فى الحكومة والقطاع التطوعى والأعمال التجارية. فالروح الريادية لها فى الغالب دور حيوى ولا داعى لافتراض أنها تقتصر على الشركات التجارية. وينبغى للرواد الاجتماعيين ألا يقلوا يقظة ووعياً بالفرص الجديدة لتحقيق الأهداف الاجتماعية عن قادة الأعمال التجارية فيما يتعلق بتحقيق الأهداف الاقتصادية.

## مربع ٤-٢ مجتمع الرفاه بعد الصناعي

١. تقوم السياسات عى الرعاية الاجتماعية الوقائية والاستثمار فى رأس المال البشرى. ويظل مبدأ الأمان قائماً لكنه يندمج ضمن سياسات أكثر إنتاجية. وتنتج السياسات نحو قيم حياة إيجابية.
٢. يصبح تغيير نمط الحياة بؤرة اهتمام منظومة الرعاية الاجتماعية. ويتخذ الثواب والعقاب أداة للمساعدة على تحقيق نتائج إيجابية. ولا بد لأنه أن تصاغ من خلال آليات ديمقراطية تقليدية ويجب أن تجهز لحرريات جوهرية.
٣. منظومة الرعاية الاجتماعية مصممة لزيادة التكافل ولكن من خلال المساعدة على توفير التنوع الثقافى وتنوع أنماط الحياة مع التمسك الاجتماعى الكلى. والمشكلة الاجتماعية الأولى هى تحقيق هذا التوازن وضمان مشاركة الأقليات.
٤. تسير الحقوق جنباً إلى جنب مع الالتزامات أو المسؤوليات فى كل مجالات منظومة الرعاية الاجتماعية. ولكن ما أن تترسخ هذه الحقوق لا تؤخذ مأخذ التسليم. قد تحتاج لإصلاح. وهنا ما قد يتعرض للخطر (كحرية التعبير).
٥. يمكن عملاء منظومة الرعاية الاجتماعية عبر سلسلة من الآليات منها إتاحة المعلومات وتخصصة الخدمات والاختيار.
٦. توجه السياسات نحو المشكلات الانتقالية فى حياة الناس والتي يكون كثير منها غير متوقع ولكنها فى الغالب أيضاً قرارات متخذة عن وعى. وتهدف السياسات للاستقرار فى قدرات الناس ولها منظور طويل المدى كلما أمكن.
٧. التعليم العالى يصبح ذا أهمية اقتصادية واجتماعية كبرى وكذلك التعليم مدى الحياة.

لم يعد يمكن للسياسة الاجتماعية أن تقتصر على المجالات التى تنطبق عليها بشكل تقليدى حالياً. وفيما يتصل بمشكلات الدمج الثقافى مثلاً لا بد أن ترتبط بالمناقشات التى تتناول الحريات المدنية والنسبية الثقافية. أما التسامح وحرية التعبير فيحفظان فى صندوق سياسات مستقل عن الرعاية الاجتماعية، إلا أن هذا التقسيم تداعى. وفى صياغته الأولى لتطور حقوق المواطنة - والتى كانت أيضاً



وصفاً لنشأة دولة الرفاه - حلال ت. هـ مارشال ثلاث مجموعات من الحقوق: قانونية وسياسية واقتصادية.<sup>(1)</sup> وهذه الحقوق كما وصفها نشأت على التوالي، وكان كل منها يشكل أساساً يقوم عليه غيره. ونشأت الحقوق القانونية أولاً وشملت بعض الحريات الشخصية. وكانت في معظمها من إبداعات القرن الثامن عشر. وما إن تحققت انفتح الطريق لظهور الحقوق السياسية التي تحققت في القرن التاسع عشر. وسمحت الحقوق السياسية بدورها لأفراد المجتمع المحرومين بالسعى للحقوق الاقتصادية - وهي المزايا التي ترسخت في دولة الرفاه. ودولة الرفاه من إبداعات القرن العشرين.

لا الحقوق القانونية ولا السياسية ترسخت كما ظن مارشال. وعلى كل جيل أن يحميها من جديد. والأخطار التي تتجدد الحريات المدنية وحرية التعبير ماثلة دوماً. وليس على المرء إلا أن يتذكر قيام الفاشية ثم الشيوعية في أوروبا حتى يدرك ذلك. وهناك اليوم توتر جديد ناشئ من سياقات ثقافية قد تتصادم فيها حرية التعبير والحريات الفردية بقيمة مقدسة راسخة.

## المواطن المستهلك والمستهلك المواطن

لا جدوى من افتراض أن الدولة تعمل للصالح العام تلقائياً؛ أو أن مبادرات السوق تعمل ضدها بالضرورة. وعلينا أن نجد سبيلاً وراء هذه الأوصاف الساذجة التي تلازم كل نقاش حول مستقبل دولة الرفاه. وجزء من المشكلة غموض مصطلح "الخدمات العامة" الذي يشير إلى الخدمات المتعلقة

---

(1) T. H. Marshall, *Citizenship and Social Class*. Cambridge: Cambridge University Press, 1950.

بالدولة. والمؤسسات المتعلقة بالدولة أو الفئات العاملة فيها قد لا تقل تحيزاً أو نفعية من أى أحد فى القطاع "الخاص". وقد تكون الخصخصة فى الصالح العام تماماً فى بعض الحالات كما تبين من تحرير الاتصالات من القيود الحكومية.

إن المجتمع الصالح يمكن تعريفه بأنه مجتمع يتوفر فيه توازن فعال بين سوق تنافسية وقطاع ثالث نشط أو مجتمع مدنى ودولة ديمقراطية. والحدود بين هذه العناصر موضع جدال، ولكن من الواضح أن هناك حدوداً بينها. وفى المجالات التى تكون الكلمة فيها للسوق، يمثل المرء ما يمكن تسميته "المواطن المستهلك". والمعايير فى السوق تضمنها التنافسية فى المقام الأول وبصورة مباشرة. فجهاز التلفزيون الأقل جودة من غيره ويساوى غيره فى الثمن يطرد من السوق. وللدولة وسائر السلطات العامة دور، لكن هذا الدور يقتصر على الإشراف على الإطار العام للسوق ومنع الاحتكار وتوفير وسائل ضمان العقود.

وفى المجالات غير السوق - أى الحكومة والمجتمع المدنى - قد يكون لدى المستهلك اختيار، بل ينبغى أن يكون، إلا أن هذه المجالات لا تنظمها مبادئ السوق فى المقام الأول. ففى القطاع الحكومى مثلاً قد يكون ثم اختيار بين الممارسين الطبيين وكليات الطب والخدمات الاجتماعية. ومع ذلك فالمقاييس لا يمكن ضمانها من خلال التنافس كما فى السوق؛ وينبغى مراقبتها بصورة مباشرة من جانب المختصين والسلطات العامة. ويمكن القول إن الفرد فى هذه المجالات مستهلك بدرجة مواطن له الحق فى أن يتوقع تطبيق المقاييس بكل همة من جانب سلطات خارجية.

والدولة ليست تجسيدا للنطاق العام. فالدولة تحتاج في الغالب للإصلاح حتى تسعى لتحقيق الأهداف العامة. ومن صعوبات "جدول أعمال لشبونة" تركيزه الكامل على الأسواق وكفاءة الأسواق دون تأكيد موازٍ على إصلاح الحكومة.

والقيود في المجتمع الذي تكون الدولة مهيمنة أكثر من اللازم فيه معروفة. ومع ذلك فمن الخطأ افتراض أن مجتمعات كهذا لم تسمع عن التجربة الأوروبية الأخيرة. فبعض دول غرب أوروبا (إسبانيا والبرتغال واليونان) كانت نظماً شمولية تقوم على الدولة قبل ثلاثة عقود فقط، في حين أن أغلب الدول الأعضاء الجدد في الاتحاد الأوروبي مجتمعات شيوعية سابقة، حيث الدولة اللاعب الأول.

وهناك دول أخرى سلكت النهج الآخر نحو الفلسفات المغالية في حرية السوق. وهو موقف يمكن اعتباره مشروطاً ومؤقتاً على أحسن الفروض. والتوجه المغالي في حرية السوق لا ينشئ مجتمعاً عادلاً ولا يهيئ الظروف الملائمة لنمو اقتصادي طويل المدى. وتجربة المملكة المتحدة في عهد حكومات السيدة تاتشر في الثمانينيات وما بعدها تثبت هذه الاستنتاجات. فالوضع الاقتصادي لبريطانيا تحسن، إلا أن الدخل والفوارق في الثروة زادت بصورة حادة وتدهورت الخدمات العامة والبنى التحتية للنقل. وعانت الإنتاجية ركوداً نتيجة لنقص الاستثمارات في ظل ظروف النمو على المدى الأطول.

إن المجتمع - المحلي أو القومي أو الدولي - الذي يسمح بغزو الأسواق له بدرجة أكثر من اللازم يعاني عواقب في الرفاه أيضاً. فحواجز السوق قد تكون مهمة بالنسبة لأهداف الرفاه بدءاً من الصحة وانتهاءً بالبيئة. إلا أنها لا بد أن توضع في إطار تنظيمي أوسع. ومن المهم أن ندرك أن المجتمع الذي يعطى

للأسواق دوراً غير محدود لا بد أن يعانى تدهوراً فى النظام المدنى - فتتسع الفوارق وتغلب الدوافع التجارية على سائر الأهداف وتتضاعف الجريمة والتخريب العمد.

## تحقيق الرفاه

نشأت دولة الرفاه بعد الحرب فى وقت كانت سيطرة الدولة على الإنتاج فيه لا تزال مرعية أو على الأقل مقبولة. وظلت الرواقية والإيثار - مقترنين بمشاعر التضامن مع أبناء الوطن - سائدين لبعض الوقت بعد الحرب. لكن النتيجة كانت نظاماً يخدم مقدمى الخدمات لا متلقيها. فكان الانتظار والخضوع لتصرف مقدمى الخدمات بدلاً من أخذ فرصة للتأثير عليهم من السمات السائدة.

يرى البعض أن تقدم رأسمالية المستهلك هى التى جعلت الناس ساخطين على ما كانوا مهينين لنقبله من قبل. ففى الأسواق يجب أن يعامل المستهلك باعتباره عميلاً. لا شك أن هناك هناك قدرًا من الحقيقة فى هذا الرأى، لكن تغيير المواقف ربما كان من نتائج التحول الديمقراطى المتنامى. فالأفراد يمكنون لا باعتبارهم مستهلكين وحسب، بل بسبب تقدم الحريات، ومنها الوصول إلى نطاق من المعلومات أوسع كثيرًا مما سبق. ولا يزال نظام الرعاية الاجتماعية يتكأ فى الخلف بشكل مؤلم. وفى دراسة أجريت فى ألمانيا مثلاً جلس الباحثون فى مكاتب للضمان الاجتماعى ليروا ما يحدث حين يتوافد العاطلون ليسجلوا أسماءهم أو ليستعلموا عن فرص عمل. ووجدوا أن الموظفين لا يكثرثون بحياة المتقدمين أو بما أدى بهم للتقدم بطلبات إعانة، ولا يطلبون منهم إلا تفاصيل بيروقراطية -

تواريخ ميلادهم وعناوينهم وأعمارهم وما إلى ذلك.<sup>(١)</sup> (استحدث جدول أعمال ٢٠١٠ نظامًا يقوم على الجانب الشخصي بدرجة أكبر).

لا بد من شخصنة خدمات الرعاية الاجتماعية وعلى رأسها التعليم والصحة، ولا بد من تمكين "مستخدميها". وهي تطورات لا تشكل خطرًا على السلطة أو التكافل؛ بل هي شرط لهما. والشخصنة ليست بالضرورة هي الخصخصة. ويرى زوبوف وماكسمين أن أغلب شركات القطاع الخاص لا تخاطب الاحتياجات الشخصية لعملائها. وليست المؤسسات التابعة للدولة وحدها بل العديد من الكيانات التجارية أيضًا لا تزال تمثل حقبة الإنتاج الكمي التي كان يفترض فيها أن الاحتياجات موحدة. ومع أننا جميعًا مستهلكون الآن فإن العديد من تجارب عملية الاستهلاك أقرب إلى العدائية في الحقيقة - خطوط الاتصال التي يرد عليها حاسوب لا شخص، والطوابير الطويلة في المطارات، وشركات التأمين التي تبتدع كل أنواع بنود التملص للحد من مسؤوليتها، وتعريف البيانات الحاسوبية الذي يعامل الأفراد باعتبارهم وحدات إحصائية، وما إلى ذلك.

يقول زوبوف وماكسمين إن «الناس تغيروا أكثر من الكيانات التجارية التي يعتمدون عليها».<sup>(٢)</sup> وهم لم يعودوا يريدون أن يعاملوا كأنهم قطع شطرنج في ألعاب السوق. بل يريدون أن تكون أصواتهم مسموعة، ولا بد من تصميم خدمات العملاء المقدمة لهم بحيث تلبي متطلبات حياتهم. ويرى زوبوف وماكسمين أن الناس (على اختلاف مشاربهم) «يعتبرون أنفسهم أفرادًا أولاً ويجمع بينهم شوق

---

(1) Lutz Leisering, Stephen Leibfried and John Veit-Wilson, *Time and Poverty in Western Welfare States*. Cambridge: Cambridge University Press, 2001, p. 8.

(2) Soshana Zuboff and James Maxmin, *The Support Economy*. New York: Viking, 2002, p. 8.

مشترك لحريّة إرادة نفسية».<sup>(١)</sup> ويؤكد الباحثان أن كثيرين يربطون هذه الظاهرة باضمحلال الجماعة وانتشار النرجسية، ومع ذلك فإن لها نتائج مختلفة تمامًا تتمثل في سعي دائب للتواصل والمشاركة مع الغير.

وللاختيار والتنافس أهمية في مجال الخدمات العامة. فلم يعد مقبولا افتراض أن مستخدمي الخدمات العامة عليهم أن يقنعوا بما تمن به الدولة عليهم سواء في الصحة أو التعليم أو الخدمات الاجتماعية. وقد يكون لتوفير المزيد من المعلومات والوسائل لمزيد من المشاركة المباشرة (كالحكم من خلال الإدارات المحلية) فائدة في هذا الصدد. إلا أن تنويع المواد والحوافز الفعالة ضروريان.

في السنوات الأولى من دولة الرفاه بعد الحرب وحتى أواخر السبعينيات كان أغلب واضعي السياسات يفترضون أن العاملين في دولة الرفاه كانت تدفعهم أهداف غيرية. أي أنه في مقابل اعتبار خدمات الدولة "خدمات عامة" كانت هناك روح خدمة عامة لدى الناس. فكان يفترض أن هناك مبدأ أخلاقيا لدى الموظفين والمختصين في الهيئات الحكومية يدفعهم لخدمة الصالح العام. وكان المستفيدون من خدمات الرعاية الاجتماعية - عامة الناس - «يعتبرون سلبيين». فكان عليهم الانتظار صابرين في طوابير أمام عيادات الممارسين العاميين أو العيادات الخارجية؛ ومن يحتاج منهم لمزيد من العلاج فعليه أن ينتظر دوره على قوائم انتظار المستشفيات العامة. وبالصورة نفسها كان «المتوقع من آباء الأطفال في المدارس الحكومية أن يتقوا في المختصين وأن يتقبلوا فكرة أن المعلمين يعرفون مصلحة أطفالهم».<sup>(٢)</sup>

---

(١) لمرجع نفسه، ص ٢٥.

(٢) نقلا عن Julian Le Grand, Motivation, Agency, and Public Policy. Oxford: Oxford University Press, 2003, p. 6.

وفى الثمانينيات وما بعدها وضعت هذه الفرضيات فى مرمى النقد. وبينت الدراسات العلمية أن دولة الرفاه تدعم الطبقات المتوسطة قدر دعمها الفقراء أو أكثر. وكانت "نظرية الإدارة الجديدة" ترى أن سلوك الموظف الحكومى أقرب إلى خدمة المصلحة الخاصة منه إلى خدمة الغير. فبدأ المستفيدون من دولة الرفاه يتوقعون خدمة ذات جودة أعلى. ونظر اليمين الليبرالى الجديد إلى الخدمات العامة ورأى الاحتكار الذى يشجع انعدام الكفاءة واللامبالاة تجاه عامة المستفيدين ممن لم يكن لهم من يلجأون إليه. فأصبحت الخصخصة الجزئية وأشباه الأسواق تمثل روح العصر فى بلدان عديدة.

يكشف البحث النقاب عن الاختلافات الكلية فى النظرة بين العاملين فى القطاع العام ومن هم خارجه. فهناك دراسة فى المملكة المتحدة على سبيل المثال جرت فيها مقابلة مع عينات من مديرين من القطاعات الحكومى والتطوعى والتجارى. ومن بين الأهداف الستة عشر المرتقبة كان الهدف الأول فى نظر مديرى القطاع العام تقديم خدمة للمجتمع. وهو هدف لم يأت ضمن الأهداف العشرة لمديرى القطاع التجارى. وبدا التناقض واضحاً بالقدر نفسه بين العاملين من الشباب والكبار على السواء. وأجرى مسح آخر للأطباء تبين منه أن نسبة من يؤمنون منهم بأن «الطب مهنة لا تختلف عن غيرها وأن للأطباء الحق فى أن يعملوا لساعات اعتيادية وأن ينسوا كل ما يتعلق بالعمل حين يعودون إلى بيوتهم» لا تزيد عن ٢ بالمئة. وتظهر النتائج نفسها تقريباً فى مقارنة الفئات التطوعية بالكيانات التجارية.<sup>(١)</sup> إلا أن ثمة إشارات مهمة. فمن يقبلون فكرة الخدمة العامة يميلون لتأييد فكرة أن «أهل الاختصاص أدرى بالصالح». أما خدمة العملاء فتأتى

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٢-٣٣.

على قمة أهداف العاملين في المشروعات التجارية الخاصة، تليها الكفاءة. (وليست الدوافع بالضرورة كالتنتائج في كلتا الحالتين بالطبع.)

## الاختيار والتمكين

قلنا من قبل إن تمكين العميل في الخدمات العامة يختلف عن النزعة الاستهلاكية، بل يدفعه التحول الديمقراطي اليومي (إضافة لتغيير مفاهيم الرعاية الاجتماعية)، وكذلك المواقف من السوق. والاختيار في سياق الخدمات العامة لا يعكس ولا ينبغي له أن يعكس ذلك في مواضع التنافس التجاري المباشر. ولكن حتى لو كان الاختيار - أو احتمال الاختيار - محدوداً فهو لا يزال الأساس الأول للتمكين. فيقول الطبيب «ثق بي». وقد يقرر المريض أن يولى ثقته التامة لأحد الأطباء، لكن من المهم أن تكون هذه الثقة (من حيث المبدأ) «قراراً يتخذ» - لا مجرد قرار يتخذه المريض. بل قرار يخص هذا الطبيب دون غيره في تلك اللحظة دون غيرها.

«الطبيب يعرف أكثر». نعم، لأنه مطلع على كم من المعرفة والخبرة لا يتوافر للمريض. وهذا موقف يصدق بصفة خاصة على المتخصصين مقارنةً بالممارسين العامين الذين يجب أن يلموا بمئات الأمراض. ومع ذلك يمكن للمرضى في ظل الظروف الاجتماعية الراهنة أن يحصلوا على معلومات مفصلة و«تقدير دقيق» من شبكة الإنترنت أو من مصادر غيرها. فالطبيب يرى المريض لفترة قصيرة في تتابع سريع من المرضى. وعلى المرضى أن يتخذوا القرار لأنفسهم دون غيرهم. كما أن الأطباء قد يكون دافعهم مبدأ خدمة الناس أو الاهتمام بهم، لكن هناك ظروفًا تدفع بمصالحهم بعيداً عن مصالح مرضاهم؛ فقد يتعرض الطبيب لظرف ما فيتخذ قرارات متسرعة أو يؤثر بعض أنواع المرضى على غيرهم.



إن الاختيار، وتمكين العميل بصورة أعم، يساعد على رفع الكفاءة والوعى بالتكلفة. ولكن هل هناك أساليب أخرى مساعدة؟ الأهداف إن أحسن تحديدها قد تساعد، لا سيما في المراحل الأولى من إصلاح مؤسسات الدولة. لكن الأهداف محدودة الاستخدام. وهى لا تشجع على التجويد المستمر. فما أن يتحقق هدف ينتفى الدافع لمواصلة الطريق. كما أن من العيوب أن الهدف يضل الأولويات؛ فلا شيء يتحقق فى المجالات التى ينعدم فيها الهدف. وإضافة إلى كل هذا هناك دافع للتلاعب بالنتائج عندما يكون هناك ما يهدد تحقيق الأهداف.<sup>(١)</sup>

لا بد أن تتوفر للخدمات العامة دوافع ذاتية. وكيف السبيل إلى ذلك لو علمنا أنها لا تستطيع أن تحاكي الأسواق؟ هناك ابتكارات ظهرت فى بلدان الشمال وعلى مستوى الولايات أو المدن فى الولايات المتحدة، ومنذ عهد قريب فى المملكة المتحدة. فاختيار المستخدم لا بد أن يتوافق مع صوت المستخدم. والعناصر الأساسية أحسن تحليلها جوليان لو جراند. فالاختيار تمكين للمستخدمين ويمد مقدميها بدوافع أكبر طالما جاء فى أثرها المال. ولا جدوى من الاختيار إن لم تكن له نتائج. ولكن لا بد أيضا أن يكون ثم اختيار حقيقى بين المقدمين؛ والاختيار العقيم أفضل من لا شيء. ولا بد من استحداث أنواع جديدة من المقدمين لتطوير مثل هذا الخيار، كالمدارس المستقلة فى السويد، ونظام الإيصالات المطبق فى بعض مدن الولايات المتحدة، والمستشفيات الوقفية التى استحدثت فى إسبانيا والمملكة المتحدة.<sup>(٢)</sup>

---

(1) Julian Le Grand, 'The Blair legacy? Choice and competition in public services', public lecture, LSE, 21 February 2006.

(٢) المرجع نفسه.

تأتى الاعتراضات الرئيسية لمثل هذه المستحدثات مرة أخرى من القلقين من عواقب العدل الاجتماعى. فهم يطرحون وجهتى نظر؛ إحداهما أنه بزيادة التنوع تزداد مكاسب الأغنياء على حساب الفقراء؛ والأخرى أن الاختيار والتنافس يقضيان على قيم القطاع العام، بل إنه يقضى على قيم دولة الرفاه نفسها.

وماذا تبين البحوث المقارنة؟ تبين أولاً أن الناس يريدون الاختيار وأن الفقراء أكثر تشدداً فى ذلك من المقتدرين. فتبين الإحصاءات فى المملكة المتحدة مثلاً أن أكثر من ٧٠ بالمئة من الناس يعتبرون أن الحصول على مزيد من الاختيارات فى المدارس التى يتعلم فيها أبناؤهم "مهم للغاية" أو "مهم". ومن بين من يقل دخلهم عن عشرة آلاف جنيه فى السنة أعرب ٧٠ بالمئة عن رغبتهم فى مزيد من الاختيارات فى المستشفيات مقارنةً بنسبة ٥٩ بالمئة بين من يزيد دخلهم عن خمسين ألفاً فى السنة. وظهرت نتائج مماثلة تماماً عندما طرحت أسئلة عن الحصول على مزيد من الاختيارات فى خدمات الحكم المحلى. ووجدت النتائج نفسها فى بلدان أخرى فى الاتحاد الأوروبى وفى الولايات المتحدة.<sup>(١)</sup>

فى أغلب الخدمات العامة يتركز عدم وجود الاختيار فى الفئات الفقيرة، وهو عامل كاف فى حد ذاته. والأكثر اقتداراً لديهم المزيد من الاختيارات لأن لديهم المال ولأنهم أبرع فى تسخير النظام لمصلحتهم. والسؤال هو ما إذا كان توسيع نطاق مقدمى هذه الخدمات من شأنه أن يدعم هذه المزايا. وتبين النظم المطبقة فعلاً فى عديد من البلدان أو المناطق أن السياسات الرشيدة قد تصوب هذه التوجهات. ويمكن مساعدة الأقل اقتداراً بتكاليف النقل مثلاً إلى جانب النصح بالتروى فى القرار وفى مجال الرعاية الصحية مثلاً بتخصيص مشرفى رعاية مرضى.

---

(١) المرجع نفسه.

ويمكن للسياسات أن تعدل التكاليف بحيث يمكن موازنة الفروق في الدخل. ففي التعليم مثلاً يمكن ربط التمويل الذي تتلقاه المدرسة بجدول بالمناطق الفقيرة؛ فالطلاب من المناطق الفقيرة يحملون "وزناً" (مالاً) أكبر مما يحمله نظراؤهم من المناطق الأثراء. وينبغي أن نتذكر أن التنافس يوجد دافعاً أكبر للتطوير لدى المدارس التي تتلأأ. وتدل الشواهد من كل من السويد والولايات المتحدة أن التنافس يحسن الأداء في المدارس الحكومية.<sup>(1)</sup>

وماذا عن الاتهام بأن الاختيار والتنوع يتلفان القطاع العام ويقضيان على قيم الإيثار التي تميزه عن المشروعات التجارية السوقية؟ علينا بدايةً أن نتذكر غموض مصطلح "عامّة" في "الخدمات العامة". فنحن نتحدث عن خدمات تقدمها الدولة، والدولة أبعد ما تكون عن العمل لما فيه الصالح العام تلقائياً. وعندما يطرح على المواطنين سؤال عن رأيهم في مختلف الخدمات التي تقدمها الدولة فإن آراءهم لا تؤيد بالضرورة فكرة أن المستفيدين يلقون معاملة طيبة من جانب العاملين في المؤسسات الحكومية. فهناك على سبيل المثال دراسة أجرتها "هيئة استطلاع الآراء" (MORI) في المملكة المتحدة طلبت من الناس ترتيب الصفات التي تنطبق على الخدمات العامة. فجاء من بين الصفات الأعلى رتبة "بيروقراطية"، "مثيرة للحنق"، "غير متجاوبة"، "غير مسؤولة". ولم يأت من المصطلحات الإيجابية ضمن الصفات الخمس الأعلى رتبة سوى "جادة في عملها". وفي ذيل القائمة جاءت الصفات "ودودة"، "كفاء"، "أمانة"، "صريحة".<sup>(2)</sup>

---

(1) Caroline Hoxby, 'Satisfaction with public services: a discussion paper', available on line at

<http://www.strategy.gov.uk/downloads/files/satisfaction.pdf>.

(2) Le Grand, 'The Blair Legacy?', p. 15.

## التكافل الاجتماعي

من السمات الواضحة لدولة الرفاه التقليدية الاهتمام بالتكافل أو التماسك الاجتماعي. ولكن أى تكافل؟ ما الكيان أو الكيانات الاجتماعية التى ينطبق عليها هذا المفهوم لا سيما فى عالم مترابط؟ وما الآليات التى تنتجها؟ نظراً لاتساع نطاق تداول مصطلحي "تكافل" و"تماسك" فلا يكاد أحد يهتم بإضفاء قدر من الدقة عليهما (وستعامل معهما باعتبار أنهما لا يختلفان فى المعنى).

التكافل فى رأينا يمكن فهمه من منظور ثلاثى الأبعاد - نفسى وسلوكى وهيكلى. فالمجتمع المتكافل من الناحية النفسية مجتمع يسوده اتجاه عام بالرعاية حيال الغير بما فى ذلك اهتمام الفرد بمن هم أقل منه حظاً. ويمكن أن نطلق على ذلك البعد الاتجاهى للمواطنة. وقد تأخذ الرعاية شكل الجود، لكنها قد تعنى مجرد تقبل المرء واجب سداد ضرائبه أو غيره من واجبات تدعم الصالح العام. ولا تتوقف الرعاية عند المجتمع المحلى كما أنها لا تقف عند الحدود القومية، ما يستدل عليه من التبرعات المقدمة على نطاق واسع لقضايا عالمية من نوع أو آخر.

وهل يمكن للحكم - المحلى أو القومى أو ما وراء القومى - أن يساعد على إيجاد مجتمع يسوده التراحم؟ نعم، يمكن ويجب. ويمكن لنا أن نعرّف "التراحم" بصورة دنيوية صرفة بأنه تقبل الالتزامات التى تواكب الحقوق حتى لو تداخل عند حافته مع الإيثار. والإيثار نفسه يمكن إضفاء صفة مؤسسية عليه إلى حد ما، كما فى حالة البر مثلاً. فالبر يعبر عن موقف يتسم بالتراحم، وقد يدعم بدوافع مادية مباشرة كالاقتطاعات الضريبية. وحين يكون الدافع أقل غيرية يمكن موازنة الحوافز بالعقوبات.

والجانب السلوكى من التكافل يمكن فهمه بمعنى التحضر. والتحضر فكرة حولها جدال.<sup>(١)</sup> وهو يشير هنا إلى السلوك المسؤول فى الأماكن العامة تجاه الغير وتجاه البيئة المحيطة. والتحضر هو التعبير الدارج عن العالمية، حيث يشير ضمناً إلى احترام الغير وقبول الاختلاف. والتحضر فوق هذا وذاك هو التفاعلات المتبادلة بين الغرباء لا بين الأقارب والمقربين، لأن فى هذه الحالات ثمة أواصر أعمق تشكل أساس المشاركة. وعندما ينقسم المجتمع أو يتفتت يكون التحضر أول الخسائر، لأنه هو أداة التفاعل اليومى. ويمكن أن نقصى العمليات التى تؤدى إلى تدنى السلوك العام فى الأحياء التى تتغلب فيها الانقسامات الاجتماعية على التبادلية أو يحل الخوف فيها محل الطمأنينة فى العلاقات مع الغير.

يشير البعد الهيكلى للتكافل إلى مستوى تماسك الجماعة أو الأمة أو غير ذلك من أشكال الترابط الاجتماعى. فهو يتعلق بمدى دعم الجماعة لصلات وثيقة بين شرائحها، أو مدى الانقسام والشقاق بينها. والقاعدة العامة أنه كلما تدنى مستوى التماسك تدنى معه مستوى التراحم والتحضر. وكما يجتر البعض ذكريات "العصر الذهبى" لدولة الرفاه، فهناك أيضاً بالنسبة لكثير من الناس حقبة زاد فيها التكافل والإجماع عما هما عليه اليوم، وكانت فيه الجماعات المحلية أكثر تماسكاً. إلا أن صور الماضى الذهبى لا تقل خداعاً فى هذا الصدد عنها فيما يتصل بدولة الرفاه.

---

(١) انظر James Schmidt, 'Civility, enlightenment and society: conceptual confusions and Kantian remedies', American Political Science Review, 92/2 (1998); Tom Rice and Jan L. Feldman, 'Civic culture and democracy from Europe to America', Journal of Politics, 59/4 (1997); Anna Bryson, From Courtesy to Civility: Changing Codes of Conduct in Early Modern England. New York: Oxford University Press, 1998.

صحيح أن الجماعات المحلية أو بعضها كانت قبل ثلاثين سنة أكثر ترابطاً مما هي اليوم. فالمجتمع ككل كان أكثر محلية مما هو حالياً. ومع ذلك فقليل من الناس من يود أن يعود إلى الجماعات التي كانت موجودة في عصر سابق حتى إن أمكن ذلك. فكثير من أفرادها لم يقدموا سوى عمر من العمل البدوي - بلدات صناعية أو مناجم مثلاً ليس فيها فرص عمل أخرى ويرتفع فيها مستوى التلوث المحلي. ونادراً ما كانت هناك فرص عمل للمرأة في جماعات كهذه، وإن وجدت فبأجور هزيلة ولا مجال فيها للترقي. كما أن الجماعات الصغيرة من النوع التقليدي كانت تتسم بالتخلف الاجتماعي. فكانت هناك معايير محلية صارمة تحكم السلوك المحلي. فلديك هنا تماسك أكثر من اللازم.

عندما نتحدث عن التكافل في مجتمعات اليوم فهذا المصطلح لا يشير إلى هوية نحن وهم، أو تعميم يتطور من الشعور بالأنا الجماعية إلى الدولة. أما التكافل أو التماسك الاجتماعي اليوم فيشير إلى شبكات تتركز في بعض الحالات في جماعات محلية، لكنها أكثر تشرذماً في الغالب وعابرة لحدود الدول في الغالب أيضاً - كعلاقات القرابة مثلاً على مسافات متباعدة من خلال تقنية الاتصالات والنقل الحديثة. وفي شبكات كهذه قد تتداخل وتجتمع هويات شتى أو مشاعر بالالتزام والانتماء (أو العداء أو الانفصال أحياناً). (انظر المربع ٤-٣).

### المربع ٤-٣: التكافل الاجتماعي في المجتمعات بعد الصناعية

#### الأبعاد

- مواقف التراجع تجاه الغير في جماعة اجتماعية قومية أو عابرة للقيميات
- التحضر تجاه الغير في أوساط عامة في الحياة اليومية
- ترابط الفئات والجماعات والمجتمعات على مستويات شتى

#### الآليات

- ثقة نشطة: ثقة فيها تشاور متبادل ورقابة عادية تعمل في سياق
- تحول ديمقراطي يومي: نطاق الحريات الأساسية في الحياة اليومية.

#### الفئات الاجتماعية

- الدولة القومية
- الجماعات المحلية والإقليمية
- الشبكات الاجتماعية: المحلية والإقليمية والعابرة للقيميات.

وقد نعرّف التكافل الاجتماعي بأنه دمج مجتمع شبكي له حدود مخترقة تخلق المواطنة الإيجابية فيه مجموعة فعالة من الالتزامات الاجتماعية وثقافة مدنية واضحة تحترم الغير، تمتد من مواجهات في الحياة اليومية إلى تعاملات مجردة مع ثقافات بعيدة.

لم يعد يمكن التسليم بـ "الشعور بالأنانية الجماعية"؛ إذ لا بد أن يُخلق ويعاد خلقه في عملية متصلة. والجماعات المحلية والدولة القومية التقليدية كانت تقوم على "ثقة سلبية"، وهي تقبل "الطرق المتعارف عليها لعمل الأشياء" والأنساق المستقرة للقوة والاحترام. وتوقفت الثقة السلبية في معظمها ولأسباب قوية. وبتقدم

التحول الديمقراطي المستمر يصبح لاحترام أهل السلطة والعادات والتقاليد بشكل أعم دور في حياة الناس أقل مما كان. وبالتالي تزداد مجالات الحياة خضوعاً لاختيار الإنسان عما سبق؛ وتزداد المعلومات المتاحة للاختيار منها عن ذى قبل. ومنا من "أجبر" على الحرية، ولو أن هذا التحول صحبته ضغوط وتوترات جديدة عديدة.

يمكن القول إن ازدياد التحول الديمقراطي في حياتنا اليومية يعد من الأسباب الأساسية لانتشار النفور من المؤسسات الديمقراطية المتعارف عليها. فهي تبدو بعيدة عن تيار الحياة اليومية، والانتخابات الدورية التي تجرى كل أربع سنوات أو خمس تهمل الفترة الطويلة التي تفصل بينها والتي تزداد فيها رغبة المواطن في مراقبة أنشطة قاداته السياسيين ومساءلتهم.

في كل ميادين الحياة تقريباً انتقلنا من الثقة السلبية إلى الثقة النشطة باعتبارها الرابط الأول للتماسك الاجتماعي. والثقة النشطة ثقة يجب كسبها من الغير؛ هي التفاوض الثنائي لا التبعية؛ ولا بد من تجديد هذه الثقة بشكل عمده. ولغلبة الثقة النشطة نتائج مباشرة على الفوارق والفقر. وهي تفترض وجود شكل منفتح من الحياة قادر على نشر معلومات جديدة وثقة شعبية ما. إلا أن هذه بعض من الفضائل التي يفتقر إليها الناس في الأحياء الفقيرة.

والانتقال إلى مجتمع تسوده ثقة نشطة لا يعنى انهيار التماسك الاجتماعي، ولا يعنى التحول حتماً إلى مجتمع "أنا أولاً" كما يرى البعض. فثمة أشكال جديدة من التعاون تنشأ سواء داخل الأسرة أو في الفئات والكيانات الأكبر. والكيانات المسطحة والشبكات تقوم على الثقة النشطة أكثر من مجموعات الشركات الهرمية التي تميز المجتمع الصناعي. ومع ذلك فهي أكثر تحملاً من النوع القديم لأنها أكثر مرونة وتكيفاً مع التغيير.



حظى كتاب روبرت بوتنام، الذى يحلل تدهور رأس المال الاجتماعى فى المجتمعات المعاصرة، باهتمام بالغ عن جدارة.<sup>(1)</sup> ومع أن كتبه الأولى كانت عن إيطاليا فإن أغلب أعماله تركز على الولايات المتحدة وتحقق التوزيع الأعلى فيها. لكن المرء قد يعيد تأويل البيانات التى يطرحها بوتنام لتبين أن ما يتناوله هو التحول من الثقة السلبية إلى الثقة النشطة فى العلاقات. هناك إذن اضمحلال للأنماط التقليدية للجماعة والاعتماد المتبادل؛ لكنه يمتاز أيضا بنشأة أشكال جديدة من التكافل بعضها أكثر تركيزاً محلياً من الأشكال القديمة، ولكنه يمتد على مساحات مكانية أوسع كثيراً. والتكافل أسهل فى تعريفه فى مجتمع تسوده الثقة النشطة منه فى مجتمع تغلب عليه الثقة السلبية؛ وفى عالم يطابق "المجتمع" فيه حدود الدولة ولا يفيض عنها كما هو الحال الآن. وكان التكافل فى الأصل يعنى روابط الاعتماد المشترك الموجودة فى الجماعات المحلية المستقرة والشعور بالانتماء لـ "جماعة مصير"، أى أمة. ومن المهم دون شك أن دولة الرفاه فى أغلب البلدان نشأت عن حرب. ففي أوقات الحرب يكون خصوم المرء واضحين ويتعاضد شعور المرء بهويته الجمعية؛ كما أن الحرب تولد شعوراً بالفداء لأجل الصالح العام.

والسؤال "تكافل ماذا؟" أصعب فى الإجابة عنه اليوم مما كان قبل ثلاثين سنة أو أربعين. وفى ضوء استمرار أهمية الأمة يظل التكافل بأبعاده الثلاثة على المستوى القومى محتفظاً بأهميته البالغة. لكن هناك تعقيدات عديدة. فالتكافل بأشكاله الإقليمية قد يشتد بحيث يشكل خطراً على استمرار تماسك الأمة. و"الأمم بلا دولة" كالباسك قد لا تشعر بالانتماء للجماعة أو الجماعات القومية الأكبر التى

---

(1) Robert Putnam, *Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community*. New York: Simon & Schuster, 2001.

تتّمنى إليها.<sup>(١)</sup> وحيثما تداخلت التقسيمات الإقليمية مع التوزيعات اللغوية أو الثقافية فإن التماسك على المستوى القومى قد يتصالح مع الهوية القومية، كما فى حالة بلجيكا. وكلما ازدادت الأمم تنوعاً ثقافياً ازدادت حدة مشكلات الاندماج، وبالتالي التراجع والتحضر.

## التنوع والرفاه

تتسم بلدان الاتحاد الأوروبى باستثناء بعض الدول الصغيرة بالتنوع العرقى والثقافى منذ أمد طويل. وما نتقبلها اليوم باعتبارها دولاً قومية موحدة نسبياً من الناحية الثقافية قامت فى جزء كبير منها على قمع الأقليات ولغات الأقليات. إلا أن تدفق الملايين من المهاجرين بعضهم من ثقافات مختلفة تماماً غير الأمور. فبلدان أوروبا اعتادت أن ترسل المهاجرين إلى أماكن أخرى ولم تألف استقبالهم بمثل هذه الأعداد الكبيرة وفى فترة زمنية بهذا القصر. فما ترتب على منظومة الرعاية الاجتماعية والتكافل والمواطنة كبير.<sup>(٢)</sup>

تتطوى دولة الرفاه التقليدية على عنصر مهم هو إعادة التوزيع لصالح المحرومين. وهناك مبررات ممكنة عدة لافتراض أن التنوع الثقافى قد يكون له أثر على تقبل إعادة التوزيع بهذه الصورة حيث يشمل المحرومون نسبة لا يستهان بها من الأقليات.<sup>(٣)</sup> فالاختلاف الثقافى قد يضعف استعداد المقتدرين لدعم من هم

---

(1) Monsterrat Guibernau, Nations Without States: Political Communities in a Global Age. Cambridge: Polity, 1998.

(2) Will Kymlicka, 'Immigration, citizenship, multiculturalism', Political Quarterly, 74 (2003).

(3) Philippe Van Parijs, 'Cultural diversity against economic solidarity?', in Van Parijs, Cultural Solidarity versus Economic Solidarity. Brussels: Bibliotheque Francqui, 2004.

أفقر منهم، لأن الفئة الأخيرة لم تعد تعرف على أنها جزء من الجماعة الاجتماعية نفسها. وكلما اختلفت معتقدات الأقليات وعاداتها عن الأغلبية أو افترض ذلك زاد هذا التأثير. وثم احتمال آخر هو أن التنوع الثقافي يزيد من صعوبة تعبير الفئات المحرومة عن مصالحها والكفاح من أجلها بسبب العوائق اللغوية وسائر الحواجز. وتبين الدراسات التي أجريت على عدد من البلدان وجود صلة عكسية بين التنوع الثقافي وقوة تنظيم الاتحاد وتمثيله. .

وهناك احتمال ثالث هو أن دولة الرفاه نفسها تساعد على دعم التمييز. ويقدم فان باريس الإيضاح التالي من بلده بلجيكا.<sup>(١)</sup> فنسبة العمالة بين المواطنين البلجيكين في بروكسل تبلغ ٦٤ بالمئة. إلا أن نسبتها لدى جماعات المهاجرين المحلية تبلغ ٣٣ بالمئة. ويرى أن هذه النتيجة تعزى في جزء منها لوجود منظومة الرفاه التي توفر مستويات رفيعة من المزايا الكلية وإعانة البطالة دون حد زمني وغير ذلك. وهو وضع يحمي المهاجرين من سوق العمل. وبما أن انفصالهم يدعمه ضعف المهارات أو ضعف الإلمام باللغة فإنه يستمر ويثير عداة السكان المحليين. والأهم من ذلك أن الأقلية يُنظر لها على أنها عالة على دولة الرفاه. ويعمم فان باريس ذلك على جماعة أكبر حجمًا، ويرى أن هذا ما حدث للأمريكيين من أصول أفريقية في الولايات المتحدة.

ما مدى صحة هذه الآراء؟ هناك دراسات نشرت حول الصلة بين التنوع الثقافي والتكافل الاقتصادي<sup>(٢)</sup>، تسعى هذه الدراسات لبيان مدى ارتباط وجود أقليات جديدة بتغيرات في طبيعة الإنفاق الاجتماعي أو مستواه. ويبدو أن الصلة

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠-٢١.

تكاد تكون معدومة وإن كان ثم شيء فهو عكس الفرضيات المشار إليها. فبالنظر لبلدان "هيئة التعاون والتنمية الاقتصادية" (OECD) ككل لا الاتحاد الأوربي وحده وجد أن أستراليا وكندا التى تضم كل منهما أقلية جديدة كبيرة ضمن سكانها أبليتا بلاء حسناً من حيث التكافل الاقتصادى. قد تكون نتائج هذا البحث متأثرة بأن منظومة الرعاية الاجتماعية فى كل من هاتين الدولتين تختلف عنها فى بلدان أوربا كما تختلف نظم سوق العمل فيهما. ومع ذلك فهى نتائج مشجعة.

ولو كانت التوكيدات الأوربية على التكافل تعنى أى شيء فهو ضرورة تحاشى الوضع الذى نشأ فى الولايات المتحدة حيث استحالت "الرعاية الاجتماعية" مصطلحاً ازدرائياً لدى أغلب الناس بمن فيهم المتلقون. وعندما تحدث بيل كلينتون عن الحاجة للرعاية الاجتماعية لأن تكون «بدأً لأعلى لا يداً ممدودة» فإنه لمس وترًا حساساً فى نفوس الأمريكيين.

إن التغلب على انقسام أسواق العمل حيثما وجد يعد خطوة للأمام. فأسواق عمل كهذه تحرم من ينتمون لأقلية أو لجماعات المهاجرين من دخولها. ومن الخطوات الأخرى التوكيد على مبدأ المساهمة. فمن الشكاوى المتكررة بخصوص المهاجرين أنهم يحصلون على شيء بدون مقابل - إذ يتلقون مزايا دفع غيرهم ثمنها. واليد المرفوعة لأعلى بدلاً من اليد الممدودة تتطبق على دول الرفاه الأوربية أيضاً. وبالطبع كلما زادت فرص العمل الشاغرة زادت فرص تحول المهاجرين - أو العمال الوافدين من دول أعضاء جديدة - إلى دافعى ضرائب مباشرين. فالسباك البولندى شخصية مخيفة فى البلدان ذات مستويات البطالة المرتفعة، لكنه موضع ترحيب فى البلدان التى تنخفض فيها معدلات البطالة.

## الهجرة والمواطنة

"الهجرة" ليست شيئاً هيناً، بل هي مسألة شديدة التعقيد والتميز؛ وهو ما يصدق أيضاً على وضع الأقليات الثقافية المستقرة. لا شك أن المهاجرين أسير في استيعابهم، وهم في العادة أكثر استعداداً للتكيف بمحض إرادتهم مع الثقافة المضيفة عندما يشبهونها عرقياً وثقافياً. وفي الولايات المتحدة استوعبت موجات المهاجرين دون الحاجة إلى التخلي بالضرورة عن كل سمات ثقافتهم الأصلية، ولو أن الأمريكيين من أصول أفريقية ظلوا عالقين في القاع. وللعنصرية والخوف من الأغراب الأجانب دور. فالبيض الذين هاجروا من إسبانيا إلى فرنسا في عهد فرانكو قبلوا وأدمجوا عن طيب خاطر كنظرائهم الجزائريين. وهو ما لم يحدث مع غيرهم من الجماعات العرقية.

إذا توفرت الأدوات الملائمة للمواطنة فإن الجيل الثاني من المهاجرين قد تكون لهم هوية تختلف إلى حد كبير عن مهاجري الجيل الأول، وإن تأرجحت أحياناً وتشابكت. ففي التسعينيات ومطلع القرن الحادي والعشرين نشبت اضطرابات في أولدهام ولينز وغيرهما من بلدات شمال إنجلترا. وكان مصدرها جماعات من الباكستانيين وبعض البيض المحليين. وفي أعقاب تلك الاضطرابات برز القلق من مستوى التفرقة بين جماعات الآسيويين والبيض. وألقت الصحافة النبعة على السياسات الاجتماعية في مجال تعدد الثقافات.

كان الواقع على الأرض في هذه الجماعات مختلفاً، كما بينت دراسات التوجهات المحلية منذ ذلك الحين. فالباكستانيون البريطانيون المعنيون كانوا مهاجرين من الجيل الثاني. لم يكونوا يرفضون المجتمع من حولهم، بل يرفضون نكوصه عما وعد به. كانوا يحاولون التأكيد على حقوقهم باعتبارهم مواطنين

بريطانيين.<sup>(١)</sup> فإحساس المهاجرين من الجيل الأول بالهوية يرقى لما يطلق عليه الباحثون مصطلح "مقيم" لا مواطن. فلهم حق الإقامة في البلاد ولكنهم لا يشعرون بأنهم ينتمون إليها تمامًا، ويعتبرون وضعهم فيها غير مستقر. أما الجيل الثاني فإحساسهم بأنهم مواطنون بريطانيون محوري في نظرهم لأنفسهم وإلى العالم المحيط، ويفهمون التهديد الذي تمثله جماعات البيض المحليين التي تنتمي إلى اليمين المتطرف. لكن شعورهم بهذه العداوات يزداد باعتبارها تعديًا على حقوقهم بصفته مواطنين بريطانيي المولد لا على هويتهم بوصفهم باكستانيين.

إن "الهوية البريطانية" بما توحى به من تعددية ثقافية تعد هوية لها شعبيتها لدى جماعات الأقليات في البلاد ككل. ويشير ٥٩ بالمئة من الأقليات العرقية في المملكة المتحدة إلى أنفسهم بأنهم "بريطانيون"، بينما لا تزيد هذه النسبة بين البيض عن ٤٥ بالمئة. ولا تتعدى نسبة من يعتبرون أنفسهم "إنجليز" من الأقليات العرقية عن ١١ بالمئة في مقابل ٥٤ بالمئة من البيض. والباكستانيون مسلمون، إلا أن الجانب المسلم من هوياتهم نادرًا ما كان يطفو على السطح في الصدامات في ذلك الوقت. فهم يميزون هويتهم البريطانية عن هوية اليمين المتطرف بما يدعيه اليمين من نقاء عرقى.

يتضح الفارق بين الأجيال في كلمات من أجريت معهم المقابلات: «المنظور العام لدى الكبار هو "لا تفعل وإلا رحلوك". في حين أن منظور الشباب هو: "إن لم ندافع عما نؤمن به لن يكون لنا مستقبل هنا؛ وهم لا يستطيعون أن يرحلونا - فنحن مواطنون بريطانيون ... الصمود والكفاح هما السبيل الأوحى للتغيير".<sup>(٢)</sup>

---

(1) Yasmin Hussain and Paul Bagguley, 'Citizenship, ethnicity and identity: British Pakistanis after the 2001 riots', Dept. of Sociology, University of Leeds, Working Paper, July 2003, p. 12.

(١) المرجع نفسه، ص ١٢-١٣.

هناك دروس مستفادة هنا كما يرى الباحثون. فاعتبارات المواطنة - والسياسات التي تطرح - تركز في الغالب على الجماعية والتجانس. ومع ذلك فالمواطنة بالنسبة للأقليات - وربما بالنسبة للجميع إلى حد ما - مشروع مفتوح ومائع. والمواطنة يجب أن تختبر في حقيقتها ومغزاها. ويبدو أن هناك فارقاً بين المتظاهرين في البلدان البريطانية ونظرائهم في مدن فرنسا في سنة ٢٠٠٥، والذين شعر معظمهم بأن مواطنتهم شيء صوري.

تبدو برادفورد لأول وهلة مدينة مستقطبة عرقياً. فغداة اضطرابات ٢٠٠١، اعتبر عدد من التقارير الرسمية أن التفرقة العرقية مصدر الاضطراب الاجتماعي الطويل الأمد. يقول أحد الكتاب: «إن التفرقة في الترتيبات التعليمية والمجتمع والكيانات التطوعية والعمالة ودور العبادة واللغة والشبكات الاجتماعية والثقافية كلها تعنى أن هناك جماعات عديدة تعمل على أساس أنها كيانات متوازية».<sup>(١)</sup>

مع ذلك أثبتت البحوث التالية خطأ هذه الحسابات. فمن الأسباب الرئيسة لضعف الدراسات الأولى افتقارها لمنظور دينامي، وهو العيب نفسه الذي رأيناه في الدراسات التقليدية عن الفقر. فحين نظر الباحثون إلى أحياء برادفورد عبر الزمن وجدوا حركة مستمرة منها وإليها. فكثير من الجنوب آسيويين انتقلوا من عنابر أطراف المدينة إلى أحياء الطبقة المتوسطة أو المناطق الريفية. ونظراً لأن مهاجرين جددًا حلوا محلهم فإن الأمر بدا كأن هناك تفرقة مستمرة في حين أنه ليست ثمة تفرقة. وعلى خلاف الفكرة التي أراد الجنوب آسيويين أن يحتفظوا بها

---

والمصدر النقدي (1) T. Cantle, Community Cohesion. London: Home Office, 2001, p. 9. الأول Ludy Simpson, 'Statistics of racial segregation', Urban Studies, 41 (2004).

لأنفسهم أثبتت بيانات البحث وجود «أدلة على الرغبة في مزيد من الامتزاج من جانب كل الجماعات العرقية/الدينية ... ونمط حياة أكثر استقلالية بعيداً عن شائعات التجمع العرقى وثرثرته».<sup>(١)</sup>

قد يكون ثم مزيد من التغيير طرأ على الجيل الثالث من المهاجرين، ولو أن البحث الذى أجرى على برادفورد لم يتناول هذه النقطة. يرى البحث إمكانية العودة بالنسبة لبعض من مثل هذه الجماعات إلى عناصر من ثقافة المهاجرين "الأصلية". وقد يشعر الجيل الثالث من المهاجرين بأن جيل آبائهم بالغ فى محاكاة الثقافة المضيفة وخان جذوره الثقافية. وبالتالي أنشأوا أشكالاً ثقافية هجينة جديدة. والاحتمالات هنا أكبر كثيراً مما كان فيما مضى، وذلك لسهولة التواصل الإلكتروني وسرعته. ويمكن جر الأفراد أو الجماعات نحو التطرف مثلاً بالانتماء لحركات فى مكان آخر أو على أساس أحداث تجرى على بعد آلاف الأميال فى العالم.<sup>(٢)</sup>

## تعدد الثقافات

هذه النتائج تلائم الجدل حول تعدد الثقافات، والدائر اليوم على مستويين. فمن ناحية، هناك رفض شعبى - وشعبوى - للفكرة باعتبارها وجهة نظر تزيد الصراعات حدة بدلاً من أن تساعد على حلها. ومن ناحية أخرى هناك جدل أكثر

---

(1) D. Phillips, Movement to Opportunity? ESRC Report, School of Geography, University of Leeds, 2002, p. 10.

(٢) هذه النقطة أدين بها لمونسيرات جيبيرناو الذى أبدى كثيراً من التعليقات المفيدة على الفقرات الى تتناول التعددية الثقافية فى كتابنا هذا.



تعزيزاً وتفصيلاً في الكتابات العلمية عن تعدد الثقافات مصدر أغلبه أمريكا الشمالية لا أوروبا.<sup>(١)</sup>

وإذا نظرنا في الكتابات العلمية يتبين أن تعدد الثقافات يساء فهمها إلى حد بعيد في كثير من الجدل الشعبي. ويرى مؤيدوها أنها ليست سياسة تسعى للإبقاء على انفصال الجماعات الثقافية وترك الحرية لكل منها لكي ترسم هويتها كيف شاءت. و"بيت" تعدد الثقافات هو كندا سواء من حيث تطبيق السياسات أو فكرياً، وذلك لأن بعضاً من كبار الباحثين في المجال من ذلك البلد. ومن المسلمات القديمة في كندا أن اختبارات اللغة ومراسم المواطنة وأداء اليمين أمور بديهية بالنسبة للمهاجرين. فالمراسم حسب قول ويل كيمليكا موضع ترحيب المهاجرين باعتبارها دليلاً على القبول والالتزام المتبادل.<sup>(٢)</sup> وهي في مجملها لا تثير الجدل بين سكان البلاد أو بين المهاجرين. فالتجنس بالجنسية الكندية لا يشترط التنازل عن الهوية السابقة. وبالتالي فقليل من المهاجرين من يرون في نيل الجنسية الكندية خيانة لبلدهم أو ثقافتهم الأصلية.

واستخدام المال العام حسب قول كيمليكا اختبار أساسي لما إذا كانت أحكام المواطنة تمثل أساساً للاندماج أم لا. ولا يمانع دافعوا الضرائب أن يدفعوا مقابل البرامج التي تعرض الاندماج الفعال للمهاجرين في المجتمع الذي وفدوا إليه. والسياسة الكندية قد تؤكد على المواطنة والهوية القومية، إلا أنها متعددة الثقافات بصورة واضحة. والسياسات السابقة المتحيزة عرقياً، والتي كانت تمنع غير البيض

---

(١) انظر الجدل المعقد حول كتاب تشارلز تايلور Charles Taylor, Multiculturalism. Princeton: Princeton University Press, 1994.

(2) Kymlicka, 'Immigration, citizenship and multiculturalism'.

من الشعور بالانتماء لكندا ألغيت في خطوة شديدة الأهمية. أى أن ثم جهداً بذل للتبرؤ من عنصرية الماضى وما شابه من سوء معاملة الأقليات.

تعد المواطنة فى أغلب بلدان الاتحاد الأوروبى مكافأة تتوقف على فترة طويلة من الاختبار. وفى بعض الدول كألمانيا حتى وقت قريب لم تكن تمنح لمن هم من أصول غير جرمانية. أما فى كندا فيمكن للمهاجر أن يتقدم بطلب بالتجنس بعد ثلاث سنوات فقط لو أقام معظم تلك الفترة فى البلاد. كما أن الجنسية لا تعتبر نهاية المطاف؛ بل مرحلة فى منتصف الطريق نحو التحول إلى عضو أكثر فعالية فى المجتمع الكندى.

ليس كل شىء وردياً فى كندا. فهناك عدااء للمهاجرين فى بعض الأحياء وانزعاج شعبى من دعاوى اللجوء بالاحتىال. وهناك دعاوى تمييز يرفعها السكان الأصليون؛ وتتواصل التوترات حول إقليم كيبيك. ولكن على عكس أوربا أو الولايات المتحدة لا تشترك كندا حدودياً مع بلدان نامية. كما أن البلاد لم تكن قوة استعمارية قط، ولا يواجه المهاجرون فيها مشاعر العدااء التى يواجهونها إذا نزحوا إلى دولة استعمارية سابقة.

إن "تعدد الثقافات" مرة أخرى ليس وصفاً لمجتمع يضم جماعات ثقافية متنوعة. والأفضل أن نبقى على مصطلح "التعددية الثقافية" لهذا المعنى. فتعدد الثقافات سياسة أو مجموعة سياسات وتشير إلى برامج سياسات تعترف بأصالة اختلاف أنماط الحياة فى أى تكتل اجتماعى، وتعمل على إيجاد تعاملات مثمرة وإيجابية بينها ولكن ضمن نظام شامل وموحد لحقوق المواطنة والتزاماتها. ولدى دول أوربا الكثير لتتعلمه من تعدد الثقافات الكندى. وسياسة التجنس البريطانية بما فى ذلك استحداث اختبارات ومراسم للتجنس مستعارة فى الحقيقة عن وعى من

النظام الكندي. ومع ذلك فأغلب بلدان أوروبا حسب قول كيمليكا يلاحظ فيها عدم وجود التزام شعبي بتعدد الثقافات أو أية محاولة لنشر وعى فكرى به. والباكستانيون البريطانيون في برادفورد وإن كانوا في حالة صراع وترهيب يعتبرون روادا لما يجب أن يمثل عنصرًا في السياسة العامة في أنحاء أوروبا.

إن ما حدث في كندا لم يحدث بعد في أوروبا؛ ولكن أن الألوان لحدوثه. ألا وهو وضع سياسات تهدف لتغيير مواقف السكان المضيفين والتراجع عن الصور التاريخية للعنصرية والتحامل. وعندما نشر تقرير عن تعدد الثقافات في المملكة المتحدة في سنة ٢٠٠٠ (تقرير باريك) باقتراح أن يعيد المواطنون البريطانيون النظر في بعض مواقفهم من جماعات الأقليات هوجم من جهات عدة من الطيف السياسى.<sup>(١)</sup> ويقول شيئًا عن المسافة التى يجب قطعها في أوروبا وأن المملكة المتحدة ربما كانت البلد الذى فعل أفضل ما يمكن بين بلدان أوروبا في سبيل استيعاب المهاجرين واحتواء أحزاب اليمين المتطرف.

يحدد كيمليكا ثلاثة ظروف تساعد على النجاح في تبنى تعدد الثقافات. أولها أن من الصعب كسب التأييد الشعبى لو كان المستفيدون مهاجرين غير شرعيين. ومثل هؤلاء المهاجرين يُنظر إليهم في معظم البلدان على أنهم يستهزئون بسيادة القانون و "يتدافعون إلى أول الطابور". وثمة سلسلة متصلة هنا، أحد طرفيها كندا التى تضم أقل معدلات الهجرة غير الشرعية في البلدان المتقدمة وأعلى نسبة تأييد شعبي لتعدد الثقافات. وطرفها الآخر إيطاليا التى تضم أعلى معدلات الهجرة غير الشرعية في أوروبا ولا وجود فيها لتعدد الثقافات تقريبًا، وتخترن المشكلات الكبرى للمستقبل نتيجة لتهميش الأقليات الثقافية.

---

(1) Bikku Parekh et al., The Parekh Report: The Report of the Commission on the Future of Multiethnic Britain.  
<http://www.runnymedetrust.org/projects/meb/report.html>.

والمؤثر الثانى هو نوع الثقافات الذى يظهر فى تعدد الثقافات. فالتأيد الشعبى صعب المنال لو اعتُبرت الثقافات المعنية ضيقة الأفق، وهو موقف يتعلق اليوم بالمسلمين فى المقام الأول. فأكبر الأقليات فى كثير من بقاع أوروبا الغربية من المسلمين، بنسب تتراوح بين ٨٠ و ٩٠ بالمئة من الأقليات فى فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا. و«الغلبة العددية للمسلمين مضافاً إليها العنصرية وتيار العداء للإسلام تخلق تصوراً عاماً عن المهاجرين بأنهم ضيقو الأفق، وبالتالي عن تعدد الثقافات بأنه خطر معنوياً».<sup>(١)</sup>

والعامل الثالث يتمثل فى التأثير الاقتصادى الملموس للمهاجرين. فالمستفيدون من السياسات المتعددة الثقافات ينظر إليهم على أنهم يأخذون من دولة الرفاه أكثر مما يسهمون به فيها، لذا فالدعم الشعبى يتلاشى. وفى كندا ينظر للمهاجرين على أنهم مساهمون؛ ما يعكس حقيقة أن أغلبهم اختيروا بسبب ما يتمتعون به من مهارات أو مستويات تعليمية. هذا فى حين أن نسبة كبيرة من المهاجرين فى عديد من بلدان أوروبا من جماعات من مستعمرات سابقة أو مهاجرون غير شرعيين بلا أية مؤهلات.

قد يتوقف مستقبل تعدد الثقافات فى رأى كيمليكا على ما إذا أمكن للحكومات أن تقنع المواطنين بأن مزايا السياسات المتعددة الثقافات تستحق المجازفة. فهل سيكون هذا صعباً؟ ربما، ولكن فلننظر إلى البديل. فالفشل فى تطبيق السياسات المتعددة الثقافات هو ما يؤدى إلى الاستقطاب والشك المتبادل بين جماعات الأقليات والسكان المضيفين. وتعدد الثقافات لم يختبر بعد فى أوروبا. والاستثناء الوحيد المملكة المتحدة التى أثبتت أنها البلد الأنجح فى التعامل مع التعددية الثقافية وتحويلها إلى تأثير إيجابى.

---

(1) Kymlicka, 'Immigration, citizenship and multiculturalism', p. 32.

## إدارة الهجرة

لن ننقضى الآراء المؤيدة للهجرة والرافضة لها تفصيلاً - فهي معروفة وإن ظلت بعض جوانبها تثير كثيراً من الجدل. ولا مجال للتراجع عن التعددية، وسيظل المهاجرون يتوافقون سواء بصورة شرعية أو غير شرعية - ولو أن هناك تدفقاً كبيراً إلى خارج أغلب بلدان الاتحاد الأوربي أيضاً. وتتفاوت نسبة من ولدوا في الخارج تفاوتاً كبيراً بين مختلف البلدان، لا سيما إذا نظرنا إلى بلدان "منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية" (OECD) لا الاتحاد الأوربي وحده. كانت هذه النسب في سنة ٢٠٠٢ تتراوح بين ٥,٣ بالمئة في إسبانيا و٨,٣ بالمئة في بريطانيا و١٠ بالمئة في فرنسا وهولنده و١٢,٤ بالمئة في الولايات المتحدة و١٩,٣ بالمئة في كندا و٢٣ بالمئة في أستراليا.

ليس القبول الثقافي وحده ما يهم، بل الاندماج الاقتصادي أيضاً. ففي المرحلة الأولى من الهجرة الواسعة النطاق إلى أوروبا في الستينيات والسبعينيات كانت مشاركة الأيدي العاملة مرتفعة للغاية، وفي هذه الفترة كانت الهجرة تلقى التشجيع في أوروبا الغربية نظراً لارتفاع نسبة فرص العمل الشاغرة. ففي ألمانيا مثلاً كان ٧٥-٨٠ بالمئة من المهاجرين من تركيا ويوغسلافيا والبرتغال نشطين اقتصادياً.<sup>(١)</sup> وكان أغلبهم يجدون فرص عمل في التصنيع أو البناء. ولكن انخفضت هذه النسب إلى حد كبير في أوائل التسعينيات. ففي سنة ١٩٩٥ كانت نسبة العمالة بين الأتراك من الذكور في ألمانيا لا تزيد عن ٦١ بالمئة، وكانت نسبة البطالة بينهم مرتفعة. وتزيد نسبة البطالة بين الذكور والإناث ممن ولدوا

---

(1) Susan Martin, 'Economic integration of migrants', Discussion Paper, Transatlantic Learning Community, 12 August 1991.

بالخارج عن ٢٠ بالمئة حاليا في كل من فرنسا وبلجيكا وألمانيا. وهناك فروق واضحة هنا عن بلدان كالمملكة المتحدة والسويد حيث تزيد نسب عمالة المهاجرين في المتوسط وتنخفض نسب البطالة عن غيرها.

من المسلم به على نطاق واسع أن للهجرة مزايا اقتصادية كلية بالنسبة للمجتمع المضيف. وفي الولايات المتحدة بينت لجنة "المجلس القومي للبحوث" لشؤون الهجرة الأسباب في دراسة شاملة. فالمهاجرون يرفعون نسبة العرض في العمل، وأغلبهم متحمسون للغاية للعمل. ويساعدون في إنتاج سلع وخدمات جديدة. وبما أنهم يتلقون أجورا أقل من إجمالي قيمة هذه السلع والخدمات الجديدة فإن العمال المحليين يكسبون. كما تساعد الهجرة على الاستعانة بالعمال المحليين بشكل أكثر إنتاجية بالتخصص في إنتاج سلع وخدمات تزيد كفاءتهم فيها.

لكن مثل هذه المكاسب لا تتحقق إلا إذا كانت معدلات تشغيل المهاجرين مرتفعة نسبيا. وحيثما كانت هناك نسبة بطالة كبيرة بين المهاجرين، كما الحال في بعض بلدان أوروبا وفي بعض مناطقها ينتفي الأمر. وهى النقطة التى يخسر المجتمع عندها أقل في الاتحاد الأوربي منها في الولايات المتحدة؛ لأن مستوى المزايا أعلى. كما أن الهجرة ليست بالضرورة فى صالح العمال المحليين من أهل البلاد. فالإقتصاد القومى الكلى له كسب صافٍ، لكن العمال فى مواقع بعينها قد يجدون فرص عملهم مهددة. وبما أن هذا الوضع ينطبق بصورة خاصة على العمال الذكور المحليين غير المهرة فقد يكون هناك من يخسرون محليا.

والظروف تختلف بالنسبة للعمال المهرة بالطبع، لا سيما فى الصناعات ذات التقنية العالية والصناعات القائمة على المعرفة. وأغلب دول الاتحاد الأوربي حتى من تعاني معدلات بطالة مرتفعة لديها نقص فى العمالة فى هذه النوعيات من

فرص العمل. وفي البلدان التي تتخفّض فيها نسب البطالة هناك نقص أيضًا في مهن أخرى. فشرركات البناء في المملكة المتحدة تعاني نقصًا في العمالة الماهرة يبلغ ثلاثة أمثال المتوسط القومي في المهن الأخرى. كما أن هناك نقصًا في بعض أنواع العمل الذي لا يحتاج لمهارة أو يحتاج لمهارة متوسطة. فعدد من المزارع على سبيل المثال تعتمد على العمالة الموسمية المهاجرة.

تريد أغلب البلدان (وهي على حق) أن تحد من العمال غير المهرة من الوافدين عليها، وأن تزيد في الوقت نفسه من عدد العمال المهرة في القطاعات ذات الصلة. فوضعت الحصص. إلا أن حصص العمال غير المهرة تزيد عن الحد دائمًا - سواء بصورة مشروعة أو غير مشروعة - في حين أن حصص العمال المهرة لا تكتمل إلا فيما ندر. فالحصصة السنوية للعمال غير المهرة أو غير المؤهلين في الولايات المتحدة قدرها عشرة آلاف؛ وهناك أيضًا خمسون ألف تأشيرة تمنح من خلال اليانصيب على مستوى العالم، وكثير ممن يقع عليهم الاختيار بهذه الطريقة يفنقرون لأية مؤهلات. وفي كل سنة يدخل اليانصيب أحد عشر مليونًا، لكن الهجرة غير المشروعة تزيد عددًا بكثير ممن يدخلون بهذه الطريقة. من ناحية أخرى فالبلدان التي تسعى لزيادة أعداد العمال المؤهلين - في أوروبا على الأقل - لم تفلح حتى حين تقدم عروضًا جذابة. فنظام البطاقة الخضراء -والذي استحدثت في ألمانيا مثلاً- لم يحقق التوقعات من حيث الأعداد المجتذبة.

يبدو أن الحصص لها تأثير مباشر يتمثل في زيادة الهجرة غير الشرعية للعمال غير المهرة. وبلدان أوروبا التي سعت لتنظيم الهجرة من خلال الحصص اضطرت للعودة فيما بعد لتقنين أوضاع سيل المهاجرين غير الشرعيين الذين يتدفقون عليها. ومن هذه البلدان إسبانيا وإيطاليا. ففي إيطاليا قدم ثمانمئة ألف طلب في سنة ٢٠٠٤ ضمن هذه الخطة، وقدم عدد مماثل في إسبانيا في سنة ٢٠٠٥.

وهذه الأعداد الهائلة لم تحدث في أى مكان في العالم من قبل إلا مرة واحدة هي عملية تقنين الأوضاع التي جرت في الولايات المتحدة في سنة ١٩٨٦.

ليس ثم إطار موحد أو مبسط لسياسات التعامل مع القضايا التي يثيرها كل هذا. لكن هناك سبلاً عدة يمكن استكشافها للتحرك قدماً نحو توازن اقتصادي فعال. فأغلب الدول تشدد أحكام لم الشمل الأسرى. فلم الشمل الأسرى حين يفسر من منظور واسع الأفق يؤدي إلى جلب أعداد كبيرة من الأفراد غير المؤهلين أو نساء يبقين خارج قوة العمل. وبعضهم آباء وأمهات يختارون ألا ينضموا لقوة العمل حتى إن استطاعوا. ولو كان هؤلاء يعولهم اقتصادياً المهاجرون الأصليون أو المهاجرون فليس ثمة تكلفة إجمالية يتحملها المجتمع. إلا أنهم غالباً ما لا يتلقون أى دعم من هذا النوع، بل قد يزيد على ذلك حاجة المتقدمين في السن منهم إلى تكاليف طبية كبيرة.

من الحكمة الاقتداء بسياسة الولايات المتحدة وكندا وأستراليا في هذا الصدد، حيث قصر لم الشمل الأسرى على أفراد الأسرة النوواة مع الأولوية للزوجات والأزواج والأبناء تحت سن الثامنة عشرة. ويسمح بدخول والذى من حصل على الجنسية، ولكن بشرط أن يثبت المتقدم بطلب الاستقدام قدرته على الوفاء بالدعم المالي الكامل لهما. فلا بد من وضع حد لسلسلة الهجرة التي أدت إليها حرية دخول الأقارب.

لا سبيل لوقف الهجرة غير الشرعية بشكل نهائي، لكن هناك أملاً في إمكانية احتوائها. ومن سبل ذلك التحكم في الحدود ولو أنه كلما زاد تضيق الخناق زادت احتمالات حدوث مواقف مأساوية يعاني فيها من يحاول الدخول بطريقة غير شرعية مشكلات صعبة أو قد يفقد حياته. وقد يشمل التحكم الداخلي عقوبات على



من يستخدم مهاجرين غير شرعيين، والترحيل، والفرز الفعال لمستحقى اللجوء من غيرهم. ولا بد لسياسات البلدان الأصلية أن تلعب دوراً. فما يحدث فى شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وكذلك فى بلدان كأوكرانيا ومولدوفا وبيلاروسيا له تأثير على المدى المتوسط أو البعيد على الهجرة إلى بلدان الاتحاد الأوروبى.

ومن الاحتمالات الأخرى إعطاء حق "إعادة الانتشار" للعمال المهرة والمؤهلين مهنيًا. فكثير من العمال المؤهلين ممن يفدون إلى دول الاتحاد الأوروبى لا يعودون إلى بلادهم الأصلية خشية أن يحرّموا دخول البلد المضيف حين يريدون العودة. وهو وضع سيئ بالنسبة للأفراد المعنيين، ويحرم البلاد التى وفدت منها المهاجرون الاستفادة من مهاراتهم. ونظرًا لسهولة التنقل والاتصال حاليًا عبر العالم فمن الأجدى أن نفكر فى السماح لهم بحرية العودة إلى البلد المضيف حتى إن لم يكونوا حاصلين على جنسيته. فالسماح بحرية الذهاب والعودة أمر يمكن إقراره بشروط محددة لمختلف فئات العمال، كالمهنيين مثلاً أو العمال اليدويين المهرة أو العمال الموسميّين.<sup>(1)</sup>

## حرية التعبير

غيرت الهجرة طبيعتها فى عالم التواصل الفورى. و"العولمة الداخلية" - البنية الداخلية للمجتمعات - تعكس العولمة على نطاق عالمى. كانت هناك دائماً أنواع من الشتات، لكنها تتخذ شكلاً أكثر مباشرة واستمرارية. فالمهاجرون

---

(1) Patrick Weil, 'A flexible framework for a plural Europe', in Anthony Giddens, Patrick Diamond and Roger Liddle (eds.), Global Europe, Social Europe. Cambridge: Polity, 2006.

والأقليات الثقافية قد يفسرون تجربتهم المحلية على ضوء الأحداث الجارية في بقاع أخرى من العالم. وهذا الوضع يتضح بأجلى صورته في حالة الأقليات المسلمة.

إن "الإسلام والغرب" موضوع الساعة ولسبب وجيه. فبصرف النظر عن الأحداث العالمية خارج أوروبا هناك صراعات عديدة وصدامات وحوادث. فالحرب في يوغسلافيا السابقة "أعادت اكتشاف" الثقافة الإسلامية باعتبارها هدفاً للسخرية والكراهية. والخط الفاصل بين المسلمين وغيرهم لم يكن سمة بارزة في عهد تيتو. فأغلب من لهم كانت خلفية إسلامية لم يكن الأمر يمثل سمة حاسمة في حياتهم اليومية. ثم أضحت كذلك مع بدء النزاع، حيث منح تفاقم العدوات زخماً جديداً للصور النمطية القديمة.

شهدت السنوات القليلة الماضية هجمات إرهابية للمتطرفين الإسلاميين في مدريد ولندن؛ ومصرع تيو فان جوخ في هولنده؛ ومسيرات وتظاهرات في بلدان عديد في أنحاء العالم احتجاجاً على نشر صور فكاكية تسخر من النبي محمد في صحيفة دنماركية.

ظهرت الرسوم الفكاكية في صحيفة يلانديس بوستن، وهي صحيفة توزع مئة وخمسين ألف نسخة. فاتخذ رئيس تحريرها قراره بعد التشاور مع الرسام الفكاكي فرانك فام. وعلق فام بأنه ما كان ليجرؤ على السخرية من القرآن. وأضاف كيلى بلوتجن، وهو مؤلف كتب أطفال، أن الفنانين الذين تحدث إليهم بشأن رسم صور للكتاب الذى أعده عن النبي محمد أبدوا استعدادهم لرسمها بشرط عدم ذكر أسمائهم. وعندما نشرت الرسوم أول مرة كان رد الفعل الوحيد بضع رسائل غاضبة. وعندما تلقى اثنان من رسامي الصور الفكاكية تهديدات بالقتل ذاع الخبر على نطاق واسع، واحتدم الجدل حوله. وبعد نشر الصور مرة أخرى وفى

صحف عدة في بلدان عدة صار الحدث عالمياً. وأشعلت الصور مواجهات عنيفة في بلدان عدة حول العالم، ولقى أكثر من ثلاثين شخصاً مصرعهم نتيجة لذلك.

إن مشكلات العالم لم تعد مجرد "أحداث خارجية" في بقاع نائية، بل أصبحت أموراً تدخل بؤرة حياة كل امرئ في العالم. والمشكلات العالمية تواجهنا بشكل شخصي مهما حاولنا أن ننأى بأنفسنا عنها. فقرار فتاة مسلمة في لندن بارتداء الحجاب في الشارع وفي المدرسة أو في الكلية ربما لم يعد مجرد قرار فردي برىء. فهو أمر زاخر بالمعاني والمعاني المحتملة. فبعض النسوة يرتدين الحجاب باعتباره رمزاً دينياً أو دليلاً على الأصولية، والبعض الآخر يرتدينه لأسباب نسوية كرفض النظرة الجنسية من جانب الرجال. لكنهن جميعاً يدركن الأهمية العالمية الأشمل لما يرتدين.

هناك قضايا شتى تتعلق بالمجتمعات التي أصبحت علمانية في جوهرها وكيف تواجه التدين والتركيز المتجدد على المقدس. والمعارك التي بدت كأنها صارت جزءاً من الماضي عادت لتطل برأسها من جديد في الحاضر. وقد يقول قائل إن مبدأ المجتمع المفتوح نفسه يعد قبولاً بأن "لا شيء مقدس"، وأن كل العقائد مهما كان نوعها عرضة للمراجعة النقدية. وفي الولايات المتحدة - وإن لم يصل الأمر لدرجة تسترعى الانتباه في أوروبا بعد - بدأت الجماعات الدينية المتطرفي في مهاجمة العلم ورفض نظرية التطور وتسعى لمنع أنواع بعينها من البحث (كبحوث الخلايا الجذعية).

عادت مشكلة حرية التعبير التي بدت كأنها حلت تماماً في المجتمعات الحديثة لتتصدر المشهد بصورة درامية. ولذلك سبيان، أحدهما عودة المقدس، والآخر التهديد باللجوء للعنف أو اللجوء إليه فعلاً كلما ظهر ادعاء بتدنيس معتقد أو رمز ديني.

فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ نشرت صحيفة لوموند الفرنسية مقالاً يعلن قانلاً "نحن جميعاً أمريكيون الآن". وفى أعقاب قصة الرسوم الهزلية الدنماركية صدرت صحف أوربية عدة بعناوين رئيسة تقول "نحن جميعاً دنماركيون الآن". هل نحن كذلك فعلاً؟ وإن كان الحال كذلك فما معنى هذه العبارة عملنا؟ هل نحن جميعاً دنماركيون الآن؟ نعم، بمعنى أن حرية التعبير والفعل والاستعلام، بما فى ذلك نتائج القرارات الديمقراطية، لا يجب أن تخضع للعنف أو للتهديد به.<sup>(١)</sup> ولا يقتصر الأمر هنا على الجماعات ذات الوازع الدينى؛ فالمبدأ نفسه ينطبق على نشاط حقوق الحيوان ممن يهددون بمهاجمة المنشآت العلمية.

هل نحن جميعاً دنماركيون الآن؟ نعم، لو كانت هذه العبارة تعنى أيضاً الوقوف فى وجه التزمّت والتشدد. فالمسألة فى السياق الدينى هى مسألة مواجهة الأصولية، مسألة عدم السماح لأقلية صغيرة من أصحاب العقائد بالحديث باسم الأغلبية ضمن طائفة دينية ما. هناك مسؤولية جسيمة تقع على كاهل القادة المعتدلين فى كل الأديان، فالأصولية ليست مقصورة على الإسلام. وعلينا ألا نقع فى خطأ اختزال المعتقدات الأصولية فى الأسباب الاقتصادية. فهى نسخ متطرفة وممنهجة للعقائد الاندينية، ولها وهجها الخاص بها.

ومع ذلك فإن إغراءها أقوى بالنسبة لمن يعتبرون أنفسهم مضطهدين أو بلا أمل. فتقدم الجماعات الأصولية كتلك المرتبطة بالتطرف الإسلامى أجوبة واضحة عن تساؤلات عمن تسببوا فى شقائهم. إذن فليس غريباً أن تكون الأصولية الدينية مستعدة بعد أن اخفت الشيوعية أن تحل محلها. وأهمية الحرمان الاجتماعى

---

(١) كنت سأنبرى لأتساءل: وهل حرية السب لا تنطبق إلا على الإسلام والمسلمين؟ لم لا تنطبق حرية التعبير هذه على سب الأفراد من الأحياء أو على انتقاد محرقة اليهود مثلاً لولا أنى وجدت الرد المنصف من جانب المؤلف فيما بعد؟ (المترجم)

والاقتصادي في هذا السياق واضحة. ففي العالم العربي على سبيل المثال نجد أن من بين ٩٠ مليون شاب في المرحلة العمرية بين ١٨ و ٣٠ هناك ١٤ مليوناً عاطلون عن العمل، ككثير من أمثالهم ممن يعيشون في أوروبا.

هل نحن جميعاً دنماركيون الآن؟ السؤال أصعب من أن يجاب عليه لو كان القصد منه أن الرسوم الهزلية ما كان ينبغي أن تنتشر أصلاً. فحرية التعبير من شروط المجتمع الحر، لكنها ليست الشرط الوحيد؛ فهي ليست مبدأ مطلقاً ولن تكون. وحرية التعبير في المجتمعات الديمقراطية مطوقة بمؤهلات، وهناك دائماً جدل حول حدودها المناسبة. وهناك قوانين تحكم التشهير والتجريح والقذف وحماية القصر والتجديف وحديثاً خطاب الكراهية. وفي بلدان أوروبا هناك قوانين تحرم إنكار محرقة اليهود والعبارات المسيئة للسامية. ومن يخالف هذه القوانين يواجه عقوبات بالسجن.

في الجدل الدائر حول ما للرسوم الهزلية الدنماركية وما عليها - والتي أثرت حولها نقاشات عالمية ومنها الكثير على الشبكة العنكبوتية - كانت ثمة تعليقات عديدة من مسلمين يلفتون لهذه الحقيقة ويتساءلون لم لا تكون للناس حرية السخرية من محرقة اليهود أو مجرد المزاح بشأنها؟ ما الفارق بين ذلك ورسم صور هزلية عن بعض من أقدس رموز الإسلام؟ الفارق طفيف ويلفتنا إلى الصلة المعقدة دائماً بين الحقوق والمسؤوليات. فمن الصواب الاعتراف بأن بعض المعتقدات لها طابع خاص حساس، وأن نقر بأن هذه الحساسيات لها وقع خاص حين تكون هذه المعتقدات خاصة بفئات مهمشة في مجتمع ما. فكان قرار نشر الرسوم الهزلية وإعادة نشرها في الصحف الدنماركية معقداً لأن بعض شرائح المجتمع الدنماركي أصبحت تكره الأجانب مع وجود عدااء واضح ومنتام تجاه المسلمين.

كان لا بد للرسوم الهزلية أن تشعل موقفاً متوتراً أصلاً (ولدرجة أكبر مما يتصور أى أحد)، ولهذا السبب فإنى لا أعتقد أن من الحكمة أو المبادئ أن تنتشر أو يعاد نشرها. ولكن ليس ثمة قواعد يمكن وضعها لتنظيم قرارات من هذا النوع، ولا مفر من أن تترك للظروف والسياق، أى أنها مسألة موازنة بين المبادئ والظروف. وقد نجازف بعرض بعض الملاحظات، وأولها أن الحقوق والمسؤوليات متلازمة دوماً، فإذا كان للمرء الحق فى أن يقول شيئاً أو يفعله فإن هذا ليس معناه أن فعله يتسم بالمسؤولية. ثانياً، لدينا التزام بإيجاد فهم مرهف لمنظومات العقائد والممارسات التى تختلف عن عقائد الأغلبية. وهذه الحساسية لا بد أن تمتد لفهم سمات العقائد المقدسة.

وختاماً هناك بضع توصيات يمكن إيجازها فيما يلى:

١. ينبغى إعادة التوكيد على تعدد الثقافات لا التخلّى عنها (أيًا كان معنى ذلك). وهو أمر يتطابق تماماً مع أهمية تعلم اللغة القومية وتقبل الهوية القومية الكلية والإقرار بالتزامات المواطنة. ومشكلة بلدان أوربا ليست فى أنها متعددة الثقافات أكثر من اللازم، بل فى أنها ليست متعددة الثقافات بالقدر الكافى.

٢. سيتوقف التقدم وبصورة أساسية على إجراء إصلاحات اجتماعية واقتصادية أكبر، لا سيما فى البلدان التى ترتفع فيها نسبة البطالة أو فيها أسواق عمل منقسمة أو سمحت بنشأة تجمعات لأقليات، أو السمات الثلاث جميعاً معاً. إلا أننا لا نستطيع أن نخترل مشكلة التوفيق بين التعددية والتكافل فى الاعتبار الاجتماعية الاقتصادية وحدها.

٣. هناك سياسات بعينها لا بد من اتباعها لمواجهة العنصرية. ومع ذلك فالسياسة المثلى ضد العنصرية هي مساعدة الأقليات العرقية على النجاح. فقبل بضعة عقود كانت مستويات التحامل على الأقليات الصينية واليابانية أعلى من مثيلاتها ضد الأمريكيين الأفارقة. وتغيرت هذه المفاهيم بعد أن حققت هذه الفئات النجاح في المجتمع الأمريكي (وأيضاً بعد نجاح اليابان والصين على الساحة الدولية). والشئ نفسه يحدث الآن مع الهنود سواء في الولايات المتحدة أو أوروبا.

٤. كل النقاط التي أوردناها عن إصلاح الرعاية الاجتماعية ذات صلة بقضايا التعددية الثقافية والهجرة. والسياسات الموجهة لإيجاد مجتمع متكافل يجب أن تكون تدخلية، فيما يتصل بتعلم اللغة مثلاً، وغير ذلك كثير. وأهداف الرعاية الاجتماعية الإيجابية تتصل بصفة خاصة بالأقليات المهمشة التي تكافح من أجل كسب قبول المجتمع الأكبر. وتعد الثقافات نفسها يفترض هذه الصلات.

٥. لا قبل لأوروبا بالتعامل مع سيول المهاجرين غير المهرة وتحتاج لوضع سياسات تحد من الهجرة غير الشرعية. وهناك حاجة للمهاجرين المهرة، وينبغي تقديم إغراءات إيجابية تجتذبهم.

٦. الموضوعات التي كان يعتقد أنها منبئة الصلة عن قضايا الرعاية الاجتماعية انتقلت إلى بؤرة الأولويات. وتشمل موضوعات حرية التعبير والاستعلام والفعل. ويمكن للسياسات التي تتسم بالمبادرة أن تمنع المواجهات التي يمكن أن تندلع حولها، إلا أن هناك مشكلات تتعلق بالحلول ستظل دائماً متحيزة وحسب السياق.





## الفصل الخامس

### تغير نمط الحياة

نشأت دولة الرفاه التقليدية في مجتمع كانت الندرة فيه المشكلة الاجتماعية الكبرى، لا سيما في سياق فترة ما بعد الحرب مباشرة. إلا أننا في ظروف عديدة في المجتمعات بعد الصناعية نتعامل لا مع مشكلات ندرة الموارد، بل مع قضايا نمط الحياة. ولنتأمل مثال البدانة. في سنة ٢٠٠٤، وجد أن ٢٣ بالمئة من البالغين في الولايات المتحدة يحسبون بدناء. ولا يقل معدل انتشار البدانة عن ٢٠ بالمئة إلا في ولايتين في أمريكا، هما ماسشوستس وأوريجون. ولا تختلف النسبة كثيراً في دول الاتحاد الأوروبي الخمس عشرة الأساسية حيث تبلغ ١٦ بالمئة، والفجوة تضيق مع الولايات المتحدة. والبدانة تنشأ من اتباع حمية غير صحية وعدم ممارسة الرياضة، لا من ندرة الغذاء. تنتج عن الإفراط في تناول الطعام لا عن عدم وجود ما يؤكل.

إن أغلب القضايا البيئية بما فيها تغير المناخ العالمي لا تتعلق بندرة الموارد، بل بالإسراف في استغلالها. ومن الأمثلة على ذلك ازدحام المرور والتلوث. كانت لوس أنجلوس فيما مضى تعد بأن تكون مدينة المستقبل، إذ حققت الاستغلال الأمثل للمكان في علاقته بالتنقل الفردي. ولكن بتضاعف. تملك العربات تحولت إلى طريق مسدود اجتماعياً وبيئياً. فاخترقت الطرق السريعة الرئيسة بالعربات معظم اليوم، وتكاد العربات تتوقف فيها تماماً. وعلى الرغم من إجراءات

التحكم الصارمة لا تزال مستويات تلوث الهواء مرتفعة. ومدن أوروبا التي لم تصمم لحركة العربات سدت أيضا بالمرور في كثير من الحالات وتلوث.

تتوقف حلول كل هذه المشكلات تقريبا على تغيير نمط الحياة من جانب الأفراد، وهو تغيير لا يمكن فرضه من أعلى بسهولة. ودور الحكومة وغيرها من الجهات المعنية إيجاد مزيج من الحوافز والعقوبات يكون له تأثير فعلى على السلوك. فالبحث في البدانة مثلاً أثبت أن الخطط الحكومية التي تشجع الغذاء الصحي قد تترك أثراً لا سيما إذا تعززت بعقوبات. وتدل الشواهد من أحزمة المقاعد إلى التدخين والإيدز أن المواطنين يستجيبون للحملات العامة. فتغيير السلوكيات يمكن أن يحدث حتى حين تكون هناك جماعات قوية للغاية تقف في المواجهة. فشركات التبغ العملاقة مثلاً وقفت بكل قوة ضد تقييد التدخين في الأماكن العامة، ولكن نجح تقنين الحظر الكامل له في بعض البلدان.

من المهم أن نلاحظ أن قضايا نمط الحياة تتداخل بشدة مع التقسيمات الاجتماعية. وفي ذلك يكمن بعض من أكبر أزمت السياسات الاجتماعية. فالبدانة والتدخين الاعتيادي وإدمان الكحوليات والخلل العقلي وغير ذلك من عادات الحياة المدمرة يزداد معدل انتشارها بين شرائح الطبقة الدنيا عنه في الأوساط الأغنى. ففي المملكة المتحدة يقل متوسط الأعمار بين العمال اليدويين غير المهرة من الذكور بمقدار سبع سنوات عن نظيره لدى الرجال من الفئات المهنية. والفارق ست سنوات بين النساء. والعلاقة بين اعتلال الصحة والطبقة عكس ما كان عليه الحال في العقود الأولى من القرن العشرين. فقبل قرن من الزمان كانت البدانة والسكر والقلب من العلل الأكثر انتشاراً بين الأثرياء. فالبدانة على مر التاريخ وفي أغلب الثقافات دليل على الوفرة؛ أما الآن فالغنى أنحف غالباً من الفقير.

ومن المشكلات أن الأكثر احتياجاً لأن تصل إليهم رسائل الصحة العامة هم الأقل تأثراً بها على الأرجح. والحملات الصحية تؤدي في بعض الأحيان إلى دعم الانقسامات الاجتماعية لا إلى الحد منها؛ فالفئات المتعلمة هي الأكثر استجابة للمعلومات الصحية العامة والخاصة. والعوامل النفسية التي تربط أنماط الحياة المدمرة بالإقصاء الاجتماعي لا بد من التعامل معها من المنبع.<sup>(1)</sup> وكانت المفاهيم التقليدية عن الرعاية الصحية تقوم على معالجة المرض بعد الإصابة به أو اكتشافه. ولا يزال كثير من الأمور الطبية يدخل بالطبع ضمن هذا التصنيف. لكننا بحاجة للتحويل بدرجة أكبر إلى المثل الإيجابية للصحة، خاصة في مجتمع تكثر فيه الأمراض ذات الصلة بنمط الحياة.

كتب فرويد كثيراً عن الوسواس القهري في مطلع القرن العشرين. والسلوك القهري كما تناوله لا ينطبق إلا على سمات ثانوية نسبياً، كإعادة ترتيب الفراش أو غسل اليدين مراراً وتكراراً. أما في المجتمعات بعد الصناعية فزاد انتشار السلوك القهري وتقاطع بشكل مباشر مع الأخطار الصحية. وترتبط الأسباب بتآكل العادات والتقاليد، والذي يمثل الجانب الآخر من مجتمع يتسع فيه نطاق الخيارات في أنماط الحياة. فالاختيار جزء من حزمة التحول الديمقراطي اليومي. فهو يرتقي بالحرية والاستقلالية وبالتالي فهو قوة تحريرية. ومن ناحية أخرى هناك تخصصات مرضية جديدة تنشأ ولها علاقة بالغذاء وتناول الطعام والحمية. وما ارتفاع معدلات البدانة إلا مثال على العادات الغذائية ذات الطابع القهري. وفقدان الشهية على الطرف الآخر من المعادلة له الطابع نفسه. وكل فرد في المجتمعات الحديثة "يتبع حمية" منذ نشأة ثقافة محلات البقالة الكبرى وإنتاج الغذاء العالمي. أي أن كل فرد

---

(1) R. G. Wilkinson, *Unhealthy Societies: The Afflictions of Inequality*. London: Routledge, 1996: وما تلا من أعمال منشورة للمؤلف.

عليه أن "يقرر ماذا يأكل" في علاقته بالطريقة التي يعيش بها حياته. لكن العادات ما أن تستقر قد تتحول إلى سلوكيات قهرية وانحدار يصعب على الفرد أو يستحيل عليه أن يكبحه.<sup>(1)</sup>

والسلوك الإدماني يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعدم تقدير الذات حتى بين من حققوا نجاحاً اسمياً باهراً. فالمشكلات العقلية وما يرتبط بها من حالات كآبة تنشأ على شكل اضطرابات عقلية أولية في مرحلة عمرية تميل إلى الفردية. وليس الفقراء الفئة الأكثر في المجتمع بعد الصناعي كما يرى ريتشارد لايارد، بل المرضى عقلياً. فنسبة التعاسة بين المرضى عقلياً في المملكة المتحدة تساوى ثلاثة أمثال نظيرتها بين الفقراء (ولو أن هناك بعض التداخل بين الفئتين). وتقدر التكاليف على الاقتصاد بحوالي ٢ بالمئة من إجمالي الناتج المحلي. فمن مجموع سكان يزيد عن الستين مليون نسمة في المملكة المتحدة هناك خمسة ملايين مصابون بالاكتئاب أو حالات الاضطراب السريري، ويعجز العديد منهم عن أداء أى عمل اعتيادي. ويقول لايارد إن «المرض العقلي مشكلتنا الاجتماعية الأكبر حالياً، أكبر من الفقر».<sup>(2)</sup>

إن مفهوم الرفاه الإيجابي نفسه ينطوى على تغيير نمط الحياة سواء أ جاء هذا التغيير من جهود الفرد في الأساس أم كان في المقام الأول نتيجة لتدخل من جهات خارجية. ولا ينبغي النظر إلى "نمط الحياة" من منظور الاستهلاك وحده كما

---

(1) Susan Orbach, *Hunger Strike: Starving Amidst Plenty*. New York: Other Press, 2001.

(2) Richard Layard, 'Mental illness is now our biggest problem', *Guardian*, 14 September 2005.

يطالعنا في المجالات المصقولة. بل يشير إلى العادات والتوجهات التي يتبعها الناس في حياتهم اليومية، وعلاقة ذلك بإحساسهم بأنفسهم وبأهدافهم وطموحاتهم. ويكتسب نمط الحياة أهميته في المجتمعات بعد الصناعية من التحول الديمقراطي اليومي. فأغلب ما نعمله اليوم "اختياري": فنحن نتخذ قرارات في كل يوم، لا على أرضية ثابتة نسبيا من عادات أو تقاليد راسخة، بل على أرضية من معلومات متغيرة. فقرار "ماذا نأكل" مثلاً قد يعمل بالنسبة لكثيرين على خلفية من نقص الإمكانيات (ما يمكن أن تتحمله الموازنة) ولكن لم يعد باعثه نقص الإمكانيات.

تشمل قضايا نمط الحياة العمل والاستهلاك على السواء. وهي تحتل مكانة مهمة في القرارات المحيطة بأسواق العمل التقليدية. فعلى سبيل المثال لم يعد هناك توزيع واضح للعمل بين أدوار الجنسين، والقرارات تؤخذ بين شريكين فيما يتصل بالعمل المدفوع الأجر، والعمالة المحلية، ومتى ستحدث التحولات في مسار الحياة ولماذا. وهي ليست دائما قرارات مقصودة بالطبع، بل مجرد فعل بعينه يتخذ من بين اختيارات أو في إطار محكم من الاضطرار.

وتقدم العمر لا يعتبر من قضايا نمط الحياة في العادة، فيبدو أنه لا يشير إلا إلى الأعطاب التي يأتي بها الزمن إلى جسد الإنسان. وقد يعد مشكلة نادرة في جوهره، لأن الزمن من الموارد النادرة بالنسبة لنا جميعاً. ومع ذلك يمكن القول إنه لا مجال لفهم مسألة "المجتمع المسن" إلا من منظور نمط الحياة. وسنتناول في هذا الفصل التقدم في العمر إلى جانب الصحة والبيئة. وما يربط هذه المجالات معاً أن أنماط الحياة المتطورة التي تغري الناس بخيارات مختلفة من أنماط الحياة تقع في القلب منه.

## التقدم فى العمر و"عودة الشباب"

هناك تحولات فى العلاقة بين الأجيال فى المجتمع بعد الصناعى. و"المجتمع المسن" ليست الصفة المثلى لهذه القضايا. فقد نتحدث أيضاً عن "المجتمع المستعيد شبابه" (وسنفعل وإن بدت التسمية مستغربة بعض الشيء). فالشيخ يستعيد شبابه. ومن السمات المتميزة للمجتمع البريطانى أن التنوع المتزايد لأنماط الحياة يتواكب مع "تسطيح" مسار العمر. ولناخذ السلوك الجنسى مثلاً. فالشباب عادةً ينشطون جنسياً فى مرحلة عمرية أسبق من ذى قبل، فى سن الرابعة عشرة بل أقل فى الغالب. إلا أن الحياة الجنسية وصوغ العلاقات وإعادة صوغها تستمر الآن أيضاً حتى نهاية العمر لدى عدد متزايد من الناس. وعقائير أنماط الحياة ليست حكرًا على الشباب. وما حبوب الفياجرا إن لم تكن كذلك؟

إذن فالمسألة ليست أن المجتمع يتقدم فى السن، بل إن طبيعة التقدم فى العمر نفسها تتغير وستزداد تغيراً بلا شك. ومما لا شك فيه أن التقدم فى العمر يثير مشكلات عديدة للمجتمع الأكبر. إلا أنه يسهم أيضاً فى الحلول بأشكاله المتغيرة. فلماذا يعتبر المسنون غير صالحين للعمل لمجرد بلوغهم مرحلة ما من العمر؟ هناك دراسة حديثة أجريت على وظائف المخ، وبينت أن تراجع القدرات العقلية بين سن العشرين وسن السبعين ضئيل للغاية على فرض التساوى فى الغذاء ونمط الحياة. وبظهور طرق جديدة للقياس ثبت خطأ الاعتقاد القديم بأن خلايا المخ تموت مع التقدم فى السن. ويبين تصوير المصدر المغناطيسى الوظيفى أن مخ الأصحاء فى العقد التاسع من العمر لا يقل نشاطاً على مستوى أيسى عن مخ الأصحاء فى العقد الخامس.<sup>(1)</sup>

---

(1) Dennis Selkoe, 'The ageing mind: deciphering Alzheimer's disease and its antecedents', Daedalus, Winter 2006.

وفى الولايات المتحدة يظل ثلث من هم فوق الخامسة والستين من العمر فى أعمالهم أو يواصلون العمل فى فرص عمل جديدة. وتبين الإحصاءات أن ٥٠ بالمئة من الأمريكيين يتوقعون أن يواصلوا العمل فى السبعينيات من أعمارهم سواء اختيارياً أو لحاجتهم لكسب المال. وفى اليابان يقول ٧٨ بالمئة -ممن تتراوح أعمارهم بين ٥٥ و ٥٩- إنهم يخططون للعمل بعد الستين، وهو السن الرسمى للتقاعد. أما فى فرنسا فلا يزال العامل العادى يتقاعد فى سن التاسعة والخمسين على الرغم من أن متوسط العمر المتوقع ٨٣ سنة. وهناك بلدان أوربية أخرى اتخذت المزيد مما قد يغير الواقع. ففى أوائل التسعينيات لم يبق ضمن قوة العمل المدفوعة الأجر من الفنلنديين فى سن ٦٠-٦٤ سوى ٢٠ بالمئة. فأعدت الدولة "رواتب إضافية" لمن يوافق على العمل فى سن الثامنة والستين أو ما بعدها. وألزم أصحاب الأعمال بعمل برامج صحية لمنع إصابات العمل الثانوية من قبيل عرض الإرهاق المتكرر. والهدف مد عمر العمل لبضع سنوات لمن كانوا إما سيستسلمون أو سيسجلون أسماءهم فى سجلات المعوقين. وفى غضون عشر سنوات تضاعف معدل العمالة بين من هم فى سن ٦٠-٦٤. وعادت النتيجة بالإيجاب على مستويات أخرى؛ فانخفضت تكاليف التقاعد وزادت عوائد الضرائب وارتفع النمو الاقتصادى.<sup>(١)</sup>

والمتقدمون فى العمر يصبحون فى النهاية مسنين، والعديد منهم يصيبهم الهرم والوهن ويحتاجون للرعاية. إلا أن هناك فى المتوسط عشرين عاماً أو أكثر بين أعمار التقاعد المتعارف عليها وسن الهرم. وفى تلك الفترة يحتفظ كثير من الناس بنشاطهم ولياقتهم. من ثم فنحن بحاجة لفصل رواتب التقاعد عن فكرة التقاعد

---

(1) Stefan Theil, "The new old", Newsweek, 30 January 2006.

- وعن ما يترتب على التقاعد قانونياً. وإذا كان مستقبل النموذج الاجتماعي الأوربي يتوقف على الاستثمار في الشباب فهو يتوقف أيضا على حشد رأس المال البشرى والاجتماعي للمتقدمين في السن. كان خفض سن التقاعد إلى أدنى سن ممكن يعد فيما مضى أمراً من قبيل الاستنارة. وهي سياسة كان مردودها كارثياً. ولو ثبت سن التقاعد عند الستين فالنتيجة أن تبدأ الشركات في معاملة عمالها كأنهم ضمن كومة المهملات قبل الأوان بعشر سنوات. ويصبح التمييز العمري محصناً بشدة، وهو عكس ما يحتاج إليه مجتمع الرفاه بعد الصناعي تماماً.

على الدول إذن أن تتحرك صوب إلغاء تحديد سن رسمي للتقاعد أصلاً، كما جرى على مستوى فدرالى في الولايات المتحدة. وليس هناك إلا طريق واحد لحل "أزمة رواتب التقاعد" في أغلب بلدان الاتحاد الأوربي، هو إبقاء كثير من المتقدمين في العمر في العمل. ومرة أخرى نحن نرى مدى ارتباط السياسات بالإصلاحات الهيكلية العامة للنموذج الاجتماعي. فالبلدان التي لديها أعلى معدلات البطالة لديها أيضاً أدنى نسب بقاء المتقدمين في العمر في العمل. وإذا لم يكن ثم سن تقاعد محدد فإن مصطلح "متقاعد" بما به من إحياءات ازدرائية سيزول من الوجود. ويجب أن تكون مكافآت التقاعد متاحة في أعمار متباينة وصالحة للاستغلال في أغراض شتى أيضاً. ويجب دمجها في أسواق العمل الانتقالية أكثر مما هي الآن. ويمكن على سبيل المثال وضع حوافز لاستغلال بعض مكافآت التقاعد في تمويل إعادة التأهيل أو العطلات بدون راتب.

إن التمييز العمري والنفقة على أساس السن عائقان مهمان أمام محاولات خلق فرص أكثر إنتاجية أمام كبار السن وأمام استغلال مواهبهم بصورة مثمرة. والصعوبات الرئيسة سلوكية وثقافية. والصور النمطية للتمييز العمري ليست مجرد



مشكلة حين تأتى من جيل الشباب. فمن شأنها أن تحط من تقديرهم ذواتهم بل قد تؤثر حتى على قدراتهم البدنية والعقلية.

يمكن القول إن التمييز العمرى هو التمييز على أساس الجنس فى عصرنا، والمرأة المتقدمة فى السن تعاني كليهما بالطبع. وقد يفيد الإجراء القانونى فى صد التمييز على أساس السن، إذ قد يوفر رافعة لتغيير توجهات أعم. وموائيق الاتحاد الأوروبى الخاصة بالمساواة فى المعاملة فيما يتعلق بالعمالة تجبر كل دولة الأعضاء على سن تشريعات تحظر التمييز المباشر وغير المباشر فى العمل على أساس السن. والمشكلات ليست بالسهولة التى تبدو عليها، لأن العمال الشباب يتوقعون - ولهم الحق فى ذلك - أن تكون لهم الأولوية حين تفوق قدراتهم ومهاراتهم قدرات منافسيهم الأكبر سناً؛ ولم يعد السن يمثل أساساً لضمان بقاء المهارات كما كان الحال من قبل.

يساعد ازدياد نسبة الشباب فى المجتمع على مكافحة التمييز العمرى سواء داخلنا أو خارجنا. وأغلب الملاحظات المشار إليها أنفاً عن الرفاه الإيجابى تصدق أيضاً. وثبت أن اتباع نمط حياة صحى على سبيل المثال يمنع بعض الأمراض التى كان يعتقد أنها جزء لا يتجزأ من الشيخوخة. وهناك ما يثبت أنه يساعد أيضاً على مكافحة بعض الاضطرابات والإعاقات التى تصاحب الشيخوخة. ولا ندرى فى هذه اللحظة إلى أى مدى يمكن التغلب على المصاعب من هذا النوع أو ما إذا كان التقدم الاجتماعى والطبى يزيد من أعداد المسنين الضعفاء بزيادة أعمارهم، ولو أن هناك قصصاً لافتة فى هذا الصدد، منها قصة فاوجا سينغ، الذى يعيش فى المملكة المتحدة. إذ دأب على العدو فى الثمانينيات من عمره وفى أواسط التسعينيات كان لا يزال ينافس فى سباقات العدو.<sup>(1)</sup>

---

(1) Richard Askwith, 'Contender', Observer Sport Monthly, 6 April 2003.

إلى جانب إلغاء السن الرسمية للتقاعد هناك حق الناس فى العمل فى أى سن، ولا شرط فى ذلك سوى القدرة والجدية. لكن الفرص لا بد أن تتوفر. ولا بد للحكومات أن تتسق مع أصحاب العمل لتوفير فرص العمل لكبار السن ومكافحة التمييز العمرى فى مكان العمل. وليس ثم ما يمنع تشجيع المسنين على بدء مشروعات صغيرة بمفردهم أو بالتنسيق مع الغير. ومن المقولات الخطأ أن تعليم الشيوخ لا يجدى، وأثبتت البحوث الحديثة زيف هذه المقولة. فيقال إن الشباب جيل تقنية المعلومات، فى حين أن كبار السن يفشلون حتى فى تشغيل جهاز فيديو. هذه مقولة بها قدر كبير من الصحة، لكن السبب قد يكون العادة لا أكثر. فالدراسات تبين أن كبار السن لا يقلون عن الشباب فى سرعة إتقان تقنية المعلومات إذا وضعوا فى موقف يتوفر فيه الحافز والفرصة.

العنصر الغائب فى أغلب البلدان حتى الآن ولأسباب واضحة هو توافر فرص إعادة التدريب وإعادة التعليم لكبار السن. وأغلب الفرص المتاحة تهدف فى الأساس للتسلية ومن ذلك "جامعة العمر الثالث". والتعليم مدى الحياة فى أغلب البلدان مجرد عنوان براق بلا مضمون. ومن أسباب ذلك أن الجيل الحالى ممن هم فوق الخامسة والستين عايشوا أجواء عمل أكثر تقليدية تقل فيها فرص إعادة التدريب. وانتشار إعادة التعليم فى مراحل أو فترات مبكرة من العمر قد تثير شهية أكبر لمدتها لسنوات لاحقة.

وأخيراً لا بد أن نذكر المشاركة المحلية. فاحتياجات كبار السن ينبغي دمجها فى التخطيط الحضرى والمجتمعى بما فى ذلك فرص العمل والخدمات الاجتماعية والإسكان والنقل. والتطورات التى طرأت على إيجاد فرص العمل للمعوقين لا ينبغي أن تقتصر على الشباب. كما أن هناك كثيراً من أشغال القطاع الثالث بمرتب وبدون مرتب، ويمكن لكبار السن أن يلعبوا دوراً كبيراً فيها.

سيظل التقاعد إجراء شديد الانتشار بالطبع، وكثير من الناس يتطلعون إليه وليسوا على خطأ في ذلك. إلا أنه سيفقد طابعه الحاد المتمثل في كل شيء أو لا شيء، وذلك مع اتجاه أسواق العمل الانتقالية نحو الاستقرار على الفئات العمرية الشابة. وحتى من كانوا ينتظرون التقاعد قد يُمنحون فرصاً للعودة إلى سوق العمل أو المشاركة في أنشطة مفيدة اجتماعياً. أما الشيخوخة والهرم فافتراض مختلف، لأن تكاليف الرعاية مرتفعة للغاية في الغالب.

ونسبة كبيرة من كبار السن الضعفاء نساء، لأن المرأة تعمر أكثر من الرجل في العادة. لكن كثيراً من القائمين بالرعاية نساء أيضاً سواء بأجر أو بدون أجر. وهناك توترات كبرى هنا ولا بد من معالجتها بمزيد من السياسات. ففي دولة الرفاه التقليدية كان يفترض ولا يزال يؤخذ مأخذ التسليم اليوم أن النساء الأصغر سناً في العائلة سيتحملن معظم المسؤولية عن رعاية كبار السن فيها. إلا أن هذه الفرضية تتعارض مع حقيقة أن عمل المرأة الأصغر سناً ومسؤولياتها العائلية لا يتركان لها وقتاً للوفاء بمهام رعاية كهذه. وإذا تولتها وبالتالي تركت عملها المدفوع الأجر فثم خطر يتهدد دخلها حين يتقدم بها العمر بدورها. لذا فهناك اتجاه بأن يتولى كبار السن (من النساء عادة) وحتى الطاعنون في السن (من هم فوق الثمانين مثلاً) رعاية غيرهم، وهي مهمة ليست لهم درجة بها ويضطرون أحياناً لتولى المسؤولية عن نظم علاجية معقدة.<sup>(1)</sup>

سيمر أكثر من ٤٠ بالمئة من السكان من الرجال والنساء على السواء بفترة طويلة من الضعف والمرض المزمن في أواخر أعمارهم. فيصيب خرف

---

(1) Jane Jensen, 'The European social model. Gender and generational equality', in Anthony Giddens, Patrick Diamond and Roger Liddle (eds.), *Global Europe, Social Europe*. Cambridge: Polity, 2006.

الشيخوخة (ألزهايمر) وحده أكثر من ستة ملايين في بلدان الاتحاد الأوروبي، وهو عدد من المتوقع أن يتضاعف إلى ثلاثة أمثاله في أواسط القرن.

ولا بد أن تكون للدولة والقطاع الثالث والتنظيمات التجارية أدوار مهمة. فالإمداد بالخدمات المنزلية سيقوم به في الغالب شركات، حيث تقدم الدولة مثلاً بعض التمويل والرعاية الطبية المباشرة بينما يوفر القطاع الخاص والمجتمع المدني مزيجاً من العمل المدفوع الأجر والتطوعي. ومرة أخرى هناك خلافات مرتقبة مهمة حول قضايا الجنسين. والرعاية والمؤن المنزلية لكبار السن تتولاها نساء في الغالب، تبلغ نسبة النساء العاملات في هذه المهام أكثر من ٩٠ بالمئة في كل بلد من بلدان الاتحاد الأوروبي. ومعدل الأجور والضمان الوظيفي متدنيان للغاية. ولا بد لمبادرات السياسات المتعلقة بالمسنين الضعفاء أن تكون على الأقل مدمجة في برامج لضمان التوصل لنتائج أكثر إيجابية للجنسين.

ثم ارتباط وثيق بين هموم الشيخوخة والصحة. وإذا كنا نعلم أن العديد من أمراض الشيخوخة وجوانب عجزها يتصل بنمط الحياة فنحن لا نعلم بعد مدى تأثير ذلك على الوهن في أواخر العمر. ومن النكات المتداولة في مهنة الطب مقولة نقول: «أنتم معشر المسوخ المغرمة باللياقة البدنية مصيركم إلى مشهد مضحك ذات يوم حين ترفدون في مصحات وتموتون بلا سبب!» وهذه المزحة كأغلب النكات بها عبرة مؤداها أن المرء لا بد أن يموت بسبب. ولكن ليس من الواضح مدى حتمية الوهن نفسه، أو ما إذا كان تغيير نمط الحياة الأول يمكن أن يحد من تأثيره القوي.

## الصحة ونمط الحياة

إن تغيير أنماط الحياة في اتجاه إيجابي أمر ممكن. وهي ليست مسألة فرض الدولة أحكاماً على مواطنيها ضد إرادتهم. المهم دفع الأفراد - والتنظيمات - إلى أنماط مختلفة من السلوك بمساعدتهم على التوصل لتوافق جديد. ويمثل ربط حزام الأمان مثلاً توجيهاً لما يمكن تحقيقه وما ينتظر تحقيقه. كانت هناك مقاومة كبيرة لربط حزام الأمان في العربات في بلدان الغرب، ومن هذه المقاومة ما قام على أسس من الحريات المدنية، ومنها ما استند لما يسببه من إزعاج. واليوم يربط أكثر من ٧٠ بالمائة من سكان بلدان الاتحاد الأوربي الخمسة عشر الأساسية حزام الأمان في العربات بشكل دائم أو معظم الوقت حتى في الرحلات القصيرة. وفي بعض البلدان كالمملكة المتحدة يزيد هذا المتوسط عن ٨٥ بالمائة.

ومع ذلك ففي كل البلدان المتقدمة بما في ذلك الولايات المتحدة هناك نسبة مرتفعة من السائقين الشباب، ولا سيما الذكور لا يربطون أحزمة الأمان. وهناك صلة مباشرة ما بين مستوى إجمالي الناتج المحلي للفرد وربط حزام الأمان. فمعدل ربط حزام الأمان هو الأقل - ومعدل الوفاة والإصابة على الطرق هو الأعلى - في البرتغال واليونان. والفارق ليس سببه الفقر، فكل العربات في هذين البلدين مزودة بأحزمة الأمان. وبما أن حوادث العربات تتركز إلى حد كبير في السائقين من الشباب الذكور فربما كانت الإحصائية تعكس ثبات توجهات الذكور.

حوالي ٨٠ بالمائة من السائقين في الولايات المتحدة يربطون أحزمة الأمان، ولو أن بلوغ هذه النسبة استغرق وقتاً طويلاً واقتضى حملات توعية منظمة. وتساوى نسبة الضحايا من السائقين الذكور تحت سن ٢١ ضعف مثيلتها بين الأكبر

سنًا. وتبين البحوث الحديثة أن أكثر من نصف من هم تحت سن ٢١، ممن يلقون حتفهم في حوادث تصادم لا يربطون أحزمة الأمان. وحوادث الطرق السبب الأول للوفاة بين البالغين تحت سن الثلاثين. وفي السنة العادية يلقى ٣٢ ألفًا مصرعهم في حوادث طرق في الولايات المتحدة. ومن المقولات الشائعة: «لدينا مصل واق من السبب الأول لوفاة الأمريكيين في عمر ٢-٣٣، وهو حزام الأمان». والمرحلة القادمة من معركة التأثير على الرأي والأفعال في الولايات المتحدة وأوروبا هي مرحلة فرض الالتزام بربط أحزمة الأمان في المقاعد الخلفية من المركبات ذات المحركات.

إن الأمن والأمان ينطبقان على الوفاة والإصابة على الطرق بقدر ما ينطبقان على سائر المجالات التي تعامل عادةً باعتبارها ضمن هامش دولة الرفاه. وتمثل الحمية والصحة مجالاً رئيساً آخر. وفي الولايات المتحدة يزداد انتشار مرض السكرى بسرعة مع انتشار البدانة، لأن السكرى يرتبط بالبدانة ارتباطاً وثيقاً. وهناك ٩,٦ بالمئة من بين من هم فوق العشرين من أعمارهم في الولايات المتحدة - أكثر من ٢٠ مليوناً - مصابون بالسكرى. وتبلغ النسبة بين من تزيد أعمارهم عن الستين ٢١ بالمئة. وقدر إجمالي التكلفة الاقتصادية السنوية للسكرى في سنة ١٩٩٢ بحوالى ١٣٢ مليار دولار.<sup>(١)</sup> ويمثل علاج السكرى ١١ بالمئة من إجمالي نفقات الرعاية الصحية في الولايات المتحدة. وبعد مرض القلب الأكثر انتشاراً بين مضاعفات السكرى. وكثير من هذه الأمراض يمكن تجنبها نظرياً.

---

(١) هناك أصوات تتكرر ذلك. انظر Paul Campos, *The Obesity Myth: Why America's Obsession with Weight is Hazardous to Your Health*, New York: Gotham, 2004.

أعلى نسب البدانة في الاتحاد الأوروبي نجدها في المملكة المتحدة (٢٢) بالمئة)، تليها مالطة (٢٠ بالمئة).<sup>(١)</sup> ومع ذلك فهناك نسبة مرتفعة من الناس في بعض البلدان لديهم زيادة في الوزن، منهم على سبيل المثال ٤٥ بالمئة من الرجال في كل من اليونان وسلوفاكيا. وفي بعض بلدان الاتحاد الأوروبي نجد زيادة الوزن لدى أكثر من نصف السكان البالغين، وفي قليل من بقاع أوروبا تتجاوز نسبة الرجال من ذوى الوزن الزائد أو البدناء ٦٤ بالمئة، حسب أحدث الإحصاءات الأمريكية.<sup>(٢)</sup> والكلفة على السكان نتيجة لنظم الحماية غير الصحية وعدم الحركة مرتفعة بشكل غير عادى.

ويقدر أن تعداد الأطفال من ذوى الوزن الزائد أو البدناء في الاتحاد الأوروبي - واحد من كل أربعة - يزداد بأكثر من أربعمئة ألف في السنة يضافون إلى المئة والستين مليوناً من سكان الاتحاد الأوروبي من ذوى الوزن الزائد. وفي إسبانيا والبرتغال والمملكة المتحدة يدخل أكثر من ٣٠ بالمئة من الأطفال بين السابعة والحادية عشرة من أعمارهم ضمن ذوى الوزن الزائد أو البدناء. وتتفاوت نسبة الزيادة وتبلغ أقصى معدلاتها في كل من بريطانيا وبولنده.

لا يقتصر ارتفاع معدل البدانة على الولايات المتحدة أو أوروبا؛ إذ بلغ في اليابان حالياً ١٦ بالمئة بين الرجال وهو في ارتفاع، بما يهدد مكانة البلاد باعتبارها في مقدمة دول العالم من حيث طول العمر. فالحمية اليابانية التقليدية تركز على البروتين وتخفض فيها نسبة الدهون المشبعة، إلا أن نمط الاستهلاك تغير، حيث تحول جيل الشباب بصفة خاصة إلى نظم الغذاء الغربية.

---

(1) European Commission, Health in Europe. Eurostat, 2005.

(2) American Obesity Association: AOA Fact Sheets, at [http://www.obesity.org/subs/fastfacts/obesity\\_US.shtml](http://www.obesity.org/subs/fastfacts/obesity_US.shtml).

فى ديسمبر ٢٠٠٥، أصدرت المفوضية الأوروبية "ورقة خضراء" عن "الارتقاء بنظم الغذاء الصحية والنشاط البدنى" معلنة بذلك تدخلها المهم فى هذا المجال. تتناول الورقة "الانتشار الشديد للبدانة فى أوروبا" باعتباره "شأنًا يتعلق بالصحة العامة".<sup>(١)</sup> ومن بين عدد كبير من الاقتراحات الأخرى اقترحت المفوضية وضع قواعد على مستوى الاتحاد الأوروبى لضمان إعلان أن الأغذية التى تزيد فيها نسبة الملح والدهون والسكر لا تحوى فوائد صحية أو غذائية.

تبين الأمثلة من بعض الدول الأعضاء أن تغيير نمط الحياة أمر ممكن. ومن أشهر هذه الأمثلة فنلنده. كانت فنلنده فى ستينيات القرن العشرين تمثل النسبة الأعلى فى العالم الصناعى فى الوفيات بين الرجال نتيجة لأمراض القلب. وكانت المعدلات الأعلى فى منطقة بالقطاع الشرقى من البلاد بشمال كاريليا. كانت الزراعة ولاسيما إنتاج الألبان الصناعة السائدة فى المنطقة. وكان استهلاك منتجات الألبان العالية الدسم كاللبن والجبن الكامل الدسم أمرًا مألوفًا. وكان التدخين أكثر انتشارًا فيها من سائر المناطق.<sup>(٢)</sup> وبذلت محاولة لتغيير نمط الحياة فى شمال كاريليا أدت لبرامج أقرت فيما بعد فى سائر بقاع البلاد. فوضعت خطط فى أماكن العمل لإقناع الناس بتناول المزيد من الفواكه والخضراوات وفقدان الوزن والإقلاع عن التدخين. ووضعت برامج تليفزيونية يساعد الخبراء من خلالها الناس على تغيير نمط حياتهم الغذائية والصحية. وأقيمت مناظرات محلية عن المشكلات المتعلقة بالصحة، ما أدى لضغوط على المتاجر المحلية لزيادة تشكيلة الفواكه والخضراوات المعروضة للبيع. وبدأ تطبيق تشريع حظر التدخين الذى صدر فى

---

(1) European Commission, Green Paper, Brussels, 8 December 2005.

(2) Sirpa Seppanen, 'Finland: a case study in healthy eating',  
[editor@medmedia.ie](mailto:editor@medmedia.ie).



السبعينيات بشكل صارم فكان سابقاً على أى تشريع مماثل فى سائر البلدان. فحظر التدخين فى معظم المنشآت العامة؛ ومنع أى إعلان عن التبغ؛ ووجهت الضرائب على التبغ للدعاية ضد التدخين. وعمل القائمون على المشروع فى تعاون وثيق مع منتجى الأغذية وتجارها لخفض الدهون فى الأغذية وخفض نسبة الملح فى المنتجات الغذائية المصنعة.

كانت التغييرات التى طرأت على العادات اليومية هائلة فعممت منذ ذلك الحين فى بقية أنحاء البلاد. فانتقل متوسط النظام الغذائى فى فنلنده من خانة الأعلى فى الدهون المشبعة فى أوروبا إلى خانة الأدنى. وانخفض متوسط مستوى الكولسترول بصورة حادة فى غضون عشر سنوات تقريباً. وكانت نسبة عالية من الناس فى شمال كاريليا مصابة بارتفاع ضغط الدم، وكان أغلبهم لا يعرفون، فترك دون علاج. ونتيجة لتغيير الحمية الغذائية والقياس الدورى المعتاد انخفضت مستويات ارتفاع ضغط الدم انخفاضاً كبيراً. فكان انخفاض نسبة أمراض القلب فى شمال كاريليا ثم فى فنلنده كلها مشهوداً. وفى أوائل التسعينيات انخفضت الأزمات القلبية بنسبة ٧٥ بالمئة عما كانت عليه قبل عشرين سنة. والأهم أن هذه التغييرات انتشرت بين السكان جميعاً بما فى ذلك الفئات الفقيرة منهم.

هناك دروس مستفادة يمكن تعميمها على سائر مجالات تغيير أنماط الحياة. فالوعى بالعواقب المميتة لعدم ربط حزام الأمان لا يكفى وحده لإقناع الناس بربطه، والشئ نفسه يصدق على الإقلاع عن العادات الغذائية الضارة. فلا بد من وضع حوافز وعقوبات إلى جانب شن حملات تحث على أهمية تغيير السلوك. وكما الحال فى التدخين هناك نسبة من الناس تتبع عادات مدمرة تمثل استفزازاً متمعداً أو تحدياً للقدر.

يحدث التغيير الإيجابي للسلوك عادةً في سياق منطقي لا على شكل مجموعة قرارات يتخذها الفرد بمعزل عن غيره. فهناك برنامج فنلندي مستقل لخفض مرض السكرى حقق نجاحاً باهرًا. يركز هذا البرنامج على التفاعل بين تغييرات عدة في نمط الحياة، ويركز في ذلك إلى جماعات محلية من "الرواد"، ويقدم المشورة لمن يجد صعوبة في تغيير عاداته. ويعد مشروع "قرار واحد صغير في اليوم" استمر من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٣ مثالاً على هذا المسعى.<sup>(١)</sup> وتلقى المشاركون دعماً من جماعة أقدم لإحداث تغييرات تدريجية في أنماط حياتهم عن طريق مجموعات مساعدة الذات. وكانت النتائج مبشرة أيضاً.

وضعت إحدى مجموعات الرعاية الصحية في المملكة المتحدة برنامجاً على غرار أمثاله في فنلنده. وكان الهدف الحد من البدانة ومعها أمراض القلب والسكرى. وقالت المجموعة إن كل كيلوجرام وزن يفقده مريض السكرى يساوى زيادة ٣-٤ أشهر في عمره المتوقع. وكل كيلوجرام زيادة في الوزن يزيد من فرصة الإصابة بالسكرى بنسبة ٤,٥ بالمئة. وضم البرنامج مجلساً للتشاور الجماعى يعقد مرة كل أسبوع لاستكشاف عادات الناس ومحفزات الثقة بالنفس وقياس مستوياتها. ومن بين ٩١٥ شخصاً أجريت معهم مقابلة بعد ١٢ أسبوعاً فقد ٧٦ بالمئة جزءاً من وزنهم على الرغم من المحاولات المتكررة والفاشلة التى بذلوها لهذا الغرض قبل بدء البرنامج. وجميعهم تقريباً فقدوا المزيد من الوزن بعد ستة أشهر. زاد ٩٠ بالمئة منهم من استهلاك الفواكه والخضراوات، وزادوا جميعاً

---

(١) برنامج لمنع المستوى الثانى من مرض السكرى فى فنلنده ٢٠٠٣-٢٠١٠ فى

[www.diabetes.fi/English/prevention/programme/chapter12-3.html](http://www.diabetes.fi/English/prevention/programme/chapter12-3.html).

من نشاطهم البدني. ولم تزد تكلفة البرنامج لكل مريض عن ١١٣ جنيهًا في مدة اثني عشر شهرًا.<sup>(١)</sup>

وكما في حالة ربط أحزمة المقاعد من الخطأ الاعتقاد بأن هذه البرامج والمقاربات تحد من الحريات الفردية بصورة ما. فالحرية نجدها في زيادة استقلالية الفعل، وفي الحصول على فرصة لاتخاذ قرارات تمس نمط الحياة بطريقة فعالة. وتؤكد الدراسات المتعلقة بالبدانة والأمراض المرتبطة بها على مدى ارتباطها بالسلوك الإدماني، حيث يفقد الفرد السيطرة على أجزاء كبرى من حياته. وتغيير نمط الحياة تصاحبه دائمًا استعادة لتقدير الذات. وأهمية هذه العوامل عند الفقراء أكبر منها لدى الأغنياء.

ربما كانت إضافة سنوات للعمر تمثل مشكلة للمجتمع. فإذا عاش من كانوا يقصرون أعمارهم ليزدادوا ضعفًا واحتياجًا للرعاية، ألن ترتفع كلفتهم الطبية؟ الإجابة لا، طالما واصل أغلبهم حياتهم بنشاط - وبعضهم يعملون بعد سن التقاعد الرسمي. ويقدر أن مكاسب الرفاه من زيادة الأعمار المتوقعة بين ١٩٧٠ و ٢٠٠٠ تساوى إجمالي النمو الاقتصادي في الفترة نفسها.<sup>(٢)</sup> فخفض نسبة حدوث الأزمات القلبية أدى إلى مزايا تساوى أضعاف تكلفة الرعاية الطبية المطلوبة بعدها.

أثبتت الحملات القومية والدولية الخاصة بشركات الغذاء الكبرى أنها يمكن أن تؤثر إلى حد كبير. وهناك تحولات كبرى في الطرق التي تتبناها الشركات في إنتاج الأغذية وتوزيعها، تحولات في الوعي يمكن أن تتواصل من حيث المبدأ مع

---

(1) Diabetes UK, 'Sharing practice in diabetes care', at [www.diabetes.org.uk/sharedpractice/spexample.asp.id=1258](http://www.diabetes.org.uk/sharedpractice/spexample.asp.id=1258).

(2) Henry J. Aaron, 'Longer life-spans: boon or burden?', Daedalus, Winter 2006, p. 16.

التعليم العام وتغير الأذواق. وربما اقتضى الأمر تشديد هذه السياسات عما هي عليه حالياً. ومن سبل تحقيق ذلك مبدأ التأمين. فالأغذية التي تحتوى على كميات كبيرة من الملح والسكر مثلاً لها نتائج معروفة من حيث تأثيراتها الضارة على الصحة؛ والشركات التي ترفض تعديل منتجاتها يمكن مساءلتها قانونياً. والمبدأ البيئي الذى يغرم من يلوث البيئة لا يزال بعيداً عن حيز التنفيذ فى أى مجتمع؛ لكنه يمكن أن يشكل أساس إصلاح السياسات فيما وراء المجال البيئي بتعريفه الضيق. فالمنتجات الغذائية التى لا تراعى المبادئ الأساسية للتغذية، والتى يجب النص عليها فى القانون - تخضع للمطالبات التأمينية كما حدث مع التدخين.

يتأثر تركيز الكولسترول تأثيراً مباشراً بالحمية الغذائية، وهذا التركيز يؤثر بدوره على انتشار أمراض القلب.<sup>(1)</sup> والإصابة بأمراض القلب يمكن التنبؤ بها من متوسط مستوى تركيز الكولسترول. فالزيادة بنسبة ٠,٦ مل تؤدى إلى زيادة فرص الوفاة بأمراض القلب بنسبة ٣٨ بالمئة؛ والعكس بالعكس إذا انخفضت نسبة الكولسترول.

يقول إخصائى القلب توم مارشال إن الضرائب يمكن استغلالها فى التعجيل بتغيير مواقف المصنعين والمستهلكين. وأية تغييرات طفيفة فى الأسعار النسبية للبدائل قد تؤدى لتغييرات جذرية فى السلوك. لذا فإن إحداث فارق قدره ١٠ بالمئة بين سعرى البنزين المعالج بالرصاص وغير المعالج بالرصاص فى المملكة المتحدة أدى لتحول جذرى نحو استخدام الوقود غير المعالج بالرصاص، وشجع المصنعين على إنتاج عربات تستخدم وقوداً أقل ضرراً بالبيئة. وليس ثمة ضريبة

---

(1) Tom Marshall, 'Exploring fiscal food policy', British Medical Journal: at <http://bmj.bmjournals.com/cgi/content/full/320/7230/301>.

قيمة إضافية حاليًا على معظم الأغذية. وثمة طريقة بسيطة لتغيير الإطار الحالى تتمثل فى مد ضريبة القيمة الإضافية إلى الأغذية التى تحوى نسبة عالية من الدهون المشبعة. قد يؤدى هذا فى المملكة المتحدة إلى خفض نسبة الوفيات نتيجة للأزمات القلبية بمعدل ٢٥٠٠ حالة فى السنة.<sup>(١)</sup>

ينطبق مبدأ التدخل الوقائى وبقوة أكبر على ما يمس الصحة منه على غيرها. وبالطبع يعمل خبراء الصحة دائمًا على نشر تمارين رياضية للياقة البدنية ودروس فى التريبات الرياضية ويحثون على ممارسة الرياضة. كان المشهد الصحى قبل خمسين سنة يبدو مختلفًا تمامًا عنه اليوم. وكانت نسبة الأمراض المعروفة صلتها بنمط الحياة أقل؛ وكذلك كان الحال بالنسبة للأمراض المرتبطة بالشيخوخة. وتطورت نظم الرعاية الصحية المرتبطة بالنقاهاة بشكل أسرع من تلك المرتبطة بالطب الوقائى، وهو توجه لا بد من عكسه.

من الشائع القول بأن من أسباب انتشار أنماط الحياة غير الصحية بين الفقراء بصورة تفوق انتشارها بين القادرين أن الفقراء لا قبل لهم بتناول الطعام الصحى. إلا أن هذا ليس صحيحًا. فهناك دراسة أجريت فى الولايات المتحدة أثبتت أن الشرائح الأفقر فى أمريكا فى سنة ١٩٦٥ تتناول طعامًا أفضل مما يتناوله القادرون. فالحبوب والبقوليات والأرز الكامل الحبة شائع فى غذائهم. وهم فى الوقت نفسه لا طاقة لهم بأغذية كاللحوم الحمراء والزبد.<sup>(٢)</sup> كما أن الفروق فى

---

(١) لكن اقتراحات مارشال تعرضت لانتقادات. انظر Eileen Kennedy and Susan Offutt, 'Attentive intuition outcomes using a fiscal food policy' على الموقع نفسه.

(2) Daniel Haney, 'Better diets mean that everyone eats more like the poor', at <http://archive.tri-cityherald.com/HEALTH/nutrition/nutris.html>.

الغذاء بين الفقراء والقادرين حالياً مبالغ فيها. وهناك اتجاه متنامٍ بين كل الفئات بتناول الطعام خارج البيت، حيث يصعب التحكم في نسبة الدهون والملح والسكر. والفروق بين الشرائح الطبقيّة في الصحة والوفيات تتمثل جزئياً في العادات الغذائية، ولكنها تعكس ارتفاعاً في متوسط ممارسة الرياضة وتدني مستويات التدخين.

ما مدى حريتنا في الإساءة لأجسامنا التي لا يشاركنا فيها أحد؟ الإجابة واضحة: نحن أحرار في ذلك. إلا أن هذه الحرية يجب أن تكون حقيقة لا مجرد شكلية. والمسائل هنا أبعد ما تكون عن المباشرة. فما سبب حظر تعاطي الهيروين في معظم البلدان؟ ليس السبب (بالضرورة) تسلطاً متأصلاً؛ بل السبب الاستدلال بأن المدمن أقل حرية واستقلالية ممن ينأى بنفسه عن عادة كهذه.

وهناك سبب آخر هو أن متعاطي المخدرات يخلق تكاليف على غيره. فهو قد يلجأ للجريمة لتلبية حاجته، وقد يتحول إلى العنف، وقد يعجز عن إنشاء علاقات اجتماعية مستقرة، ويحمل غيره تكاليف طبية. وليس هناك إلا ما ندر من أشكال الإساءة البدنية التي لا تفرض عقوبات على الغير. لذا ففكرة ضرورة حث مدمن الكحوليات على الإقلاع عن هذه العادة تلقى تأييداً شعبياً عاماً؛ وللبرامج العامة وجماعات المساعدة الذاتية دور مهم في العمل على الحد من هذه الظاهرة. وتعد "مدمن الخمر المجهول" من أوائل جمعيات المساعدة الذاتية العالمية، وحقت نجاحاً باهراً في تغيير السلوكيات.

تعمل جماعات المساعدة الذاتية على مساعدة الفرد على إعادة صوغ شعوره بهويته وبالتالي تقديره ذاته. ففي اللقاءات الجماعية يسرد الأفراد توارих حياتهم

بصراحة وينخرطون فى عملية إعادة بناء نفسية. وهكذا فالإدمان لا يقتصر على الكحوليات، بل يعكس مشكلات وهواجس أخرى فى حياة الفرد. والفكرة لم تلق قبولاً عاماً بعد، ولكن لم لا تمتد توجهات كهذه لتشمل عادات ضارة فى سائر مناحى حياة الناس، بما فى ذلك العادات الغذائية الضارة؟

هذه الأفكار والاقتراحات لا تدل ضمناً على أى نوع من التزمّت أو على مجتمع يديره مدربو لياقة وخبراء تغذية. فالحياة الطيبة تعنى أكثر من ذلك بكثير. وكان الأديب الفرنسى جان برىا سافاران فى القرن التاسع عشر يرى أن سر الصحة الجيدة يكمن فى الاستغناء عن السكريات. وكان يعرف ما قد تجلبه نصائحه من رد فعل. فسيقول الناس: «يا له من شقى هذا المعلم ... فهو يمنعنا من كل شىء تهواه أنفسنا، تلك اللفائف البيضاء الصغيرة من ليميه وكعكات أكار والفطائر وكثير من الأشياء التى تصنع من الدقيق والزبد، أو من الدقيق والسكر، ومن الدقيق والسكر والبيض!»<sup>(1)</sup>

"كثير من الأشياء" تجعل الحياة أفضل قليلاً، لكن هذه الملاحظة بعيدة كل البعد عن العادات التى تفوق قدرة الخدمات الصحية فى أى مجتمع. والحميات الغذائية الثابتة فى بعض بقاع أوروبا تشتهر بأنها صحية ومنها "حمية المتوسط". وهى لا تقتصر إلى الطعام والإحساس وكل ما يجعل الطعام متعة. وعلينا أن ننشر هذه الحميات بدلاً من أن نتركها تضيع سدى. والناس يتحدثون كثيراً عن القيم الأوروبية. ألا يمكن اعتبار الحمية الصحية من بينها؟

---

(1) Gina Kalota, 'Roasting the notion of low-fat diets', Herald Tribune, 16 February 2006.

## البيئة

هناك صلات وثيقة بين الصحة والبيئة. ومن المعروف أن تلوث البيئة قد تكون له آثار سامة. فتلوث الهواء مثلاً يؤثر على مرضى الربو أو المصابين بغيره من مشكلات الجهاز التنفسي. وهناك جدل واسع حول مدى تأثير العوامل البيئية على الصحة. وقبل بضع سنوات نشر ثيو كولبرن ومؤلفون آخرون كتاباً بعنوان "مستقبلنا المسروق".<sup>(١)</sup> وحوى الكتاب تصديراً بقلم آل غور، نائب الرئيس الأمريكى آنذاك. يرى مؤلفو الكتاب أن الكيماويات من صنع الإنسان تصيب العمليات الهرمونية البشرية بالخلل وتؤدى على المدى الطويل إلى تدهور فى خصوبة الذكور، كما تخلق أشكالاً شتى من السرطان. وتعرضت فرضيتهم للنقد على أساس افتقارها للشواهد وزيف استدلالها. إلا أن هذا لم يقض على شكوك الأوساط العلمية فى أن المبيدات وسائر الكيماويات قد تؤثر بالسلب على عمل الجسم البشرى العادى.

والبيئة ليست خارجنا وحسب؛ فنظراً لتفاعلاتنا معها فى مسار حياتنا الفردية والجماعية فهى تدخل بسبل شتى فى هويتنا وما نعمل. وهذه العبارة تصدق مثلاً على ما نتناول من غذاء، والذى لم يعد "طبيعياً" حتى إذا زرع عضوياً. وعلى مستوى أعمق فلا شك أن ما كان يبدو كأنه "خارج" النطاق البشرى بدأ يصبح "داخله"، وما الهندسة الوراثية إلا أحد الأمثلة على هذه الظاهرة.

هذه الابتكارات صارت جزءاً من حياتنا ولا رجعة فيها. وإنه لمن الخطأ أن يعامل العلم والتقنية على أنهما عدوان للبيئة. فما كنا لنعرف شيئاً عن مشكلاتنا

---

(1) Theo Colburn et al., Our Stolen Future. New York: Dutton, 1996.



البيئة الكبرى لولاها، ولا أمل في حلها بدونهما. والعالم يدين بالكثير لحركة الخضر التي وضعت قضايا البيئة ضمن الأولويات السياسية قسراً. إلا أننا لا بد أن نبدي بعض التحفظات على تأثيرها. فهي كثيراً ما قدمت نفسها في صورة من يعادى العلم والسوق والنمو لا سيما في مستهل ظهورها.

وفكرة "العودة للطبيعة"، والتي يقوم عليها مصطلح "خضر" نفسه ليس منطوقاً، لأن الحد الفاصل بين "الطبيعي" و"البشرى" يتغير باستمرار وسيواصل الغير. فلا جدوى مثلاً من الوقوف ضد المحاصيل المعدلة وراثياً لمجرد أنها "تسوء" ما يجب تركه "للطبيعة" لكي تتعامل معه. و"التدخل" الأكبر في الطبيعة والذي تمثله المحاصيل المعدلة وراثياً قد يحد من الاعتماد على المبيدات بما قد يكون لذلك من آثار بيئية ضارة.

غالباً ما يصيب اليأس حركة الخضر من سلبية المواطنين في مواجهة الأخطار التي تهدد البيئة. فيقول أحد أعضائها: «دعكم من الفرضية العتيقة التي تقول إن المعلومات وحدها كافية بإنقاذ العالم. فحركة الخضر تضخ المعلومات منذ وقت طويل على فرض أنها تؤدي إلى الوعي بالتهديدات والمشكلات، ثم إلى الاهتمام ثم الفعل». ويواصل قائلاً: «إن أغلب القرارات المتعلقة بنمط الحياة لدى الناس "العاديين" لا تتخذ بناءً على ندارس منطقي للحقائق في المقام الأول». (1) لكن "الناس العاديين" ليسوا بالحمق الذي يعتقد الكاتب. فكثير من التأكيدات التي كانت تطلق منذ مدة طويلة عن الأخطار التي تتهدد البيئة كانت أكثر إثارة للجدل مما أصبحت عليه بعد أن ثبتت الشواهد. ولم يجدِ نفعاً ثبوت خطأ تقديرات "نادى روما"

---

(1) 'Focus on public participation: the green-engage project and painting the town green', at [www.transport2000.org.uk](http://www.transport2000.org.uk), p. 2.

الأصلى عن حدود النمو. وطرح بعض العلماء اعتراضات نقدية على دعاوى أنصار البيئة فى السبعينيات والثمانينيات، ولا تزال هناك قلة ترى أن تهديدات التغير المناخى مبالغ فيها.<sup>(١)</sup> ولم يتحقق الإجماع إلا منذ عهد قريب نسبياً مع ظهور أمارات الخطر أمام أعين الناس.

لا شك أن حافز تغيير السلوك يتنامى فى مواجهة هذه التطورات. ولكن تغيير السلوك إلى ماذا؟ هنا يجب أن نفكر بشكل أعمق من ذى قبل. وقد نبداً بوضع مفهوم "الخضر" ومجموعة المصطلحات المرتبطة به موضع التساؤل. فالرمز وإيحاءاته كلها خطأ وتوحى برمزية ريفية لا حضرية، وتشير ضمناً إلى تعافى "الطبيعة". ولماذا يقف كل هؤلاء فى حركة الخضر ضد الطاقة النووية؟ هناك بالطبع أسباب مقنعة للاعتراض على انتشار الطاقة النووية. لكن بعض العداء مصدره قلق على العلم والتقنية، مع أنهما محوريان فى حل مشكلات البيئة.

وعلى أرض الواقع أرى ضرورة التخلّى عن بعض المفاهيم المرتبطة بـ "الخضر" من قبيل "البصمة البيئية" و"الاستدامة" (نظراً لغموضه العام). وعلينا أن نبحث عن وعى بيئى مختلف يمكن دمجه بسهولة فى إطار أوسع من سياسة الرفاه والمواطنة، وبحيث يرتبط بشكل مباشر بما يتخذ الناس من قرارات فى حياتهم اليومية. فالبيئة باختصار بحاجة لأن توضع فى بؤرة مزيج الحقوق والالتزامات التى تحدد سائر مجالات الرفاه والمسؤولية الاجتماعية، وبالتقاء مماثل بين الأثر والإيثار.

---

(٢) انظر الجدل الدائر حول Bjørn Lomborg, *The Skeptical Environmentalists*. Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

وكيف تتحقق هذه الأهداف؟ أولاً، لا بد من وجود وعى واضح وعام بالخطر لا فى المستقبل المرتقب البعيد، بل هنا وعلى الفور. والخطر القادم من التغير المناخى يتزامن مع الأخطار الجغرافية-السياسية على إمدادات الطاقة. وإدارة الخطر مسألة فى غاية الصعوبة بالنسبة للحكومات، لأن إثارة الذعر المتواصلة يأتى بنتيجة عكسية. ولكن لا شك أن حملات التوعية العامة لا سيما لو قامت على التحام بالفئات المحلية قد تؤثر فى رفع الوعى كما يحدث فى مجالات أخرى.

وهناك مجموعة من الحوافز والعقوبات الضريبية التى تمس السلوك اليومى أكبر مما نجد فى أى بلد يجب إقرارها. فالبينة لم تعد متاحة باعتبارها خيراً مجانياً على الأقل فيما يتصل بالجوانب الضارة من التصرفات البشرية اليومية. والحوافز الضريبية يجب تعديلها وفقاً لقوى السوق فى المقام الأول، لأن التحولات فى طلب المستهلك تساعد على دفع الابتكار التقنى وتغيير المنتج لدى المنتجين. وهناك بلدان استحدثت ضرائب الكربون بالطبع، وأنشأ الاتحاد الأوروبى "أسواق الكربون" حيث يمكن شراء وحدات الاستهلاك وبيعها بغرض الحد من التلوث. وكل هذه ترتيبات تسبق الآليات التى ينبغى إقرارها على مستوى عالمى أوسع من خلال اتفاقية كيوتو.

إن التغييرات فى العادات اليومية يمكن أن تحدث فارقاً هائلاً فيما يتصل بالطلب على الطاقة والتلوث. فالعزل الكامل للبيت قد يحد من تكاليف التدفئة ومن استهلاك موارد الطاقة بنسبة قد تصل إلى ٥٠ بالمئة. والمصابيح المنخفضة الطاقة تدوم لمدة أطول من المصابيح العادية بعشر مرات، وتحد من استهلاك الطاقة بنسبة تصل إلى ٨٠ بالمئة. فيجب دعمها بالإعفاءات الضريبية.

علينا أن نبحث قدر الإمكان عن ابتكارات في السياسات تتوافق فيها الأهداف البيئية وسائر أغراض الحياة. وهناك كثير منها. فتخفيف الزحام في المدن وغير ذلك من وسائل الحد من المرور يحسن البيئة اليومية وله فوائد صحية كبيرة. ولممارسة الرياضة فوائد صحية إيجابية للجميع؛ والسير بدلاً من ركوب وسائل نقل ميكانيكية له مردود فردي واجتماعي. وللحد من الجريمة وتحسين الأمن في الضواحي نتائج متعددة أيضاً؛ إذ يسمح للآباء والأطفال بالسير أو ركوب وسائل النقل العامة للوصول إلى المدارس بدلاً من ركوب العربات.

### صدمة التغير المناخي وصدمة الطاقة

قد يتطلب التحول في السلوك البيئي صدمة لكى ينطلق. والصدمة أو الصدمات تحدث فعلاً وقد تكفى لإحداث تحول تدريجي في المواقف اليومية. ولا أحد يدري ما إذا كان إعصار كاترينا تأثر باحترار الكوكب أم لا، لكن الاحتمال قائم لا سيما أن العدد السنوي للأعاصير في مناطق الكاريبي في تزايد، وهو أمر يتفق وتوقعات التغير المناخي. كان لإعصار كاترينا تأثير هائل على أوروبا بغض النظر عن بعده الجغرافي. إذ أثبت أن مدينة ساحلية كبرى في أغنى بلاد العالم قد يحيق بها الدمار غرقاً في غضون ساعات قلائل، وبين أن حدثاً كهذا يمكن أن يتسبب للفقراء في دمار يفوق كثيراً ما يسبب للأغنياء.

وقعت حوادث الفيضان غير العادي في مناطق عدة في أوروبا منها بوسكاسل وكارلايل في المملكة المتحدة. والمواطنون في هولنده مذعورون ولديهم ما يبرر الذعر لأن كثيراً من أراضي بلادهم تقع بالفعل تحت مستوى سطح البحر. هل كان صيف ٢٠٠٣ الاستثنائي في ارتفاع حرارته في أوروبا ناتجاً عن التغير المناخي؟ لا

علم لنا، لكن كل الدلائل تشير إلى أنه كان كذلك، ففي السنوات العشرين الماضية زاد معدل تكرار الصيف الاستثنائي في ارتفاع حرارته في أوروبا بصورة حادة. والأمر المؤكد أن ما يقرب من خمسة وسبعين ألفاً لقوا حتفهم في بلدان الاتحاد الأوربي في نتيجة مباشرة للأحداث ولم تكن الخدمات الصحية مهيأة للتعامل معها.

يبدو أن أنماط المناخ المحلي تتغير، وفي توافق أيضاً مع التوقعات المحسوبة للاحترار العالمي. فأصبحت لندن حالياً في المتوسط السنوي أكثر جفافاً من برشلونة. وأصبح الحصول على المزيد من إمدادات الماء مطلباً عاجلاً ما لم يقتنع الناس بتغيير عاداتهم في استهلاكه. وعندما يفكر المرء في أحد أنصار حماية البيئة فإن أول ما يتبادر إلى الذهن ليس مهندس موارد مائية؛ بل المطلوب مهندس مياه، فعلى الرغم من وفرة الدرجات العلمية في الدراسات البيئية هناك نقص في مهندسي الماء وعلمائه. ومن التحديات الكبرى ضمان أن يعمل العلماء المتخصصون في النظم البيئية البرية والبحرية وفي الماء العذب معاً في تضافر نظراً لما بينهم من صلات وثيقة.<sup>(1)</sup>

تلتقي الصدمة البيئية مع صدمة إمدادات الوقود، ومن الواضح أن بينهما صلة وثيقة، لكن التغيير هنا جغرافي-سياسي في جزء منه. فحرب العراق أشعلتها إدارة بوش لأسباب عدة، كان أحدها دون شك تأمين إمدادات العالم من النفط من الشرق الأوسط. وهي نتيجة لم تتحقق؛ بل حدث العكس؛ وكان مما ترتب عليها القلق على إمدادات النفط من المنطقة، إضافة إلى تصاعد التوترات حول إيران. وربما أسدى الرئيس بوتين خدمة لأوروبا بتذكيره الأوروبيين باعتمادهم الشديد على الغاز الروسي. و"غاسبروم" في الأصل شركة مؤمنة، وبالتالي يمكن استغلالها في

---

(1) James Kingsland, 'Eco soundings', New Scientist, 24 July 2004.

أغراض جغرافية-سياسية. كما أن أنابيب توصيل النفط والغاز إلى أوروبا تمر  
ببلدان غير مستقرة وتعانى صراعات داخلية.

تُشير الإحصاءات إلى تحول حاسم فى المواقف الشعبية حيال المسؤولية عن  
البيئة. هناك استطلاع جرى فى جنوب شرق إنجلترا فى أغسطس ٢٠٠٤ على  
سبيل المثال وبين أن ٩٥ بالمئة ممن جرت مقابلتهم أبدوا استعدادًا لمزيد من  
التدوير وعبر ٨٤ بالمئة عن استعداد لاتخاذ خطوات لخفض استهلاك الماء. وأبدى  
أربعة من كل خمسة منهم ميلاً للتحول لأنماط حياة مقترحة أخرى، وأبدى ٨٢  
بالمئة استعدادهم لتنفيذ خطط موضوعة للحد من التلوث. ولم ينكر المسؤولية عن  
المشكلات البيئية سوى ٥ بالمئة ممن أجرى عليهم الاستطلاع.<sup>(١)</sup> وتبين  
الاستطلاعات الأوروبية أن ٧٣ بالمئة من الأوروبيين يعتقدون حالياً أن حالة البيئة لها  
تأثير ضار على نوعية حياتهم.

مع أن بلدان الاتحاد الأوروبى الخمسة عشر الأساسية حققت تقدماً ملحوظاً  
فى الأهداف البيئية مقارنةً بسائر البلدان المتقدمة على الأقل تظل هناك مشكلات  
عالقة. ففي سنة ٢٠٠٤ أفرزت بلدان الاتحاد الأوروبى ١,٣ مليار طن من النفايات؛  
صنف حوالى ٤٠ مليون طن منها نفايات خطيرة. ومن ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٤ زادت  
كمية النفايات بنسبة ١٠ بالمئة. وزادت خيارات التدوير فى تلك الفترة، وبالتالي  
انخفضت الكمية التى تلقى فى المرادم. ومع ذلك تظل المرادم الحل الأكثر انتشاراً  
على الرغم مما قد تؤدى إليه من تلوث. وجرى التخلص من النفايات البلدية فى  
سنة ٢٠٠٢ فى بلدان الاتحاد الأوروبى فى ٥٦ بالمئة من الحالات بإلقائها فى

---

(1) 'People willing to change lifestyle to help environment', WWF-UK, 27 August 2004;  
at [www.wwf.org.uk/news/n](http://www.wwf.org.uk/news/n).

المرادم، و ١٧ بالمئة بحرقها و ٧ بالمئة بطرق أخرى، ولم يخضع للتدوير منها سوى ٢٠ بالمئة.

إن التحديات البيئية الثلاثة الرئيسة التي تواجه أوروبا - ارتفاع أسعار النفط وتأمين إمداداته والتكيف مع التغير المناخي - ستتطلب استثمارات جديدة كبرى وتوفيق نمط الحياة، وهذه الاستثمارات يجب أن تتم بطريقة تدعم القدرات التنافسية الأوروبية ولا تحد منها.<sup>(١)</sup> وارتفاع أسعار النفط قد يكون نعمة متخفية (لو أمكن تحاشي التضخم)، لأنها تدفع إلى تغيير سبل التعامل مع الطاقة وتجعل البدائل القائمة على مواد غير النفط أكثر تنافسية. وتغيير كهذا في ظروف السوق يمكن أن يفيد للغاية، لأن العديد من منتجي الكهرباء في أوروبا يعتمدون على أنواع الوقود الأحفوري؛ وأغلب المعامل بدأت تتقادم وأوشكت على الإحلال في السنوات العشر القادمة. وهذا الوضع يشمل الطاقة النووية، فمحطات الطاقة النووية من الجيل الحالي أوشكت على التقادم أيضا. وليس من الواضح ما ستكون عليه نتائج استثمار ضخم كهذا على القدرة التنافسية الاقتصادية، ولو أن هذا التساؤل يشكل ولا شك جزءا لا يتجزأ من التخطيط لما هو آت.

يجرى العمل الآن على تأثير السياسات البيئية الراهنة على التنافسية، ولو أن النتائج ليست حاسمة. وهذه مسألة ذات أهمية قصوى بالنسبة للتحديث البيئي. وهناك طريقتان للتعبير عنها. الاقتراح الأضعف هو أن الدول أو المناطق التي تفقد العمل البيئي لم تعان فيما يتعلق بمعدلات نموها الاقتصادي. والفرضية الأقوى أن تلك البلدان أو المناطق طورت قدراتها التنافسية النسبية. ويرى أحد كبار

---

(1) Dieter Helm, 'European energy policy: securing supplies and meeting the challenge of climate change', ٢٠٠٥، بحث أعد لرئاسة الاتحاد الأوروبي.

الباحثين فى هذه المسألة أن الفرضية الضعيفة تتمشى مع نتائج البحث، وأن هذه النتائج لا تدحض الفرضية القوية.<sup>(1)</sup> والبلدان التى اتبعت السياسات البيئية المؤكدة - وهى بلدان الشمال أيضا - هى الأنجح اقتصاديا.

إن الربح مسألة قصيرة الأمد. فما الحوافز المتوافرة للاستثمار الطويل الأمد؟ لو لم يكن هناك أى منها فلا مفر من أن تتولى الحكومات مثل هذه الاستثمارات بما لذلك من عواقب كبرى على سائر أوجه الإنفاق فى النموذج الاجتماعى الأوروبى. ومن سبل إحراز تقدم فى هذه المسألة الاستعانة بالإداريين والمستثمرين فى أموال التقاعد. فهى على أية حال أموال ذات أهداف طويلة الأمد. والحقيقة أن أموال التقاعد تدار غالبا على المدى القصير سعيا للاستفادة من التغيرات اليومية المتلاحقة فى السوق. لكن المستفيدين من أموال التقاعد يجب أن يهتموا بالعالم الذى سيرثون، لا سيما أن كثيرا من الإرث حتى على مستوى مالى سيتبدد إن لم يكن ثم تصرف يتخذ. وعالم يسحقه التغير المناخى وتنفق أموال الرفاه فيه على تكاليف التعامل معه لن يكون عالما يود المرء أن يعيش فيه بعد ثلاثين سنة مما نحن فيه.

جماعات المجتمع المدنى والجمعيات الأهلية أيضا يجب أن يكون لها دور مهم فى معالجة جل هذه المشكلات أو كلها، سواء أكانت هذه الجماعات مرتبطة بحركة الخضر أم لم تكن. فيمكن لها أن تؤثر على التوجهات العامة ويمكن أيضا أن تؤثر على قرارات الحكومات وتساعد بصفة خاصة فى مراقبة أنشطة الشركات الكبرى. فنحن فى عالم كل شىء فيه واضح لمن يود أن يجعله كذلك. فالشركات

---

(1) Mans Lonnroth, 'The environment in the European social model' in Anthony Giddens, Patrick Diamond and Roger Liddle (eds.), *Global Europe, Social Europe*. Cambridge: Polity, 2006.



الكبرى التى قد تسعى للتهرب من القواعد البيئية فى بقعة من العالم بتحويل بعض أعمالها إلى بقعة غيرها يمكن أن تخضع للفحص. وهو ما يحدث بالفعل، حيث تستعين الشركات بعمالة مستغلة أو تخالف المعايير المتبعة لقواعد تشغيل العمالة حتى إن لم تكن منصوصاً عليها فى القانون الدولى. فاضطرت بعض الشركات لتعديل تصرفاتها بصورة جذرية نتيجة لمثل هذا الضغط العالمى. فالجمعيات الأهلية على مستوى العالم لها فى الحقيقة ميزة كبرى على الشركات الكبرى، إذ إنها تحظى بصورة أفضل وبتقّة أكبر بين الناس.

لا شك أن الضغط على الحكومات والشركات سيساعد عامة الناس على الإحساس بالانتماء للبيئة. وبدون هذا الإحساس يصعب رؤية أى تقدم فعلى يتحقق. وينبغى لمثل هذا الإحساس أن يشمل مكان العمل ومحيط البيت على السواء. وهناك خيارات عديدة تستحق الاستكشاف. فالمزيد من إحلال المنتجات بالخدمات مثلاً قد يساعد. وهنا لا تلحق القيمة المضافة بالمنتج نفسه، بل بوظيفته. فالاستئجار أو الاكتراء مثلاً قد يحدث تغييرات أساسية فى أنماط الاستهلاك. ومن ثم فالاستئجار عن طريق شبكة الإنترنت قد يحل محل شراء أشرطة الفيديو أو أسطوانات الدي فى دى. وقد تنشأ أسواق جديدة للخدمات ذات العائد البيئى. فغسل الثياب وكيها على نطاق واسع يستعمل مقداراً من الطاقة الأولية أقل بنسبة ٥٢ بالمئة، ومقداراً من الماء أقل بنسبة ٧٣ بالمئة، ومقداراً من مسحوق الغسيل أقل بنسبة ٨٥ بالمئة من غسلها بالبيوت. وربما يأتى علينا وقت نرى فيه الغسالات المنزلية التى انتشرت فى كل مكان تتراجع من جديد.

قد تساعد "الأنظمة الوظيفية" - حيث تستأجر الخدمات ولا تشتري - على التوفيق بين المصالح المتباعدة التى تنشأ من حين لآخر بين المنتج والمستهلك.

فمصلحة المنتج في الإبقاء على قصر عمر المنتج حتى تنشأ الحاجة لشراء المزيد منه. ومصلحة المستهلك في المنتجات المعمرة والتي يعتمد عليها وتدوم طويلاً. إلا أن هذا الاختلاف في المصالح يقل حين يقوم الاستعمال على الوظيفة. فيهتم المنتجون باستعمال المنتج وما بعد استعماله، وبالحفاظ عليه لأطول مدة ممكنة. والمحصلة خفض في استهلاك الطاقة والموارد المادية.

يمثل "نزع الطابع المادي" عن المادة الصلبة المستخدمة في الإنتاج والخدمات المنزلية نقطة اتصال مهمة بين تقنية المعلومات والأهداف البيئية. وكنا نسمع كثيراً عن "مكتب بلا ورق" فيما مضى، إلا أن كم الورق المتداول بين المكاتب ظل يزداد ولا يقل حتى وقت قريب. وظهور البريد الإلكتروني غير الوضع ولا شك. وكم الاتصالات الإلكترونية في عالم الأعمال وفي الحياة المنزلية للكثيرين أصبح يفوق ما يتم من خلال البريد التقليدي بكثير.

هناك نسخ ورقية لبعضها يحتفظ بها، ولكن لا داعي لأدوات النقل والتوصيل، ما أدى لتعثر الخدمات البريدية مالياً في كل أنحاء العالم أو تحولها لمهام جديدة. وليس من اليسير تتبع حجم هذه التحولات في المجتمع ككل. وهكذا تساعد شبكة الإنترنت على التوصيل المباشر لكل أنواع المنتجات والخدمات مباشرة إلى باب بيت المستهلك. وهل يزيد هذا التحول من استهلاك الطاقة نتيجة لخدمات التوصيل الجديدة هذه أم يخفصها نظراً لانخفاض معدل الرحلات إلى المتاجر بالعربات أو بوسائل النقل العام؟ لا أحد يعرف الإجابة في الحقيقة.

على أي يبدو أن المبادرات المحلية يمكن أن تتجح. وضعت مدينة كولدنغ الدنماركية خطة متكاملة للحد من استعمال الورق. فالمواد المرسله كلها تقريباً توزع إلكترونياً ولكن بصورة استباقية. فترسل إشارات للمواطنين إما بالبريد الإلكتروني أو على هواتفهم المحمولة عن أية تطورات محلية جديدة وطريقة

الوصول لمعلومات عنها والتفاعل المباشر مع القائمين عليها إن رغبوا. ووضعت مدينة بروكسل أيضاً خطة واسعة النطاق "لنزع الطابع المادى" تشمل الإدارات والمدارس والبيوت، وتهدف لترشيد استخدام تقنية المعلومات والتعامل مع تزايد الفاقد الناجم عنها وإحلال الخدمات محل المنتجات. ويتوقع من أطلقوا المشروع أن تزداد كفاءة الإدارة المحلية وتلبيتها حاجات العملاء. وفي الوقت نفسه يمكن خفض استهلاك الورق بنسبة تزيد عن ٣٠ بالمئة واستهلاك الطاقة بنسبة مماثلة.<sup>(١)</sup>

مثل هذه المبادرات قابلة للتعميم على نطاق أوسع كثيراً، ولا بد من تعميمها حتى تحدث أى تأثير كبير. ولكى يحدث أى تحول واسع النطاق فى نمط الحياة لا بد من شعور الناس بالحاجة الملحة إليه، ولا بد أيضاً من الثواب والعقاب، حتى يعكس التكلفة الفعلية للاستخدام فى صلتها بالضرر البيئى أو الاستثمار. وأعتقد أننا يجب أن نكف عن تسمية "الضرائب الخضراء" كما لو كانت لها سمة خاصة تميزها عن سائر الإجراءات المالية. إذ يجب أن تمثل نواة جزءاً شفافاً من التزامات المواطن، لأنها تهم كل فرد فى الهيئة الاجتماعية. ويجب أن تشمل الإعفاءات الضريبية ورفع الضرائب على السواء. قد يصعب التعرف على مخطط التحديث البيئى كاملاً، لكن تغيير نمط الحياة قدر المستطاع يجب أن يرتبط بقيم الرفاه الإيجابية ولا يكون مجرد برنامج لإنكار الذات.

لسانقى العربات ومصنعيها جماعات ضغط قوية فى كل البلدان. ويدعى السائقون أنهم منقلون بالأعباء الضريبية فعلاً، لكن هذا غير صحيح. فالتكلفة البيئية للعربة والشاحنة باهظة، وتمتد للاهتمامات الجغرافية-السياسية (والتكاليف) أيضاً.

---

(1) Municipality of Kolding, 'Dematerialization: a special feature of the Third Waste Management Plan for the Brussels-Capital Region', Kolding, Denmark: at [www.kolding.dk](http://www.kolding.dk).

وفى المدن أصبحت العربة مصدر ضرر بسبب الزحام، وكثيراً ما تسد المرور تماماً. ويعد التلوث وما يرتبط به من مشكلات صحية تكلفة عامة أكثر انتشاراً. ويجب التوسع فى فرض رسوم على الزحام فى المدن واستخدام العائد فى تمويل النقل العام. وقد يساعد رفع تكاليف الوقود على دفع المستهلكين إلى التخلي عن المركبات ذات المحركات الكبيرة، ولكن لا بد من وضع نظم تشجيعية كبيرة لذلك. وإذا كانت البرازيل تمكنت من تسيير عدد كبير من عرباتها بوقود حيوى فلم لا تتبع نماذج مماثلة فى أوروبا؟

كيف يمكن ربط مختلف القضايا المتعلقة بالسياسات البيئية معاً؟ هل لنا أن نرى لها صلات واضحة بجدول أعمال لشبونة؟ وكيف يمكن لمثل هذه السياسات أن يكون لها مردود على العدل الاجتماعى؟ السبيل الأوضح هو ربطها بالجوانب الرئيسية للنموذج الاجتماعى، ولا سيما الأمن والرفاه - الرفاه الإيجابى - فى سياق المواطنة. والمخاطر من التحول البيئى لم تعد مسألة مجردة أو بعيدة المدى. فلها طابع مباشر وتتشابك مع الأخطار التى وجدت دولة الرفاه لمواجهة (كالأخطار الصحية والأخطار على الملكية وما إلى ذلك). وهى ترتبط بشكل وثيق بالجوانب الاقتصادية أيضاً، وبالإنتاجية والقدرة التنافسية. وبعض احتمالات النمو وخلق فرص العمل سيكون فى قطاعات وثيقة الصلة بقضايا البيئة أو مرتبطة بها ارتباطاً مباشراً.

إن مشكلات البيئة والطاقة تتطلب تنسيقاً دولياً. وهى تشكل مجالاً رئيساً يقتضى التدخل على مستوى الاتحاد الأوروبى. وسنتطرق فى الفصل التالى للصورة التى يجب أن يكون عليها هذا التدخل.

## الفصل السادس

### على مستوى الاتحاد الأوربي

حين أشير إلى "الاتحاد الأوربي" فى عنوان هذا الفصل فأنا أقصد المؤسسات الحاكمة للاتحاد الأوربي. ولا أقصد فصل هذه المؤسسات كثيرًا عن الدول الأعضاء. وكل الفصول السابقة كانت عن "الاتحاد الأوربي" و"أوربا" بالمعنى الأوسع للدول الأعضاء التى تعمل معا من أجل حل المشكلات المشتركة. لكننا سنركز فى هذا الفصل على سبل إسهام هيئات الاتحاد الأوربي بشكل مباشر فى إعادة صوغ النموذج الاجتماعى.

بدايةً سنقدم تقويمًا لما وصل إليه "جدول أعمال لشبونة" حتى الآن. ثم نتطرق إلى مسألة الفوارق الاجتماعية والاقتصادية على المستوى الأوربي، وننتقل منها إلى التعليم العالى والابتكار. وأخيرًا سنتناول بشيء من التفصيل ما ينبغى عمله على مستوى الاتحاد الأوربي فيما يتصل بالبيئة والطاقة.

### تقويم "جدول أعمال لشبونة"

هناك سبل عديدة تؤثر بها القرارات التى تتخذ على مستوى الاتحاد الأوربي تأثيرًا مباشرًا على نظم الرفاه القومية. ويمكن مراجعة التفسير "المعتدل" للسياسات الاجتماعية، والذي يرى أن الدول الأعضاء تحتفظ بسيطرتها التامة على نظام

الرعاية الاجتماعية فيها.<sup>(1)</sup> وقد تؤثر الأحكام القضائية التي يصدرها الاتحاد الأوربي تأثيراً مباشراً على نصوص الرعاية الاجتماعية في الدول الأعضاء. فحكم محكمة العدل الأوروبية مثلاً، والذي يقضى بوجوب إقرار سن واحدة للتقاعد للجنسين يمثل اعتداء مباشراً على السياسات القومية. وإن طبق الحكم بأثر رجعي فقد تكون له نتائج مالية كبيرة على بعض البلدان، لولا أن شنت حملات ضغط شرسة من هذه البلدان وحالت دون هذه النتيجة. وأصدرت المحكمة أكثر من ثلاثئة حكم عن تنسيق السياسات الاجتماعية. ويرى بعض المراقبين ضرورة وجود محكمة رعاية اجتماعية متخصصة تابعة للاتحاد الأوربي نظراً لكثرة هذه التشريعات. ولتسريعات الاتحاد الأوربي الأهمية الأكبر في مجالات حقوق العمالة وإجراءات مكافحة التمييز وإمكانية نقل حقوق الضمان الاجتماعي.

على أي هناك خلل هيكلي في قلب عملية اتخاذ القرار في الاتحاد الأوربي فيما يتعلق بالنموذج الاجتماعي. وتؤدي السوق الموحدة والعملية الموحدة إلى تغييرات كبرى في الاقتصادات القومية. وفي منطقة اليورو نقلت السلطات النقدية الرئيسة إلى البنك المركزي. إلا أن الدول الأعضاء تحرص على استقلاليتها في السياسات المالية والاجتماعية بغيره شديدة.

هذا الخلل هو ما وضع لتصحيحه "النهج المفتوح للتنسيق" في "جدول أعمال لشبونة". ويوصف "النهج المفتوح للتنسيق" في "تقرير كوك" بأنه عملية «توافق الدول الأعضاء فيها طوعاً على التعاون في مجالات الكفاءة القومية والاستفادة المثلى من سائر الدول الأعضاء بما يتفق وظروفها القومية الخاصة». ويفترض أن

---

(1) Stephan Leibfried and Paul Pierson, 'Semi-sovereign states', in Leibfried and Pierson (eds.), European Social Policy, Washington: Brookings Institution, 1995.

يشكل "الضغط الجمعي" حافزاً للدول الأعضاء المتمردة. ويقر بأن العديد من الدول الأعضاء لم تأخذ الأمر على محمل الجد بدرجة كافية. ويتطرق التقرير للنموذج الاجتماعي ويتحدث عن "القضاء على الفقر". كما يشير إلى "الاستدامة البيئية" ويتحدث عن الحاجة لـ «نشر الابتكارات البيئية وبناء القيادة في الصناعة البيئية».<sup>(١)</sup> إلا أن قليلاً من توصياته ما تطرق إليها بشكل مباشر. والتركيز فيه على النمو والعمالة. ويمكن وصف التقرير بأنه "لشبونة منقوصة" بمعنى أنه ي طرح التركيز بصفة خاصة على هذين الجانبين، وهو تركيز وافقت عليه المفوضية فيما بعد. أما أطروحة تقرير كوك - بضرورة وجود «المزيد من التسمية والفضح والتكريم»<sup>(٢)</sup> - فلم توافق عليها. وفي خاتمته يعلن التقرير ما تبقى من مشكلات ويقول إن جل ما تحقق من تقدم على "جدول أعمال لشبونة" يتوقف على ما يحدث في السياقات القومية.

بقبول ما ورد في تقرير كوك (وأطروحات تقرير سابير أيضاً) كشفت المفوضية النقاب عن "إستراتيجية لشبونة" الجديدة في فبراير ٢٠٠٥. فالتركيز على النمو الاقتصادي والعمالة توأكبه "شراكة من أجل النمو وفرص العمل" مع خطة عمل على مستوى الاتحاد الأوربي وخطط عمل قومية للدول الأعضاء. ويجب «إدراج لشبونة في جدل سياسى قومى» على أن يشمل هذا الجدل المواطنين والقادة السياسيين وكبار رجال الأعمال وزعماء الاتحاد. وأثار إعلان وجهة النظر الجديدة ردود فعل عدائية. فبدأ لبعض النقاد أن الجوانب الاجتماعية والبيئية من "جدول

---

(1) Wim Kok, Facing the Challenge. Report of the High Level Group, November 2004, pp. 9 and 6.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٣.

أعمال لشبونة" تراجعت إلى الدرجة الثانية من الأهمية. ورد خوسيه مانويل باروسو، رئيس المفوضية على منتقديه بقوله: «لو مرض أحد أبنائي فأنا أركز اهتمامي فيه، لكن هذا لا يعنى أن حبي لإخوته قل». وهو تشبيه طيب ولكن تعوزه الدقة. فصحة "الأبناء" الثلاثة - الاقتصادى والاجتماعى والبيئى - فى حالة الاتحاد الأوروبى فى خطر.

فى أوائل ٢٠٠٦، صدر تقرير آخر - تقرير أهو - يركز على البحث والابتكار، وتخفض فى هذه المرة عن قمة "قاعة هامبتون" فى أكتوبر من تلك السنة. وأصدرته مجموعة برئاسة رئيس وزراء فنلنده السابق إسكو أهو. واقترح التقرير عقد "اتفاقية للبحث والابتكار"، وورد فيه أن اقتراحات كوك واستجابة المفوضية لها لن تجدى نفعا. فموارد البحوث والتنمية لن تزيد، ولن تساعد اقتراحاتهم على الحفاظ على النموذج الاجتماعى المقدر له أن يتآكل نتيجة لتناقص الموارد. فلا بد من عقد اتفاقية تركز بشكل أكثر تحديدا على بعض مجالات الابتكار، وتدرك أن هناك قرارات صعبة ينبغى أن تتخذ لتحديد هذه المجالات بدلا من افتراض أن التقدم يمكن تحقيقه برفع القاسم المشترك الأدنى.

يقول تقرير أهو إن نسبة الموارد المالية الهيكلية للاتحاد الأوروبى المخصصة للبحث والابتكار يجب زيادتها من ٦ بالمئة كما هى الآن إلى ٢٠ بالمئة. وبالنسبة للدول الأعضاء الجديدة مثلاً قد يسمح مثل هذا الاستثمار بالقفز مراحل عدة فى التنمية الاقتصادية والتقنية. ولا بد من إعطاء الأولوية لعدد من المجالات لا سيما الصحة والطاقة والبيئة والنقل والتخطيط والأمن.<sup>(١)</sup>

---

(1) Esko Aho, Creating an Innovative Europe: Report of the Independent Expert Group On R&D and Innovation Appointed Following the Hampton Court Summit; at <http://europa.eu.int/invest-in-research/>.



ما محصلة الجدل المتواصل حول "جدول أعمال لشبونة"؟ نورد فيما يلي الملاحظات والاقتراحات التي قد تمثل إضافة إلى كم الأوراق الضخم الذي أفرزه جدول الأعمال.

أولاً، على صعيد دولي صمد "جدول أعمال لشبونة" أمام اختبار الزمن بعد عشر سنوات من إتمام العمل الأكاديمي الأصلي الذي بلوره. وكما حاولت أن أبين في مواضع سابقة من هذا الكتاب فإن كثيراً مما طرح في لشبونة في سنة ٢٠٠٠ يتفق وأفضل ما يمارس اليوم. ومع ذلك فالمعايير الموضوعية لتحسين القدرة التنافسية يجب مراجعتها بصورة متصلة، لأن التقديرات أو التوقعات منذ بضع سنوات قد تثبت خطأها أو خداعها. ومثال على ذلك أن أغلب المحللين التجاريين في أواخر التسعينيات كانوا يعتقدون أن شركات السياحة ستمثل الصناعة الخدمية الأسرع نمواً. والحقيقة أن فرص العمل في هذا المجال تقلصت إلى درجة كبيرة لأن كثيراً من الناس يحجزون حالياً عبر شبكة الإنترنت التي لم يكن لها وجود قبل بضع سنوات.

ثانياً، إن مشكلات النهج المفتوح للتنسيق تستمد في جزء منها من أنه لم يوضع في سياقه أصلاً. وجاء الاعتراف بهذا الفشل في التحول الأخير في إجراءات الاتحاد الأوروبي، والمتمثل في تسليم ملف من كل من الدول الأعضاء. ولكن ليس من الواضح ما إذا كانت إعادة النظر بعيدة المدى بما يكفي أم لا. فالتقويم يهدف المقارنة أقل فعالية مما قد يبدو لأول وهلة. إذ يمكن للسياسة والناخبين أن يقارنوا الأداء الاقتصادي الكلي لبلدان الاتحاد الأوروبي كمعدلات النمو أو معدلات البطالة فيها. لكن الأصعب مقارنة السياسات والإصلاحات حيث يتوقف

تأثير أى من عمليات الإصلاح على كم من العوامل يخص أكثرها البلد المعنى دون غيره. ولتقويم التبادل مثلاً بين ارتفاع نسبة العمالة ووجود فرص العمل الوهمية لا بد من توافر معلومات أكثر من مجرد نشر مؤشرات اقتصادية.

ثالثاً، يعد "جدول أعمال لشبونة" مبادرة على مستوى الاتحاد الأوروبى، إلا أن نجاحه أو فشله لن يتأتى من النهج المفتوح للتنسيق حتى لو نجح هذا التوجه أكثر مما هو الآن. وسيتوقف على وضع السياسات القومية وعلى الإرادة السياسية القومية. وقد تبرز الحاجة لإصلاح الدولة وليس مجرد المؤثرات الاقتصادية. ولا بد أن يكون الترقب والأمل جزءاً من "الإستراتيجية"، بل ربما كانت هناك تدخلات مفيدة أخرى لا بد منها. والنهج المفتوح للتنسيق عملية من أعلى لأسفل. وقد يُطلب من الدول الأعضاء مقارنة تجاربها والتعلم من بعضها البعض بطريقة "أفقية" مباشرة، لا من حيث السياسات وحدها، بل من ناحية تخطى الحواجز السياسية أيضاً. ويمكن تشجيع المبادرات المشتركة والركون إلى موارد المفوضية إضافة إلى التنظيم محلياً.

رابعاً، كما يقول الباحث الاقتصادى الفرنسى جان بيزانتى فيرى هناك إصلاحات يجب أن تتركز فى منطقة اليورو لأن بلدانها لها بعض الاحتياجات الخاصة المشتركة.<sup>(1)</sup> فحيثما وجد اتحاد نقدى فالبلد الذى يُصلح أسواق العمل ويخفض معدل البطالة فيه مثلاً يمارس تأثيراً متوسط المدى على بلد غيره لا يفعل. فنتيجة للإصلاحات فى البلاد س ينخفض إجمالى معدل العمالة الهيكلية ويرتفع إجمالى الإنتاجية، ما يحد من التضخم فى كلتا الحالتين. ويمكن للبنك المركزى نتيجة لذلك أن يخفض نسب الفائدة، ما ينعش الطلب الداخلى فى البلاد س

---

(1) Jean Pisanti-Ferry, 'What is wrong with Lisbon?'; at [www.bruegel.org/doc\\_pdf\\_47](http://www.bruegel.org/doc_pdf_47).

وكذلك فى البلد ص الذى لم يجر إصلاحات بعد. وبالنسبة للبلد س خفض نسبة الفائدة أقل مما كانت لو كانت لكل منهما سيطرة على نسب الفائدة فيها؛ والعكس صحيح بالنسبة للبلد ص. ولنفرض أن حكومات أخرى غير ص ترددت فى إجراء إصلاحات فى وضع تفرض الإصلاحات فيه تكاليف متوسطة الأمد من أجل مكاسب طويلة الأمد، كما تفعل دائماً. هنا يمكن اللجوء للسياسات الاقتصادية الكلية. وما يمكن لسياسة كهذه أن تعمله هو أن تغير توزيع التكاليف والمميزات من خلال تسهيل الاقتراب من توازن جديد. وبالتالي يمكن لها أن تجعل الإصلاحات أقل كلفة على المدى القصير وتمكن الساسة المحليين من اتخاذ قرارات إصلاحية. ولا يمكن للسياسة النقدية داخل اتحاد نقدي إلا أن تدعم جهود الإصلاح فى حكومة ما بالقدر الذى تسهم به فى الأداء الكلى. وأية حكومة تعمل منفردة، لا سيما حين تكون هناك قيود كارتفاع المديونية، يقل حافز الإصلاح. وفى غياب تنسيق الجهود من أجل الإصلاح فإن هذا الوضع يفضى إلى جمود تتوقف فيه أية حكومة عن إجراء الإصلاحات اللازمة.

خامساً، "جدول أعمال لشبونة" لديه الآن شعور باللاحق بالركب، فالغرض منه فى المقام الأول مساعدة الاتحاد الأوروبى على معالجة بعض مما حققه الاقتصاد الأمريكى من إنجازات، قد يتصف بالطموح إلا أن ثم شعوراً بأنه يراهن على نقاط ضعف أوروبا لا على نقاط قوتها. ونموذجها الاجتماعى وسجلها البيئى اثنان من نقاط القوة هذه، ولو فى سياق اقتصاد قوى فقط. وإن أمكن إجراء الإصلاحات فى البلدان التى تحتاجها وفى الاتجاهات الصحيحة فعلى الاتحاد الأوروبى أن يتطلع للتقدم إلى ما هو أبعد مما بلغه كبار منافسيه. وبلدان الاتحاد الأوروبى متقدمة على بقية بلدان العالم فى السياسات البيئية. وهناك أهداف أخرى ظهرت فيما يتصل بقضايا البيئة أكثر مما يتصل بالعدل الاجتماعى، وذلك للدور القيادى الذى لعبه

الاتحاد الأوربي في دعم كيوتو (مع أن أهداف كيوتو ثبتت صعوبة تحقيقها؛ ولم يشرع حالياً في الحد من الانبعاثات إلا خمس من دول الاتحاد الأوربي). وفي الفترة ١٩٩٢-٢٠٠٢ حافظت كل دول الاتحاد الأوربي الخمس عشرة الأساسية على معدل الطاقة فيها أو خفضتها. وأثبتت الحالة الأيرلندية، حيث واكبت النمو الاقتصادي الكبير تحسينات في معدلات الطاقة أن البلدان التي تبدأ من قاعدة اقتصادية منخفضة لا تضطر بالضرورة لالتهام الطاقة حتى تلحق بنظيراتها الأكثر تقدماً. وهذا مثال مهم حين النظر في ارتفاع مستويات النمو في الدول الأعضاء الجديدة. ومع ذلك فالسياسات البيئية يجب ربطها بصورة أوثق بالخطط الاقتصادية والاجتماعية، سواء على المستوى القومي أو مستوى الاتحاد الأوربي كما سبقت الإشارة. فتركيز فكر الاتحاد الأوربي على "الإقصاء الاجتماعي" لا يمس خطط تغيير نمط الحياة حالياً في بؤرة الإصلاح الاجتماعي.

ونختم بأننا بحاجة لا للحد الأدنى من لشبونة، بل للحد الأقصى منها.<sup>(١)</sup> فلم يكن "جدول أعمال لشبونة" مقنعاً بما يكفي في مجالين أساسيين: العدل الاجتماعي والبيئة. فيما يتعلق بالأول نحن بحاجة للتغلب على قطبية تعسة انتابت جهود الإصلاح على المستويين الأوربي والقومي على السواء (كما سبقت الإشارة). ويرى أنصار العدل الاجتماعي أن عليهم أن يعرقلوا جهود مساعدة الدول الأضعف أداءً حتى تحسن قدرتها التنافسية، وتخلق المزيد من فرص العمل. ولا تقنعهم الإشارات إلى الحد من الإقصاء الاجتماعي من جانب دعاة الإصلاح ويخشون من

---

(١) أدین بهذه الفكرة لحوارتي مع كل من روجر ليدل وباتريك دياموند. انظر مقالهما في: Anthony Giddens, Patrick Diamond and Roger Liddle (eds.), *Global Europe, Social Europe*. Cambridge: Polity, 2006.

تقول "نموذج أنجلو سكسوني" يحرص على الأسواق ولا يهتم العدل الاجتماعي في أوروبا.

لا بد من التركيز (كما حاولت أن أفعل في هذا الكتاب) على أن الإصلاحات على طريقة لشبونة تعزز العدل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية ولا تجور عليهما. وهذه مقولة لا ينبغي أن تظل مجرد مقولة مجردة، بل لا بد من دعمها بأدلة دامغة. ويجب تحديد التعديلات اللازمة. وإن كان فيها خاسرون فلا بد من الإشارة إلى ذلك وتحليل ما يمكن عمله لتحسين أنصبتهم فيها.

يعد "صندوق التكيف العالمي" على الأقل خطوة في الاتجاه الصحيح. وهناك فكرة مماثلة اقترحت في "تقرير سابير". وأقرت الفكرة رسمياً في اجتماع المجلس الأوروبي في ديسمبر ٢٠٠٥، وحظيت بالدعم عقب تصويت كل من فرنسا وهولنده بالرفض، حيث لعب القلق على احتمال فقدان فرص عمل دوراً مهماً في هذه النتيجة. وسيقتصر الصندوق على موازنة قدرها خمسمئة مليون يورو في السنة. وستتمكن الدول الأعضاء من الاعتماد على الموارد المقدمة لإتاحة إعادة التدريب وإعانات البحث عن عمل للعمال ممن يستغنى عنهم نتيجة لـ "تغييرات هيكلية كبرى في أنماط التجارة العالمية". ووضعت معايير صارمة لضمان ألا يستغل المستفيدون المال في دعم صناعات فاشلة. ويتم وجود الصندوق عن أن الاتحاد الأوروبي "حريص" على مصير المتضررين من التحول الاقتصادي. ولكنها لا تزيد عن بادرة نظراً لضعف الموارد المتاحة.

كان يفترض في إعادة النظر في الموازنة الخاصة، والتي وعد بإجرائها في ٢٠٠٨ أن تستخدم لضمان إحداث تغيير فعلي في توزيع الموارد، ولو أن الأمور لا تبشر بخير نظراً للتعنت القومي. وأشار تقريراً سابير وأهو إلى المطلوب.

مُوازنة الاتحاد الأوربي يجب أن تتحول عن الزراعة وتوجه إلى خطط تدعم النمو مع تركيز خاص على الابتكار. وحتى في ظل الإصلاحات الأخيرة تعتبر "السياسة الزراعية المشتركة" مفارقة كبرى (حتى في نظر المراقبين غير المكثرئين)، إذ ينفق أكثر من ٤٠ بالمئة من الموازنة على ٢-٣ بالمئة من عمال الاتحاد الأوربي.

## الفوارق الإقليمية

يتطرق "جدول أعمال لشبونة" بشكل مباشر لمسألة الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين الدول الأعضاء وبين المناطق، وهي من أولى اهتمامات "المجموعة الاقتصادية الأوربية" والاتحاد الأوربي منذ أيامه الأولى. ولطالما دار الحديث عن "التكافل" و"التقارب" باعتبارهما هدفين على الصعيد الأوربي ككل. ونصت "معاهدة روما" على أن التقدم الناجح للاتحاد الأوربي لن يتحقق إلا بـ "تخفيف حدة التخلف في المناطق الأقل حظاً". وإذا كان التقارب يقدم أحياناً باعتباره عملية بسيطة تقترب بمقتضاها الدول الأعضاء الفقيرة من الدول الأغنى فإن الأمور أعقد من ذلك. وما أن أنشئ الاتحاد الأوربي وبدأ في التوسع ظهرت ديناميات جديدة داخل الدول وعبر الحدود.

ربما كان هناك تضارب في أهداف التقارب والتكافل نفسها. فالتقارب معناه عملية تكامل اقتصادي كلي، في حين أن التكافل يعنى رفع مستويات المعيشة في الدول والمناطق الأفقر حتى تقترب من نظيراتها الأغنى. ولزيادة التقارب قد يتعين على الدول أن تضع سياسات تهدد التكافل. إذ قد تضطر لخفض الدعم داخل حدودها، ما قد يؤدي بدوره لتوسيع الفوارق الموجودة أصلاً في الدخل أو الثروة.

مر الاتحاد الأوروبي بستة توسعات متتالية. وارتفع مستوى الفوارق الاقتصادية سواء بين الدول أو المناطق مع كل هذه التوسعات، وكان الاستثناء في سنة ١٩٩٥ مع ضم النمسا وفنلندة والسويد. وعقب كل توسع وقبل آخر توسع في سنة ٢٠٠٤ بدأت الفوارق الاقتصادية في الانخفاض بشكل سريع. ولم ترتفع مستويات الفارق إلا بين الدول الأعضاء الست الأصلية، ولكن لسبب وجيه هو إعادة توحيد ألمانيا حيث كانت ألمانيا الشرقية أفقر كثيراً من الغربية.<sup>(١)</sup>

من الدول الأربع الأفقر بين دول الاتحاد الأوروبي الخمس عشرة الأساسية قبل الثمانينيات كانت أيرلندة الأفضل أداءً. فمن معدل إجمالي ناتج محلي للفرد نسبته ٥٦ بالمئة من متوسط الاتحاد الأوروبي في سنة ١٩٧٣ انتقلت البلاد إلى ١١٠ بالمئة من هذا المتوسط في ٢٠٠٢. وكان معدل البرتغال أيضاً ٥٦ بالمئة من المتوسط لدى انضمامها في ١٩٨٥، ولكنها لم تصل إلا إلى نسبة ٧٢ بالمئة في ٢٠٠٢. وحققت إسبانيا تقدماً كبيراً سياسياً إلا أن تقدمها الاقتصادي كان أقل نسبياً؛ إذ انتقلت من ٧٤ بالمئة من متوسط إجمالي الناتج المحلي للاتحاد الأوروبي في ١٩٨٥ إلى ٧٧ بالمئة في ٢٠٠٢. ومع ذلك فالفجوة بين المناطق الأغنى والأفقر في الاتحاد الأوروبي اتسعت في الثلاثين سنة الماضية. فالمنطقة الأقل ثراء في ١٩٧٧ كانت أفقر بأربع مرات من المنطقة الأغنى. وفي سنة ١٩٩٦ كانت أفقر بخمس مرات. ومن الأرقام الأكثر دلالة النسبة الكلية. ففيما بين ١٩٧٧ و١٩٩٦ لم يطرأ إلا تغير طفيف نسبياً على دخل الفرد في المناطق الخمس الأكثر حرماناً في الاتحاد الأوروبي. ففي ١٩٧٧ كانت ٤٤,٥ بالمئة من متوسط الاتحاد الأوروبي؛ وفي

---

(1) Carol M. Glenn, 'Regional convergence and regional policy in the European Union', Valdosta State University, GA, June 2000. [www.eu-center.org/research/working%20paper/39.carol.m.glen.doc](http://www.eu-center.org/research/working%20paper/39.carol.m.glen.doc).

١٩٩٦ كانت ٤٤,٧ بالمئة من ذلك المتوسط. فى حين زاد دخل المناطق الخمس الأغنى من ٢٠٦ بالمئة من متوسط الاتحاد الأوروبى فى سنة ١٩٧٧ إلى ٢٢٤ بالمئة فى سنة ١٩٩٦.

المناطق الأفقر لا نجدها دائما فى البلاد الأفقر؛ ولا المناطق الأغنى فى الدول الأغنى. فالتمدد الإقليمى فى بعض البلدان كبير. والمنطقة الأغنى فى الاتحاد الأوروبى فى ألمانيا، إلا أن المناطق الفقيرة فيها أفقر من أغلب المناطق الأخرى فى الاتحاد كله بما فى ذلك بعض مناطق إسبانيا والبرتغال واليونان. وألمانيا بلد به قدر لا بأس به من المساواة من ناحية توزيع دخل الفرد. ومع ذلك فالفارق فى الدخل بين المناطق الأغنى والأفقر فى ألمانيا هو الأعلى فى بلدان الاتحاد الأوروبى الخمسة عشر الأساسية.

أدى ضم عشر دول جديدة لعضوية الاتحاد الأوروبى فى سنة ٢٠٠٤ إلى رفع الفوارق الإقليمية إلى حد كبير. فحوالى ٩٢ بالمئة من سكان الدول الأعضاء الجديدة يعيشون فى مناطق بقدر إجمالى الناتج المحلى للفرد بأقل من ٧٦ بالمئة من متوسطه فى دول الاتحاد الأوروبى الخمس والعشرين. و٦٦ بالمئة فى مناطق يقل فيها عن ٥٠ بالمئة من المتوسط.<sup>(١)</sup> وإجمالى الناتج المحلى للفرد فى بلغاريا ورومانيا يقل عن ٣٠ بالمئة من متوسطه فى دول الاتحاد الخمس والعشرين. وحين تنضم هاتان الدولتان للاتحاد فى ٢٠٠٧ أو ٢٠٠٨ سيزيد تعداد من يعيشون فى مناطق يقل فيها الدخل عن ٧٥ بالمئة من متوسطه فى الاتحاد الأوروبى عن

---

(1) European Union, 'Third Report on Economic and Social Cohesion (Executive Summary)', p. iv; at [www.northsea.org/nsc/documents/eu\\_policies\\_beyond\\_2006/cohesion3\\_summary\\_en.pdf](http://www.northsea.org/nsc/documents/eu_policies_beyond_2006/cohesion3_summary_en.pdf).



ضعف العدد الحالي. فيزيد من ٧٣ مليون نسمة إلى حوالي ١٥٣ مليوناً. كما سيتضاعف الفارق بين متوسط الاتحاد الأوربي ومتوسط إجمالي الناتج المحلي للفرد، فيرتفع من حوالي ٣٠ بالمئة أقل من المتوسط إلى ٦٠ بالمئة أقل من المتوسط.

تمثل الصناديق الهيكلية وصناديق التكافل المورد العام الرئيس المتوفر للإعانة على خفض الفوارق بين الدول والمناطق. وصندوق التكافل استحدث في سنة ١٩٩٣، للمساعدة على رفع التنمية الاقتصادية في بلدان الاتحاد الأوربي الأفقر. فالبلدان التي يقل فيها إجمالي الناتج المحلي عن ٩٠ بالمئة من متوسطه في الاتحاد الأوربي تؤهل للمعونات. وتضيف التحويلات من الصناديق الهيكلية وصناديق التكافل حوالي ٣ بالمئة إلى الاستثمار في إسبانيا و ٨-٩ بالمئة في اليونان والبرتغال. وهي تسهم بحوالي ٤ بالمئة فيما كان يعرف بألمانيا الشرقية، و ٧ بالمئة إلى جنوب إيطاليا. وهذه الإعانات تضاف إليها قروض من "مصرف الاستثمار الأوربي" - بإجمالي ٢٠ مليار يورو في ٢٠٠٢. وتسهم هذه الإعانات المتنوعة في التنمية الاقتصادية في كل من المناطق والدول على السواء. فكان إجمالي الناتج المحلي في إسبانيا في سنة ١٩٩٩ أعلى بنسبة ١,٥ بالمئة مما كان سيكون عليه لولا هذا التدخل. وتصل هذه النسبة في أيرلنده إلى ٣ بالمئة وفي البرتغال ٤,٥ بالمئة.

لم يتمش التوسع إلى خمسة وعشرين عضواً مع الإسهامات في الموازنة من الدول الأعضاء القدامى. لذا فإن عدد المناطق المؤهلة للإعانة قل، وزاد توجيه الإعانات الهيكلية إلى المناطق الأفقر. إلا أن هذا التحول قد يعنى أن خفض الفوارق بين المناطق سيزداد صعوبة في تحقيقه. وما سبب عمق الفوارق الواضح

بين المناطق؟ قد يرجع ذلك إلى ضالة الإعانات نسبياً، حيث لا تزيد الإعانات الهيكلية عن نصف بالمئة من إجمالي الناتج المحلي في الاتحاد الأوربي. وللسياسات المتبعة داخل البلدان تأثير محتمل وفعل أكبر، ولا تساعد دائماً على خفض الفوارق بين المناطق. فهناك دراسة تشمل دول الاتحاد الأوربي الخمس عشرة الأساسية مثلاً توصلت إلى أن بعض السياسات القومية الأساسية موجهة لزيادة القدرة التنافسية - كتلك المخصصة للبحث والتنمية - أعيد توجيهها لمناطق أغنى في بلدانها. وكلما زادت المنطقة ثراء زادت النفقات الحكومية على البحث والتطوير فيها؛ وكلما ازدادت فقراً قل الإنفاق. وبما أن القصد من هذه الاستثمارات حث النمو الاقتصادي فالأرجح أن تكون النتيجة زيادة الفوارق الإقليمية الموجودة أصلاً.<sup>(1)</sup>

إن المناطق الفقيرة فقيرة لأسباب شتى. فهي في الدول الأغنى مناطق اضمحلال صناعي، تعبيرات مرئية عن انحسار التصنيع وصعود الاقتصاد المعرفي/الخدمي. وهذا الانحسار يصحبه في الغالب تخريب حضري؛ ففي بعض مناطق شمال المملكة المتحدة مثلاً فقدت العقارات في بعض الشوارع أو الأحياء الصغيرة قيمتها فلم تعد تصلح لأي غرض. أما في بلدان الشمال فالمناطق الفقيرة ريفية، وتتكون من مناطق يتناثر سكانها القلائل في نقاط مناخية قاسية. وفي شمال إيطاليا تقع المناطق الفقيرة بين الحضر والريف، وسبب فقرها غياب التنمية الاقتصادية مقترناً بعصبية عائلية تقليدية. وتتضح هذه الاختلافات في توزيع الإعانات الهيكلية، ولكن نظراً لضخامة المشكلات والطبيعة المتناثرة للموارد فإن

---

(1) Luc Soete, 'A knowledge economy paradigm and its consequences', in Anthony Giddens, Patrick Diamond and Roger Liddle (eds.), *Global Europe, Social Europe*. Cambridge: Polity, 2006.

تأثيرها محدود بالضرورة. ومن بين كل المناطق في الاتحاد الأوربي يبدو جنوب إيطاليا عصياً على التغيير. وفي سنة ٢٠٠٢، لم تزد نسبة العاملين بين السكان من ١٨ إلى ٦٥ عن ٤٣ بالمئة، وهي النسبة الأدنى لا في بلدان الاتحاد الأوربي الخمسة عشر الأساسية وحسب، بل في بلدانه الخمسة والعشرين جميعاً.

إن الفروق الكبيرة في مستوى الدخل بين الدول والمناطق تعني أن بعض الأفكار التي تقدم أحياناً لرفع درجة المساواة في أنحاء الاتحاد الأوربي - كالحدا الأدنى للأجور على مستوى أوربا كلها - (كما بينا في الفصل الأول) محكوم عليها بالفشل. واقترح البعض حساب حدا أدنى أوربي للدخل في كل دولة عضو.<sup>(١)</sup> إلا أن اقتراحاً كهذا لا يعد حداً أدنى حقيقياً للأجور بأى شكل نظراً لاتساع الفروق. وفرض حدا أدنى عام للأجور سيعدل تجاهلاً للفروق المؤسسية الهائلة بين البلدان وللاختلاف في طبيعة اقتصاد كل منها؛ وسيؤدى لتفاقم الوضع الإقليمي لأن فرض سياسة عامة على الجميع دون مراعاة الفروق يأتى بنتائج عكسية.

ماذا يمكن أن نستنتج من الاعتبارات المذكورة؟ أولاً، يجب على واضعى السياسات سواء داخل الدول أو على المستوى الأوربي أن يولوا مزيداً من الاهتمام للاتحاد الأوربي نفسه باعتباره مصدراً للتنوع الاقتصادى. فليست السياسات على مستوى الاتحاد الأوربي كإنشاء "السوق الموحدة" وحدها التى يمكن أن تؤثر على أهداف العدل الاجتماعى داخل الدول وفيما بين المناطق؛ بل التفاعل بين السياسات والتغيير الاجتماعى-الاقتصادى أيضاً. فالاتحاد الأوربي ليس دولة؛ ولا هو مجرد منطقة تجارة حرة. وهويته تنير الجدل، لأنها فى حالة تجريب مستمر. لكن هذا

---

(1) Dominique Strauss-Kahn, A Sustainable Project for Tomorrow's Europe. Project presented to Romano Prodi, 2004.

الوضع يعنى أن دينامياته باعتباره نظاما ليست مفهومة جيداً، لأنها لا توازى بالضرورة ديناميات الدول القومية. فالمناطق مثلاً لم تعد مجرد أجزاء من دول، بل من كيان فوق- قومى.

وعلى المستوى الوحدوى الأوروبى هناك صلات بينية بين أنماط الحياة المتغيرة والفوارق فى المستويات. فمستويات الدخل الآخذة فى الارتفاع مثلاً يسرت السفر للخارج إضافة إلى التسييلات المترتبة على اتفاقيات شنغن، التى ألغت السيطرة الحدودية بين الدول الموقعة عليها (خمس عشرة بلدا منها النرويج وأيسلنده من خارج الاتحاد الأوروبى). وسمحت تشريعات مكافحة الاحتكار فى الاتحاد الأوروبى وخصخصة شركات الطيران فى كل دولة بتدنى أسعار الطيران داخل أوروبا وفى العالم. ومن النتائج التى ترتبت على ذلك فى المملكة المتحدة إفقار البلدات الساحلية. فالبلدات التى كانت غنية نسبيا فى الستينيات، ومنها هاستنغز وبرودستيرز على الساحل الجنوبى الإنجليزى أصبحت من البلدات الأفقر فى البلاد. وتحول عنها من كانوا يقصدونها لقضاء عطلاتهم ومعظمهم من الفئات الاجتماعية الاقتصادية الأدنى، وأصبحوا يقصدون إسبانيا أو البرتغال أو اليونان. وفى الوقت نفسه بدأت المنتجعات فى تلك البلدان تعرف الثراء بعد أن كانت فقيرة. هذه البلدات الساحلية التى تحولت إلى الفقر بامتداداتها الداخلية أصعب فى إحيائها من المناطق الصناعية، وذلك لقلّة رصيدها من المهارات القابلة للتحويل. فهى بمعنى من المعانى تحركت فى اتجاه عكس اتجاه أغلب المناطق الأخرى. فهى كانت فى الاقتصاد الخدمى فعليا، إلا أن الخدمات التى تقدمها بطلت وتغيرت.

ثانيا، على المستويين الأوروبى والقومى علينا أن نتذكر أن الفقر ظاهرة متعددة الأشكال، وليست ظاهرة بسيطة أو موحدة كما يتضح من المثال الذى أشرنا

إليه لتونا. وكما فى حالة افتقار الأفراد فالتركيز على المناطق الفقيرة دون غيرها لا يجدى. وبعض السياسات قد تركز على التأثيرات الواردة من خارج تلك المناطق، فى حين قد تركز غيرها على دينامياتها الصغرى. وهناك حاجة ملحة لتوجه جديد على المستويين الاتحادى الأوروبى والقومى نظرا لعدم تحقيق تقدم يذكر فى الحد من الفوارق بين المناطق الفقيرة والغنية. وجزء من المشكلة أننا نفتقر إلى المواد البحثية. فدراسة الفرد والفقير المحلى تبدلت بمجرد توافر المتتاليات الزمنية والبيانات الدولية؛ ولا وجود لبيانات كهذه على مستوى الاتحاد الأوروبى.

وهناك استنتاج ثالث، هو أن استخدام الإعانات الهيكلية يجب أن يرتبط بالحكم الرشيد. ففي البلدان الأقل تقدما أثبتت الخبرة الطويلة أن أموالا طائلة يمكن استيعابها دون حدوث أى تغيير ملموس. وبدون حدوث تحسن فى الحكم لن يكون لأية إعانات أو استثمارات خارجية أى أثر، وهو ما حدث فى جنوب إيطاليا. والحكم الرشيد ليس معناه قيادة سياسية رشيدة غير فاسدة وحسب؛ بل معناه أيضا مجتمع مدنى نشط، أى هيئات قطاع ثالث نشطة وفعالة. ويصدق هذا على المناطق أيضا وعلى المدن وما تحوى من تقسيمات فرعية. ومن الأمثلة الدالة نجاح بعض المناطق ذات الحكم الذاتى فى إسبانيا، والتى أنشأ بعضها كيانات إقليمية لم يكن لها وجود من قبل. فتقدير الذات لا تقتصر أهميته على الفرد. فالأقاليم والمحليات التى تفخر بهوياتها يمكن أن تحدث تغييرا وأن ترقى بنفسها من الخارج فى أن.

والحكم الرشيد حاسم فى اختراق دوائر الانتفاع الإقليمية التى قد تنشأ بدونه. ومع أن هناك مخاوف من الإغراق الاجتماعى فإن الاستثمار الأجنبى المباشر يذهب إلى الدول والمناطق الأغنى لا الأفقر. فأيرلنده زادت ثراء عما كانت من قبل بفضل الاستثمارات الأجنبية التى اجتذبت؛ ولا تزال الاستثمارات تتدفق عليها.

وفي ١٩٩٩-٢٠٠١، شكل تدفق الاستثمارات حوالي ٢١ بالمئة من إجمالي الناتج المحلي في أيرلنده، ذلك البلد صاحب ثاني أعلى إجمالي ناتج محلي للفرد في الاتحاد الأوربي، في مقابل ١٥ بالمئة للدنمارك و ١٣ بالمئة لهولنده. والبلدان التي لا تقبل عليها الاستثمارات هي البلدان الأفقر: إسبانيا (١,٥ بالمئة) وإيطاليا (١ بالمئة) واليونان (أقل من ١ بالمئة).<sup>(١)</sup>

وتم نمط مماثل بين المناطق. فالاستثمارات الأقل تذهب حاليًا إلى المناطق الأكثر احتياجًا لاستثمارات مباشرة. فألمانيا الشرقية سابقًا - إذا استثنينا برلين - تلقت ما لا يزيد عن ٢ بالمئة من إجمالي ما تدفق على ألمانيا من استثمارات بين ١٩٩٨ و ٢٠٠٠. وفي إيطاليا نجد أن ما تدفق على الجنوب أقل من ٤ بالمئة (من إجمالي استثمارات هزيل أصلاً). إلا أن هذا الوضع تغير جزئيًا في حالة الدول الأعضاء الجديدة.

## الابتكار والبحث والتطوير

يجب أن يحدونا الأمل في أن تتمكن بعض المناطق الفقيرة - كالدول "المخلفة" - من القفز مباشرة إلى القطاعات المتقدمة من الاقتصاد المعرفي/الخدمي. ولكي يحدث هذا فهي بحاجة لاستثمارات لا يستهان بها في تقنية المعلومات وفي التعليم. ويركز "جدول أعمال لشبونة" بشدة على التعليم، ولا سيما التعليم العالي إلى جانب البحث والتطوير في خطته لإحياء أوروبا اقتصاديًا. وتواصل المراجعة النصف سنوية للإستراتيجية الحديث بقوة عن "المعرفة

---

(١) انظر Pervez Ghauri and Lars Oxelheim, European Union and the Race for Foreign Direct Investment in Europe. London: Elsevier, 2006.

والابتكار - محركى النمو المستدام". وكما الحال فى أماكن أخرى فالأهداف الرسمية لم تتحقق بعد. ويفترض فى موازنات البحث والتطوير فى الاتحاد الأوروبى أن تصل إلى ٣ بالمئة من إجمالى الناتج المحلى بحلول سنة ٢٠١٠. ويفترض فى نفقات بحوث الاستثمار وتنميته أن ترتفع إلى ثلثى إجمالى الاستثمارات كما هو الحال فى الولايات المتحدة؛ وكلاهما أبعد ما يكون عن ذلك فى الوقت الراهن.

يشير النقاد إلى أن وضع أهداف بالنسب المئوية أمر مشكوك فيه.<sup>(١)</sup> فهدف الثلاثة بالمئة يتكون من ١ بالمئة تسهم بها الدولة و ٢ بالمئة يسهم بها القطاع الخاص الصناعى. والشريحة التى يفترض أن تتسع هى تلك التى ليس للحكومات أى تحكم مباشر فيها. والأهداف ليست محددة النتائج. فلماذا تهتم الشركات بزيادة الإنفاق النسبى على البحث والتطوير لذاتهما؟ وإن وضعت استثمارات جديدة فلأنها تعتقد أن التقدم العلمى يساعدها على تحسين الأداء. ولكن إن استطاعت فستطبق على البحث والتطوير الفكر الاقتصادى نفسه الذى تطبقه على سائر مجالات نشاطها. وستخفض الإنفاق على البحث والتطوير قدر المستطاع لخفض التكاليف، وقد تستعين بشركات صغيرة عالية المستوى.

إن هدف الثلاثة بالمئة القائم على المقارنة بالولايات المتحدة لا يأخذ فى الحسبان الاختلافات الاقتصادية بين أمريكا والاتحاد الأوروبى. فنظم الأرباح والضرائب على الدخل فى الولايات المتحدة تختلف عنها فى أغلب بلدان الاتحاد الأوروبى بتشريعاتها وحوافزها المختلفة. كما أن بعض البحوث المطبقة فى مجال

---

(1) Soete, 'A knowledge economy paradigm'.

الأعمال في الولايات المتحدة تمولها الدولة، ولا سيما البحوث والتنمية التي يمكن أن تكون لها نتائج عسكرية.

ولدينا أسباب أخرى أيضا لتحفظاتنا على تفسير لشيونة للبحث والتنمية في صلتها بالاقتصاد المعرفي/الخدمي. يرى لوك سويت أن الصلة بين البحث والابتكار والتنمية الاجتماعية-الاقتصادية تتغير مع نضج الاقتصاد المعرفي/الخدمي.<sup>(١)</sup> فالبحث والتطوير من الطراز القديم لم يعد ذا صلة كما كان، ولم يعد من المهم إنتاج البحث والتطوير ذاتيا. وتغيرت طريقة فهم عمليات الابتكار تغيرا كبيرا في السنوات الأخيرة. ومع أن موقف لشيونة من البحث والتطوير يطرح باعتباره راديكاليا فهو يجسد توجهها يثير التساؤل. يقوم هذا التوجه على نموذج صناعي يقدم حوافز للشركات لكي تستثمر في تطوير قوتها العاملة داخليا وتفترض وجود صلة وثيقة بين الشركات والجامعات وسائر مؤسسات التعليم العالي.

لذا يركز النقاش على الجوانب التقنية من إيجاد المعرفة ونقص العلماء والمهندسين والحاجة لتكامل أوريبي في البحث. وقد تكون هذه أهدافا محدودة إلا أن سويت يرى أنها تفتقد أنواعا أساسية من "المعرفة" يحتاجها الاقتصاد المعرفي/الخدمي. فالمعرفة في الاقتصاد الجديد علمية وتقنية في جزء منها كما يبين تأثير تقنية المعلومات نفسه. لكن الأهم من ذلك الإبداع واختبار الأفكار الجديدة وفتح أسواق جديدة وفقا لتغير أنماط الطلب. فليس ثم شيء تقني خاص مثلاً في نجاح "ستاربكس"<sup>(٢)</sup> فهي إما تظهر الطعم الكامن أو تعمل على تطوير ذلك الطعم، أو بعض من كليهما. وكثير من المشروعات الناجحة أو الخدمات الجديدة تقوم على التقنية بصورة ما، لكن التقنية نادرا ما تشكل قوة الدفع الوحيدة

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) شركة أمريكية تنتج البن وتسوقه وتدير سلسلة كبرى من المقاهي. (المترجم)



لنجاحها السوقى. فأجهزة آيبود تعتمد على تقدم تقنى كبير إلا أنها أوجدت سوقاً جديدة بسبب جاذبيتها الشكلية وتصميمها البارع وتسويقها الفعال.

هناك نقطة اتصال كبرى هنا بتنشيط سياسة سوق العمل. فإننتاج "المعرفة" يتم فى شبكات قد تكون موزعة على مسافات بعيدة لا فى شركات متسلسلة. وربما كانت أسواق العمل الفنية والإعلامية هى بشائر المستقبل بقدر ما هى بشائر لأسواق المهن العلمية والتقنية التقليدية كما يرى جونتز شميت.<sup>(1)</sup> ومعظم العاملين الفنيين والمبدعين ينخرطون فى شبكات متناثرة وليسوا فى علاقات عمل تابعة. وليس للأقدمية فيها إلا دور ضئيل، ودفع الأجور حسب ساعات عمل ثابتة يعد أقل أهمية من عقد العمل التقليدى. وإذا كانت المهن التقليدية تتطلب مهارات ثابتة ومحددة فإن المهن الأحدث والقائمة على المعرفة تنسم بقدر من السيولة أكبر. ويبدو أن هناك شهية لا تنتهى للجدة والأصالة تقود الابتكار إلى جانب تحولات فى الذوق. وهذا الابتكار بدوره لا يمشى على خط مستقيم، بل يقوده الخروج على الطرق التقليدية للعمل.

إن الاقتصاد الخلاق فى الولايات المتحدة نما بعشرين مليون فرصة عمل منذ أواخر الثمانينيات؛ وهو ما يفسر قزراً كبيراً من نجاح أمريكا الاقتصادية. ويمثل الاقتصاد الخلاق حالياً حوالى نصف إجمالى الرواتب. وتنتج صناعة الترفيه ضعف فرص العمل التى تخلقها الهندسة. ونظراً لنقص العمالة فإن الشركات تعمل على تحديث مهارات عاملها ورفع العوائق التى تحول دون تطوير مهارات عاملها

---

(1) Schmid, "Towards a theory of transitional labour markets", in Bernard Gazier and Günther Schmid (eds.), The Dynamics of Full Employment: Social Integration Through Transitional Labour Markets. Cheltenham: Edward Elgar Publishing, 2002.

من ذوى المهارات المنخفضة. ومن الأمثلة على ذلك "بست باى"، وهى شركة بيع الإلكترونيات بالتجزئة. فالخطط التى تسمح بتحصيل المهارات تسمح للعاملين فيها بالتقدم بسرعة من خدمة المستهلك فى المتجر إلى مناصب الإدارة.

وهناك جانب آخر. فإلى أى مدى علينا أن نعتمد على البحث والتطوير المحدد خصيصًا لمحيط أوروبى؟ فليس هناك ما يثبت أن نسب البحث والتطوير القومية أو فى الاتحاد الأوروبى لها أية قيمة بالنسبة للأداء الاقتصادى.<sup>(1)</sup> ومع إيجاد الشركات لتقسيمات عمل دولية أكثر تعقيدًا يزداد تدفق البحث والتطوير وسائر مصادر الأفكار الجديدة من أنحاء العالم. وستنظر الشركات إلى استثماراتها لا من منظور محلى، بل من منظور عالمى.

ومن المهم محليًا توافر خبرة استغلال الابتكار؛ فالاستثمار فى العلم والتقنية وسائر مصادر الابتكار مهم دون شك. لكن القدرة على حسن استغلال التطورات العلمية والتقنية قد لا تقل أهمية عن إبداعها. كما أن دورات المنتج سواء فى السلع أو الخدمات تصبح أقصر مما كانت نظرا لشدة التنافس على نطاق عالمى.

كان النظام القديم يقوم على قسمة بسيطة بين من ينتجون المعرفة ومن يطبقونها فى سياقات تجارية - معامل البحث والتطوير والجامعات من ناحية، والشركات من ناحية أخرى. وحافز منتجى المعرفة إذا نظر إليه من هذا المنظور ليس إنتاج أفكار جديدة أو التوصل لنتائج جديدة، بل تقديم مخرجات يمكن تنفيذها عمليًا بسرعة معقولة. وهذه الأنماط تصلح فى المجالات الصناعية كصناعات السلع الاستهلاكية الكيماوية والصيدلانية والإلكترونية، ولكنها لا تصلح فى القطاعات الخدمية الناشئة. وتتوقف مكاسب الكفاءة أو فتح أسواق جديدة على إنشاء شبكات

---

(1) Soete, 'A knowledge economy paradigm'.

مرنة، وعلى دمج التقنية فى أشكال أخرى من الإبداع. وفى مجالات البحث ذات الصلة بالنجاح الاقتصادى فى تقديم الخدمات قد يأتى النجاح من التوصل عالمياً لمصادر المعرفة وإيجاد معايير مشتركة ونشر المنتجات الجديدة فى الدول النامية. ويشكل البحث فى تقنيات توفير الطاقة ومواردها لمكافحة التغير المناخى مثلاً شديداً للوضوح.

اقترحت المفوضية مؤخراً أن الإنفاق على البحث والتطوير فى بلدان الاتحاد الأوروبى قد لا يرتفع فى ظل التوجهات الراهنة إلا إلى ٢,٢ بالمائة بحلول سنة ٢٠١٠. وترفع الصين استثماراتها فى البحث والتطوير بمعدلات عالية وقد تلحق بالاتحاد الأوروبى بحلول تلك السنة. وهذا الوضع لا يقلق فى حد ذاته، لأن الصين ستشغل بسد الفجوات الموجودة سلفاً، وستنافس فى مجالات هجرتها الاقتصادات المتقدمة إلى حد كبير، ولو أن هذا الوضع يتغير بسرعة لأسباب سبق شرحها. وعلى مجتمعات الاتحاد الأوروبى أن تحتفظ بالسبق بالبناء على مؤسسات بحثية أكثر ثباتاً وبتطوير منتجاتها وابتكاراتها السوقية. وما يقلق هو أن هذه العمليات فى حالات عديدة وفى عديد من بلدان الاتحاد الأوروبى تبدو أقل تطوراً من البحث والتطوير التقليديين.

## التعليم العالى

يشير البحث والتطوير ضمناً إلى التعليم. وكان الوعى المتزايد بالأهمية الاقتصادية للجامعات من عوامل التعجيل بجدول أعمال لشبونة أصلاً. وكان بعض المحللين يظنون أن الجامعات التقليدية سيصيبها التقادم شيئاً فشيئاً، حيث سيتم معظم التعليم عبر شبكة الإنترنت فى المستقبل. وأنشئت جامعات جديدة على هذه

الشبكة الإلكترونية، بعضها فى ظلال الدولة، وأقيم معظمها بمبادرات خاصة. وحقق بعضها نجاحاً مشهوداً لا سيما "جامعة فينيكس" الإلكترونية، إلا أن أغلبها أصابه الفشل.

هناك بعض الدروس المستفادة من الفشل النسبى لجامعات الإنترنت حتى الآن على الأقل. فالعلامة التجارية فى الجامعات أمر يصعب تحقيقه. فأفضل الجامعات فى العالم أقدمها. ومن أسباب ذلك أن الموهبة فى الجامعات تتجمع فى عنقيد. فالسؤال الأول الذى يطرحه أحد كبار الأكاديميين على غيره عن قسمه هو "من غيرنا فى هذا المجال؟" - من الأساتذة فى هذا القسم؟ وتقوم المكانة فى الجامعات قومياً أو عالمياً على البحث ولا يهم كم من الساعات يقضيها الأساتذة فى التدريس. وأخيراً فالمكانة فى الدرجات لها قيمة تجارية. فالدرجة الجامعية من هارفارد أو السوربون مثلاً لها قيمتها فى كل مكان. كما تتوقف القيمة التجارية لمثل هذه الدرجات الجامعية على ندرتها.

فى خطاب ألقاه فى جلاسجو فى أبريل ٢٠٠٥، قال رئيس المفوضية الأوروبية خوسيه مانويل باروسو إن «الجامعات ليس لها دور مهم على جدول أعمال المفوضية».<sup>(١)</sup> وأعقبت المفوضية هذا التصريح بإصدار بيان عن الجامعات أرسل للدول الأعضاء أكدت فيه على الدور المحورى للتعليم العالى فى إستراتيجية لشبونة وحددت مجالات للتطوير (وهى عديدة).

---

(1) José Manuel Barroso, 'Strong universities for Europe. Speech at the European Universities Convention', Glasgow 2 April 2005; at [www.eua.be/eua/jsp/en/upload/Barroso\\_speech.1112693429657.pdf](http://www.eua.be/eua/jsp/en/upload/Barroso_speech.1112693429657.pdf).

استحدث برنامج ترجمة (يوروسيك) غامض بعض الشيء للدلالة على جهود الاتحاد الأوروبي في مجال التعليم العالي. وهناك "مساحة تعليم عالٍ" أوروبية. وحدد بيان بولونيا لسنة ١٩٩٩، معاملات هذه "المساحة" في مجموعة من الأهداف. ووضعت برامج "سلسلة القراءة" في أنحاء الدول الأعضاء لدفع الحراك التعليمي والمساعدة في تكامل أسواق العمل وزيادة قدرة التعليم العالي الأوروبي على المنافسة دولياً. وأضيفت أهداف أخرى فيما بعد، منها طموحات تتعلق بالتوسع في التعلم مدى الحياة. وكان بيان بولونيا بمثابة تعهد من جانب الحكومات القومية وافقت فيه على أن التعليم بصفة عامة والتعليم العالي بصفة خاصة لا يدخل في نطاق السياسات الأوروبية المشتركة. ويقتصر دور المجموعة على تشجيع التعاون بين الدول الأعضاء.

وضعت خمسة أهداف ذات صلة بجدول أعمال لشبونة. فوافقت الدول الأعضاء جميعاً على خفض الاختلال بين الجنسين بين الخريجين في الرياضيات والعلوم والتقنية إلى النصف بحلول سنة ٢٠١٠. بدءاً من خط أساسي لسنة ٢٠٠٠. ويفترض في نسبة الشباب في سن ٢٥-٢٩ ممن حصلوا على الشهادة الثانوية على الأقل أن تزيد إلى ٨٠ بالمئة أو أكثر. كما يفترض أن ينخرط ١٥ بالمئة أو أكثر من السكان في سن ٢٥-٦٤ في التعليم مدى الحياة؛ ولا يفترض أن تقل النسبة عن ١٠ بالمئة في أي من البلدان.

من المعروف أن الجامعات في الاتحاد الأوروبي متخلفة عن نظيراتها الأمريكية على كل المستويات. وقليل من جامعات أوروبا ما يدخل ضمن جامعات العالم المئة الأولى قياساً بمعايير البحث. فالجامعات مزدهمة في عديد من بلدان الاتحاد الأوروبي، والأساتذة فيها محبطون ويتلقون رواتب ضعيفة. لذا فهناك تسرب مستمر لبعض من خيرة العلماء والباحثين إلى الولايات المتحدة، ومعظمهم لا

يعودون. وهناك تناقضات سافرة في سياسات بعض دول الاتحاد الأوربي فيما يتصل بالجامعات في علاقتها بالاقتصاد المعرفي/الخدمي. وزادت أعداد الطلاب في الجامعات بسرعة في كل مكان، بينما ظل التمويل ثابتاً إلى حد كبير؛ وبالتالي فالتعليم الذي تقدمه ضعيف في الغالب. كما تبين الإحصاءات أن الصلات العادية بين الجامعات ومعاهد البحوث والشركات في البحث والتطوير أضعف منها في الولايات المتحدة.

إن الجامعات ليست مجرد ملاحق للشركات أو أحد موارد الاقتصاد. وعلينا أن نفكر في المهمة الأكبر للجامعات وفي توجيهها أيضاً. والأوروبيون اعتادوا على سماع أن الجامعات الأمريكية متفوقة على جامعاتهم في حين أنه يجب التنويه إلى أن التعليم العالي في الولايات المتحدة ليس كله على ما يرام. وشهدت السنوات القليلة الماضية موجة من الانتقادات لحالة الجامعات فيها. ويلاحظ أن التعليم العالي الأمريكي «تحول إلى دورة تدريبية وظيفية كبيرة»<sup>(١)</sup> تعمل على «تلبية احتياجات سكان منتجين ولا تساعد على فردية نقدية متجاوبة اجتماعياً». ويشير أحد الكتاب إلى «بقايا جامعة»<sup>(٢)</sup>.

تعتمد الجامعات الأمريكية وعلى خلاف الرأي الشائع على الدعم الحكومي إلى حد كبير، سواء من الحكومة الاتحادية أو المحلية. واستنتج أحد التحليلات الحديثة أن قليلاً من الجامعات الحكومية يمكن خصصتها. والعديد من الجامعات

---

(1) Diane Ravitch, former Assistant Secretary of Education عن Richard Herch, 'The liberal arts college', Liberal Education, Summer 1997.

(2) Eric Gould, The University in a Corporate Culture, New Haven, CT: Yale University Press, 2003; Bill Readings, The University in Ruins, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997.

والكليات "الخاصة" تعتمد على تمويل حكومي في صورة موارد بحثية سخية. وحين تستمد الجامعات قدرًا كبيرًا من تمويلها من شركات الأعمال يتضاعف القلق على مدى توافق وضع كهذا مع استقلالية البحث. إلا أن هناك بضع جامعات لديها أوقاف ضخمة تمكنها من رفض مصادر تمويل كبرى من خارجها.

يجب أن تحافظ الجامعات على استقلالها عن الدولة في وقت تريد فيه الحكومات أن تحيلها موردًا اقتصاديًا قوميًا. ومن السبل إلى ذلك إعادة التأكيد على ما تمثله الجامعات من قيم، والتوسع في التعليم العالي ليس مجرد تلبية لمتطلبات الاقتصاد الحديث؛ بل يتصل بإعداد المواطن لعالم يتسم بالتنوع والتغيير. وينبغي أن تواصل المواد غير المهنية ملء نصيبها العادل من مناهج التعليم؛ وينبغي أن يكون السعي للنزاهة للمعرفة المهمة الأولى للجامعة القائمة على البحث. وتدل المشكلات التي برزت في الولايات المتحدة على أنه ليس ثمة طريقة سهلة لحل هذه المشكلات.

هناك مشكلات أخرى في الجامعات الأمريكية أيضًا. فالمصروفات في الجامعات الخاصة الكبيرة ارتفعت إلى حد يفوق موازنات غالبية الأسر الأمريكية. والمنح متاحة بوفرة ولكنها لا تكفي لضمان التحاق القادمين من خلفيات فقيرة والمؤهلين للقبول إلا في بضع مؤسسات غنية فقط. ونسبة القادمين من خلفيات كهذه في الدرجات العليا من التعليم العالي الأمريكي في انخفاض.

وهناك دلالات ضمنية مختلفة بالنسبة لأوروبا. فالتعليم العالي في أغلب بلدان الاتحاد الأوروبي لم يعد يمكن تمويله كله أو معظمه حكوميًا. فلا بد أن يسدد الطالب تكلفة ما يتلقى من تعليم. وبما أن المال يذهب إلى الجامعات مباشرة فهو يساعد على دعم استقلالها وتوفير الموارد اللازمة لدفع رواتب أفضل وتهيئة بيئة بحثية

أكثر تطورا لأساتذتها. وتكمن المشكلة في ضمان ألا يعاني القادمون من خلفيات أقل حظاً. والنظم المعمول بها في المملكة المتحدة وأستراليا مهيأة لمحاولة تحقيق هذا الهدف. فداد المصروفات ليس مقدماً كما في الولايات المتحدة، بل يؤجل لما بعد التخرج؛ ومن يحققون دخلاً أقل من مستوى معين لا يردون شيئاً. وينتفع بالموارد الإضافية في تحسين الرواتب وظروف العمل وتوفير منح علمية وموارد أخرى لإعانة الطلاب القادمين من مناطق أقل حظاً. فهناك في الحقيقة إعادة توزيع من الطلاب القادرين للطلاب الأقل قدرة.

ليست للاتحاد الأوروبي سلطة ضمان اتخاذ دوله الأعضاء خطوات نحو تنويع تمويل التعليم العالي. ولكن يمكنه أن يثير نقاشاً. فإذا كان إصلاح رواتب التقاعد وإصلاح نظم الرعاية الصحية أموراً هناك اتفاق عالمي على ضرورتها، فالشيء نفسه يصدق على التعليم العالي بما له من عوائد هائلة على الاقتصاد. ومن الخطأ التركيز على العلم والتقنية. و"المعهد الأوروبي للتقنية" المزمع إنشاؤه (تتفذاً لتقرير سابير) لا يستحق متابعة إنشائه إلا إذا كانت الموارد التي يمكن توجيهها إليه تكفي للسماح له بمنافسة كبار نظرائه في العالم، ومن أين يمكن الحصول على هذه الموارد؟

في السيناريو الأفضل ستكون هناك: (١) حاجة للإبداع في الاقتصاد المعرفي/الخدمي؛ (٢) الحفاظ على الجامعة وجمعها بين الفنون والإنسانيات والفلسفة والعلوم والتقنية؛ (٣) إعادة الجامعات الأوروبية الرائدة إلى المكانة العالمية. صحيح أن الإبداع لا يدرّس، لكنه أحد نواتج التعليم الجامعي المتميز؛ ولا داعي لافتراض أنه ينحصر في العلم، وهناك بعض الخطر في تصور أنه يبدو كبيراً في الدراسات التجارية.



وفيما يلي بعض نتائج السياسات العامة:

١. لا معنى لوضع هدف شامل للبحث والتطوير لا سيما إذا كان التحرك نحو الهدف يفترض أن يأتي من الأعمال التجارية.

٢. يظل البحث والتطوير على الطريقة القديمة - التي تركز على العلم والتقنية وربط الأعمال التجارية (والمؤسسات العامة أيضا) بمعاهد البحث والجامعات - على أهميته الكبرى. ولكن لا بد من التركيز على الظروف التي يجرى فيها الاستغلال السوقي للتقنية. فالبلدان الكبيرة والصغيرة على سواء أصبحت لديها القدرة على استغلال التقنية على مستوى عالمي إذا توفرت الظروف اللازمة.

٣. للجامعات والكليات دور محوري في الاقتصاد المعرفي/الخدمي. بل إن البعض يشير إليها على أنها "مصانع الاقتصاد المعرفي". وللقدرة على التكيف والنظرة الشاملة مكانة جديدة في الاقتصاد الحديث. ومن الحكمة التوسع في التعليم العالي، وهدف الاتحاد الأوروبي بإلحاق ٨٠ بالمئة من الشباب بالتعليم بعد الثانوي ليس مغاليا فيه.

٤. لا بد من اتخاذ خطوات لتحسين وضع الجامعات في بلدان الاتحاد الأوروبي، ولو أن أغلبها لا بد أن يكون على مستوى قومي أو إقليمي. ولا بد بصفة خاصة من تطوير المؤسسات من القمة لا بسبب النخبوية، بل لأن الجامعات الكبرى تحدد المسار لبقية الجامعات، ونظرا لأهميتها للبحث الإبداعي.

٥. يمكن للاتحاد الأوروبي أن يتعلم الكثير من نظام التعليم العالي الأمريكي، وعليه أن يعمل جاهدا على عكس تدفق كبار الباحثين ممن يعبرون

الأطلنطى وتخسرهم أوربا. ومن السبل إلى ذلك نسخ النموذج الكندى. ففى كندا أنشئت كراسى الأستاذية القيمة على أساس التمويل الحكومى فأحسن تمويلها من حيث الرواتب وظروف العمل. فيمكن للجامعات أن تطبق هذا النظام لجذب كبار العلماء. ويبدو أن ذلك ساعد على عكس اتجاه هجرة العقول الكندية إلى الولايات المتحدة. ويمكن تطبيق خطة كهذه فى بعض الدول الأعضاء أو من جانب الاتحاد الأوربى أو كليهما. ومع ذلك فهناك عيوب فى التعليم العالى الأمريكى ويجب الاستفادة منها. يتركز بعض هذه العيوب فى تزايد الارتباط بين الجامعات وقطاع الأعمال، ويتعلق بعضها بالتمويل. وليس ثمة إجابة حاسمة للسؤال الخاص بكيفية تمويل تعلم عالٍ على مستوى جماعى. ولكن من الواضح أن مساهمات الطلاب لا بد أن تؤخذ فى الاعتبار.

٦. يثير التوسع فى التعليم العالى مشكلات مهمة أمام العدل الاجتماعى. إذ عليه أن يوفر سبل الحراك الاجتماعى للطلاب من ذوى الخلفية الفقيرة، لكن الشواهد تدل على أن هذا لا يحدث. كما ينبغى العمل على تضيق الفجوة بين من يجربون التعليم العالى ومن لا يجربونه.

٧. التعليم العالى فى حد ذاته عمل تجارى ضخّم ذو عائد مستقل كالعائد من الطلاب من خارج الاتحاد الأوربى. هذا العائد يجب أن يؤخذ فى الحسبان فى التقويم الشامل لتكاليف التوسع فيه ومزاياه.

## التحديث البيئي

من المجالات التي يمكن لأوروبا أن تقود العالم فيها تطوير التحديث البيئي. فبدلاً من خفض القدرة التنافسية يمكن لتطوير تقنيات بيئية جديدة - وأنماط حياة جديدة - أن يكون حافزاً لتجديدها. وتقنية المعلومات غيرت اقتصاداتنا وحياتنا في الثلاثين سنة الأخيرة. وقد يكون ثم اكتشاف كبير أو مجموعة اكتشافات تغير حياتنا بالقدر نفسه في السنوات الثلاثين القادمة في مجال البيئة/الطاقة. ومع ازدياد مشكلات الوقود الأحفوري وتفاقم مشكلات التغير المناخي تزداد الحاجة للابتكار.

لا بد من اعتبار اليابان رائدة هذا المجال، لا الاتحاد الأوربي ولا الولايات المتحدة. بدأت اليابان في الابتكارات البيئية في السبعينيات. وسبقت غيرها بسياساتها الواضحة حينذاك؛ وهي سياسات كانت رد فعل لأزمة، إذ كانت مدن اليابان من أكثر مدن العالم تلوثاً. وبعد أزمة النفط في السبعينيات بذل اليابانيون مساعٍ مضنية لخفض استخدام الطاقة. وكان الاستهلاك العالمي من النفط في ازدياد مستمر بينما ظل استهلاك اليابان منه ثابتاً منذ ١٩٧٥ مع أن اقتصادها نما ثلاثة أضعاف.<sup>(١)</sup> فاستحدثت البلاد ثقافة الحفاظ على البيئة ونوعت مصادر الطاقة فيها. ففي اليابان ٢١ بالمئة من العربات منخفضة الانبعاثات، وهي نسبة أعلى كثيراً من غيرها. و"الآلات الذكية" في المدن الكبرى تطفئ آلات قطع التذاكر والمصاعد وسائر الآلات حين لا تكون مستخدمة ولو للحظة.

يشترط القانون إعادة تصميم مكيفات الهواء بحلول سنة ٢٠٠٨ بحيث تستخدم كهرباء تقل بنسبة ٦٠ بالمئة عن المتوسط الحالي، وكذلك سائر أنواع

---

(1) Anthony Faiola, 'Turn off the heat - how Japan made energy-saving an art form', Guardian, 17 February 2006.

الأجهزة المكتبية والمنزلية. وأدى هذا التشريع إلى نشاط كبير فى الشركات التى تصنع السلع التى يجب أن تلبى هذه المعايير. وأغلب هذه السلع تكلف حتى الآن أكثر من تكلفة المنتجات التى ستحل محلها، وبالتالي فهى غير تنافسية فى أسواق العالم. ولكنها ستصبح كذلك مع انخفاض الأسعار أو شروع بلدان أخرى فى التوجه بجدية نحو توفير الطاقة.

يقدر استهلاك الفرد من الطاقة فى اليابان الآن بنصف استهلاك نظيره فى الولايات المتحدة، وثلثى استهلاك نظيره فى ألمانيا أو فرنسا أو المملكة المتحدة. خمسة من مصانع الصلب اليابانية الضخمة العشرة تحرق فى معاملها سلعا قابلة للتدوير كالنفايات المنزلية. وخفضت المصانع اعتمادها على النفط بنسبة ٨٥ بالمئة منذ ١٩٧٤. فيستهلك إنتاج طن واحد من الصلب وقودا أقل بنسبة ٢٠ بالمئة عن مثيله الأمريكى. وتستمد صناعة الورق ٣٨ بالمئة من طاقتها من مصادر تقوم على تدوير النفايات أو غيرها من مصادر الطاقة المتجددة.

وتويوتا التى أصبحت هذه السنة أكبر مصنع عربات فى العالم لديها تصور عن مستقبل عربات بيئية مضادة للحوادث ومزودة بمحركات تنظف الهواء حولها وتجرى على طرق بلا زحام. ومن حصيلة مبيعات المجموعة البالغة ١١٠ مليار دولار يستثمر ٤-٥ بالمئة فى تطوير عربات تستهلك وقودا غير أحفورى. والمشكلة الكبرى ليست التقنية، بل التكلفة. ويرى مدير عمليات تويوتا فى الخارج أن أوراق الاعتماد البيئية للشركة كانت السبب الأول لقدرتها على التفوق على شركات صناعة العربات الكبيرة فى الولايات المتحدة.<sup>(١)</sup>

---

(1) David Gow, 'Ten years down the road', Guardian, 31 March 2006.

هناك ما يدل على أن الولايات المتحدة شرعت أخيراً في أخذ "إيمانها على النفط" مأخذ الجد. وهناك تقرير أعده "مجلس الدفاع عن الموارد الطبيعية" في سنة ٢٠٠٥ يعتبر الاعتماد على النفط "نقطة ضعف اقتصاد أمريكا" - وأمنها القومي.<sup>(١)</sup> والولايات المتحدة لديها حالياً أقل من ٣ بالمئة من احتياطي النفط المعروفة وتستورد ٦٠ بالمئة من نفطها. ويرى "مجلس الدفاع عن الموارد الطبيعية" أن استهلاك الولايات المتحدة من النفط يمكن خفضه بنسبة ٤٠ بالمئة بحلول سنة ٢٠٢٥ باتخاذ عدد من الإجراءات البسيطة وبالإستعانة بالتقنية المتاحة. أما إذا بقيت المعدلات الراهنة، فإن استهلاك البلاد منه حينذاك سيزيد عن استهلاكها الحالي بنسبة ٤٠ بالمئة.

في فبراير ٢٠٠٦ أعلنت حكومة السويد عن عزمها أن تصبح أول اقتصاد متقدم يقطع نفسه من النفط والغاز الطبيعي تماماً بحلول سنة ٢٠٢٠.<sup>(٢)</sup> وكما فعلت اليابان أبدت السويد رد فعل قوياً تجاه ارتفاع أسعار النفط في السبعينيات. واليوم تستمد كهرباءها بالكامل من مصادر وقود غير أحفوري (منها حالياً الطاقة النووية). والمركبات ذات المحرك هي المستهلك الرئيس للوقود الأحفوري. وخفضت البلاد اعتمادها على النفط من ٧٧ بالمئة من إجمالي استهلاكها من الطاقة في سنة ١٩٧٠ إلى ٣٢ بالمئة في سنة ٢٠٠٣. وفي السنة نفسها جاء ٢٦ بالمئة من إجمالي الطاقة المستهلكة من مصادر متجددة - مقارنة بمتوسط لا يتجاوز ٦ بالمئة في بلدان الاتحاد الأوروبي الخمسة عشر الأساسية. وتهدف البلاد لمحاكاة

---

(1) John Vidal, 'Sweden plans to be world's first oil-free economy', Guardian, 8 February 2006.

(2) Natural Resources Defense Council, Securing America. Issue Paper, February 2005.

البرازيل في تحويل نسبة لا بأس بها من مركباتها ذات المحرك إلى أنواع وقود حيوى فى فترة قصيرة نسبيا. وترى مونا سالين وزير التنمية المستدامة فى السويد أن اعتماد البلاد المحدود نسبيا على النفط يعد ميزة تنافسية كبرى للصناعة السويدية. فمذ ١٩٩٤ أمكن خفض استهلاك النفط فى قطاعى الإسكان والخدمات بنسبة ١٥ بالمئة.<sup>(١)</sup>

وأعلنت البرتغال مؤخرا بناء أحد أكبر مشروعات الطاقة المستمدة من الرياح فى أوربا. وسيولد المشروع ما يوازى ٢٥ بالمئة من إجمالى طاقة الرياح المولدة حاليا فى بلدان الاتحاد الأوروبى. وتخطط البلاد لإنشاء أول مزرعة أمواج تجارية فى العالم، وتعمل على التوسع بشدة فى استخدام الطاقة الشمسية. وجار إنشاء مصنع جديد للطاقة الشمسية بالقرب من بلدة "مورا" سيكون أكبر عشر مرات من حيث كم الطاقة المولدة من أكبر مصنع حالى فى أوربا.

تدرك إستراتيجية التنمية المستدامة فى الاتحاد الأوروبى أن «استهلاك الفرد من الموارد والطاقة فى أوربا يفوق أى مستوى يمكن احتماله».<sup>(٢)</sup> وعالميا يستهلك الاتحاد الأوروبى بسلكانه الذين يشكلون ٧ بالمئة من سكان العالم حوالى ١٧ بالمئة من موارد العالم سنويا. ويفترض فى الإستراتيجية البيئية أن تتكامل مع عملية لشبونة، ولكن على الرغم مما تحويه الإستراتيجية من إفراط فى الطموح فهى لا تطرح شيئا عن كيفية تحقيقه. وفى ٨ مارس ٢٠٠٦ أصدرت المفوضية ورقة

---

(1) Mona Sahlin, 'Sweden first first to break dependence on oil!', Government offices of Sweden, at [www.sweden.gov.se](http://www.sweden.gov.se).

(٢) المفوضية الأوروبية، اتصال من المفوضية بالمجلس والبرلمان الأوروبى بشأن مراجعة إستراتيجية التنمية المستدامة. متاح على شبكة الإنترنت [http://europa.eu.int/eur-lex/lex/LexUriServ/site/en/com/2005/com2005\\_0658en01.pdf](http://europa.eu.int/eur-lex/lex/LexUriServ/site/en/com/2005/com2005_0658en01.pdf)

خضراء" عن الطاقة.<sup>(١)</sup> تنص الورقة على الحاجة لألف مليار يورو في السنوات العشرين القادمة لإحلال هذه المحطات. والاعتماد على الاستيراد في ارتفاع بدلاً من العكس. وفي ضوء الاتجاهات الراهنة سيستورد ٧٠ بالمئة من احتياجات الاتحاد من الطاقة في العشرين سنة، مقارنة بنسبة الـ ٥٠ بالمئة التي تستورد اليوم. وهناك ست أولويات لتطوير كفاءة الطاقة:

١. إيجاد سوق تنافسية للكهرباء والغاز لخفض الأسعار وزيادة تأمين الإمداد.
٢. تطوير تأمين الإمداد بحيث يلقي البلد الذي تتضرر بنيته التحتية العون من غيره أو يسحب من وعاء مشترك.
٣. التحرك صوب مزيج من الطاقة أكثر تجددًا وتنوعًا.
٤. تحسين كفاءة الطاقة ومكافحة تغير المناخ.
٥. تشجيع تطوير تقنيات طاقة جديدة.
٦. وضع سياسة خارجية متماسكة للطاقة لإيجاد شراكات ومنتجين وبلدان عبور وهيئات دولية أخرى. ويشمل ذلك بصفة خاصة مبادرات جديدة تجاه روسيا باعتبارها المزود الأهم بالطاقة.

عندما كان جدول أعمال لشبونة لا يزال في طور النشأة في أواخر التسعينيات كانت أسعار الطاقة العالمية منخفضة وكان هناك فائض في الإمكانيات لدى الدول الأعضاء. ثم ارتفعت أسعار الطاقة مع صدور إستراتيجية لشبونة تقريبًا في سنة ٢٠٠٠. والنفط والغاز يتشابكان دائمًا مع قضايا الأمن الجغرافي-السياسي، لكن طبيعة قضايا الأمن تغيرت. فروسيا وآسيا الوسطى دخلتا في المعادلة أكثر

---

(1) European Commission, Green Paper on Energy, 8 March 2006.

وأكثر مع سعى الدول الحثيث للحد من الاعتماد على وقود الشرق الأوسط. وبدأت حقول نفط بحر الشمال التى كانت موارد جيدة للنفط والغاز فى النضوب. من المتوقع أن ينمو الطلب من الاتحاد الأوروبى ومن البلدان السوفيتية السابقة على الغاز الروسى بمعدل ٣ بالمئة سنوياً. إلا أن أكثر من ثلاثة أرباع الإنتاج فى جاسبروم كبرى الشركات الروسية يأتى من حقول بدأت مواردھا فى النضوب. وبدون المزيد من الاستثمار التقنى فقد تتضاعف الأسعار بحلول سنة ٢٠١٠. وفى الوقت الراهن لا يبدو مثل هذا الاستثمار مرجحاً. ولا مفر من الاستثمار الخاص، لكن الشركات الأجنبية حالياً محرومة من فرص الاستثمار المطلوبة.

إلى نقاط الضعف الجديدة هذه علينا أن نضيف الإرهاب الدولى. ففي فبراير ٢٠٠٦ هاجم انتحاريون أبقيق وهو أكبر موقع لإنتاج النفط فى العالم. وقال أحد المحللين إن «الحاق الضرر بالمنشأة... قد يطلق إعصاراً يفتح العالم. ففي غضون أيام سيتعين على كل الحكومات أن تتدخل للحد من الاستهلاك فى جهد منسق»<sup>(١)</sup>. وتم الهجوم بعربات عدة محملة بالمتفجرات. واخترقت إحدى هذه العربات المحيط الخارجى لأسوار التأمين وانفجرت على مسافة لا تتجاوز الميل من المعمل الضخم حيث كانت الأضرار ستتضاعف إلى حد كبير. وتمثل صادرات الموقع أكثر من ١٠ بالمئة من احتياجات العالم من النفط يومياً. ولا يحتاج الأمر للخيال لتصور ما قد تحدثه هجمات أكبر قد تشن فى وقت واحد على مواقع وأنابيب عدة.

---

(1) Carola Hoyas and William Wallis, 'Bombers foiled in Saudi oil plant raid', Financial Times, 25 February 2006.



تم تحرير سوق الطاقة في أوروبا حاليا وجرت خصصته إلى حد بعيد وفقاً لسياسات الاتحاد الأوروبي. وليس ثمة سوق موحدة في الحقيقة، بل هناك عدد من الاتفاقيات الثنائية، وهي من بقايا عهد كانت الطاقة فيه رخيصة ووفيرة. والتبادل التجاري محدود وكل بلد لديه قدر من الاحتياطي. والفارق بين الكلام والواقع فيما يتصل بتحرير السوق كبير. ففي يناير ٢٠٠٦ على سبيل المثال عرضت "إيون" وهي كبرى شركات الطاقة في ألمانيا شراء "إنديسا" وهي شركة الكهرباء في إسبانيا. ولو قبل هذا العرض لكانت إيون أكبر شركات انطاقة والغاز في العالم. ولكن عندما لمحت شركة المرافق الإيطالية "إنيل" لتولي مجموعة "سوز" الفرنسية للطاقة والماء سعت الحكومة الفرنسية لعرقلة ذلك بإعلانها الاندماج بين سوز و"جاس دي فرانس" الخاضعة لسيطرة الدولة. ففرنسا لا تريد استيلاء "أجنبية" على شركاتها. وهو شعور نجده لدى الدول الأخرى كذلك.

يؤدي المزيد من الترابط البيني إلى مزيد من الأمن وخفض التكاليف. وكانت الكهرباء في فترة ما بعد الحرب تعامل باعتبارها سلعة قومية. وكانت لدى بعض البلدان كفرنسا احتكارات وطنية. وفي بلدان أخرى كالألمانيا كانت هناك اتفاقيات تنظمها الدولة بين منتجين حكوميين وأهليين. واستحدثت المفوضية بعض التوجيهات في أواخر الثمانينيات واقترحت المزيد من الشفافية في الأسعار والتعاون بين الدول الأعضاء في الاستثمار. وبذلت محاولات لمزيد من التحرير، ولكنها تعرضت لانتكاسات عدة في المجلس والبرلمان الأوروبيين. والنتيجة تنوع في سياسات الطاقة في أنحاء أوروبا.<sup>(١)</sup> (يلاحظ أن هذا الوضع لا يختلف عنه في

---

(1) Atle Mittuh, 'Path dependent national systems or European convergence?', in Marie-Laure Djelic and Sigrid Quack (eds.), *Globalization and Institutions*. Cheltenham: Elgar, 2003, p. 161.

الولايات المتحدة حيث لا نجد توحيدًا قياسيًّا بين الولايات.) لكن الإمداد بالكهرباء يعمل على شكل شبكة من المزمع أن تمتد عبر أوروبا. ويمكن القول إن قيام سوق موحدة للطاقة مستحيل بدون شبكة كهذه.

الكهرباء لا تخزن، أما الغاز فيخزن. والتخزين على مستوى أوروبا أمر يستحق أخذَه على محمل الجد. فالغاز وعلى خلاف النفط مصدر إقليمي للطاقة، وبالتالي ينبغي التفكير في الأمن على مستوى إقليمي أيضًا. وإجراء كهذا لا يحتاج لمزيد من التنازل عن السلطات من جانب الدول الأعضاء؛ بل يمكن تنظيمها بين الحكومات.<sup>(١)</sup>

تربط إستراتيجية التنمية المستدامة في الاتحاد الأوروبي بين قضايا الطاقة وتغير المناخ وتزعم وضع "خارطة طريق" لكليهما. وفيما يتعلق بتغير المناخ تحدد خارطة الطريق أهدافاً قصيرة الأمد ومتوسطة الأمد وطويلة الأمد. والعاجلة منها تتعلق بتحقيق أهداف الطاقة المتجددة. وبحلول ٢٠١٠ يفترض أن يستمد ١٢ بالمئة من الاستهلاك المحلي للطاقة في الاتحاد الأوروبي من مصادر متجددة و ٢١ بالمئة من الكهرباء. ويفترض تحسين كفاءة الطاقة بنسبة ٢,٥ بالمئة سنوياً و ٣,٥ بالمئة في القطاع الحكومي. ويحدد الاتحاد الأوروبي لنفسه موقفاً قيادياً في التفاوض لإبرام اتفاقيات دولية للمرحلة الثانية من منظومة تغير مناخى دولية.

وعلى المدى المتوسط يهدف الاتحاد الأوروبي لخفض انبعاثات غازات الدفيئة بحد أدنى قدره ٣٠ بالمئة بحلول سنة ٢٠٢٠ مقارنة بمستويات ١٩٩٠.

---

(1) Dieter Helm, 'European Energy Policy: Securing supplies and meeting the challenge of climate change', 25 October 2005; at [www.fco.gov.uk/Files/kfile/PN\\_Percent20papers\\_percent20energy.pdf](http://www.fco.gov.uk/Files/kfile/PN_Percent20papers_percent20energy.pdf).

وفتراض أن يستمد ٢٥ بالمئة على الأقل من الطاقة في السنة نفسها من مصادر متجددة، و٣٣ بالمئة من إمدادات الكهرباء. وافتراض خفض استهلاك الطاقة بنسبة ٢٠ بالمئة مقارنة بسنة ١٩٩٠. وبحلول أواسط القرن يفترض أن تنخفض انبعاثات غازات الدفيئة بما لا يقل عن ٨٠ بالمئة بما يتماشى مع هدف إيجاد اقتصاد خلو من الكربون في المستقبل. وعند نقطة ما بين ٢٠٣٠ و ٢٠٥٠ يزعم الوصول بتدوير مواد الإنتاج ونفاياته بما فيها النفايات المنزلية إلى نسبة ٩٥ بالمئة، ما يعنى الوصول بمعدل النفايات التى تدفن فى الأرض دون معالجة إلى الصفر. وبحلول ٢٠١٠ يفترض أن يسود نظام تسعيرة نقل يعكس التكاليف الحقيقية على المجتمع لمختلف أشكال النقل بمحركات. والهدف من نظام كهذا خفض استهلاك الطاقة فى النقل الداخلى إلى النصف بحلول ٢٠٣٠. وهناك منهجية ثابتة لتحقيق هذه الأهداف، إلا أن آليات تحقيقها ليست محددة بدقة، ما يعكس مرة أخرى محدودية سلطة الاتحاد الأوروبى على دوله الأعضاء فى اتخاذ قرارات من هذا النوع. فهناك على سبيل المثال "شروط ملزمة وحوافز لكفاءة الطاقة"، لكن الدول الأعضاء وحدها التى يمكن أن تجعلها ملزمة.

كيف يمكن تعميق نظام خفض الانبعاثات فى الاتحاد الأوروبى؟ المخطط فى الوقت الراهن لا يتجاوز سريانه سنة ٢٠٠٨، وهناك مفاوضات مزمع إجراؤها لمدته إلى ٢٠١٢. وحتى التاريخ الأخير أقرب من أن يكون ضمن أفق تخطيط الشركات سواء من حيث الاستثمار أو البحث والتطوير. من ثم فإطار ما يعد ٢٠١٢ بحاجة للنظر على الفور. وبذلك فالتكلفة المحتملة للكربون يمكن أخذها فى الاعتبار من جانب المستثمرين فى خطط الطاقة الجديدة.

معظم المبادرات التي تتخذها دول الاتحاد الأوربي ضمن توجيهات الاتحاد الأوربي عن الطاقة المتجددة موجهة نحو طاقة الرياح. ولا بد من إعطاء مزيد من الزخم لسائر صور الطاقة المتجددة وكيف يمكن دمجها بطريقة عملية في أهداف خفض الانبعاثات. والوقود الحيوى يبدو واعدًا فى المستقبل ويمكن ربطه بأهداف التنمية فى الاتحاد الأوربي. وهناك على سبيل المثال اقتراح بالاستثمار فى مصانع السكر الكبرى فى كولومبيا بأمريكا اللاتينية والتي يمكن استغلالها فى إنتاج الوقود الحيوى لا سيما فى المناطق التى توقف فيها إطلاق النار بين الميليشيات. فيمكن لهذه الفكرة أن تأتى بالاستقرار لهذه المناطق، وفى الوقت نفسه تأتى للاتحاد الأوربي بمصادر للطاقة. والفحم النظيف احتمال ذو أهمية بالغة، لا سيما أن التقنية فى مجاله تتقدم بسرعة. والأرجح أن يزيد الاستثمار فى الطاقة النووية مهما كانت الاعتراضات عليها. ولا بد من التفكير فى العواقب على المستوى الأوربي. فقضايا أمن محطات الطاقة النووية لا تهتم البلدان التى تحتويها وحدها. ولا بد من إنشاء ترخيص أوربي موحد يأخذ فى اعتباره معايير الأمن المتفق عليها والعون المتبادل إذا تعرضت إحدى المحطات لهجوم إرهابي.

ولكى ندرك الأهداف التى وضعها الاتحاد الأوربي لنفسه لا بد من إيجاد سبل لتحفيز الاستثمارات الطائلة المطلوبة، والتى يجب أن يأتى جلها من القطاع الخاص. وللاستثمار فى الطاقة بعض السمات المتميزة. فهي فى الغالب طويلة الأجل وتتسم بالحساسية للتغيرات المستقبلية غير المتوقعة كالتحولات فى التوجهات السياسية أو التطورات التقنية. والأطراف المعنية لن تستثمر إلا باحتواء هذه الأخطار أو خفضها لمستوى مقبول، ما يعنى وضع أشكال جديدة من التعاقد

الطويل الأجل يتعاون فيه المستثمرون والضامنون، ولكن في إطار تنظيمي شامل يتحدد على مستوى الاتحاد الأوروبي ومحلياً. ومع إنشاء السوق الموحدة تركز السياسة التنافسية حتى الآن على التنافس السوقي القصير الأجل بشكل أساسي. وقد يتطلب الأمر تعديل سياسات الاتحاد الأوروبي تجاه الاحتكار حتى تكبر الشركات بما يكفي للتعامل مع التكاليف الهائلة التي تتحملها الاستثمارات الكبرى في الطاقة.

يطرح هيلم طرفاً عدة يمكن بها إيجاد نظم يألفها المستثمرون وفي الوقت نفسه تحافظ على القدرة التنافسية أو تدعمها.<sup>(١)</sup> والمطالب التنظيمية في قطاع الطاقة ضرورية. فشركات الطاقة التي تعمل على مستوى أوربا حالياً تواجه تكاليف إضافية نظراً لأن كل دولة عضو لها هيكلها التنظيمي الخاص بها. ويرى هيلم أن الاتحاد الأوروبي يجب أن يعد نشرة على أساس دوري تحلل العبء التنظيمي في كل دولة، وتحدد القواعد التي ترفع التكاليف أو تحد من التنافس في قطاع الطاقة.

نتائج السياسات في المجال البيئي تمتد بالطبع إلى ما وراء الموضوعات التي تناولنا هنا على الأقل من حيث الطريقة التي يدرك بها العامة قضايا "البيئة"، وأهمها تغير المناخ وتلوث الهواء وأمن الطاقة، لأن نتائجها الفعلية والمحتملة هائلة. ويمكن إيجاز الموضوعات التي تناولنا في هذا الكتاب فيما يلي:

١. القضايا البيئية لا سيما ما يتصل منها بتغير المناخ يجب أن توضع في لب نظرية الرفاه وتطبيقها. فحقوق المواطنة والتزاماتها لم تعد ترتبط بالإطار التقليدي لدولة الرفاه الذي تمثل البيئة فيه سمة خارجية. والتوجه الإيجابي

---

(١) المرجع نفسه.

لرفاه والمرتبط بتغيير نمط الحياة هو سبيل التقدم للأمام - لا إدارة المخاطر بعد الحدث وحسب، بل إستراتيجيات استباقية لتحسين نوعية الحياة.

٢. التحديث البيئي يمثل توجيهها شاملاً. وهو يعنى العمل على إيجاد فرص ربحية من الابتكارات ذات الفوائد البيئية إما من خلال التحول التقنى أو من خلال زيادة القدرة التنافسية. ومع ذلك فالسياسات الحكومية - على المستويين القومى والدولى - يجب أن يكون لها دور محورى. وتشمل السياسات التأثير المباشر فى تغيير نمط الحياة وتوفير الظروف الملائمة للبحث والتطوير ووضع نظم ضريبية مناسبة لها، إضافة إلى استثمارات طويلة الأجل.

٣. يجب انتزاع قضايا البيئة من قبضة حركة الخضر، وإلا فستقع فى قبضة جماعة أو جماعات مصالح خاصة. وينبغى الشك فى مفاهيم الخضر ومصطلحاتهم بصفة عامة حيث إنها تحث على العودة إلى "الطبيعة" ومناصبه العلم والتقنية والأسواق التنافسية العداء.

٤. لم يعد يمكن لنا أن نتعامل مع تغير المناخ باعتباره احتمالاً مستقبلياً. وعلينا أن نتصرف على فرض أنه واقع فعلاً، وأن آثاره ستسوء حتى على المدى القصير. وهذا معناه اتخاذ تدابير على الفور ضد الأخطار المعروفة أو المرتقبة - كحماية المناطق المعرضة للفيضان، ولظروف مناخية أقسى غير تلك المعروفة فيما مضى؛ وأخذ التأمين والنتائج الصحية فى الاعتبار. ويجب أن يضع الاتحاد الأوروبى قائمة بالأخطار وخططاً قومية واتحادية للعمل تطبق فى أقرب وقت.

٥. هناك فرص واضحة لتحديث سياسة الطاقة وإعادة النظر فيها فى إطار التحديث البيئى قدر الإمكان. فالمحطة القديمة لا بد من تغييرها فى أى الأحوال. وتهيئة الظروف للاستثمار المطلوب يتطلب مبادرات على مستوى الاتحاد الأوروبى والسياسات القومية. وينبغى أن يكون لربط شبكة الكهرباء وتوفير أمن الغاز ووضع خطة تخزين دور كبير.

٦. تعد خطط الاتحاد الأوروبى المنصوص عليها للتعامل مع احتياجات أوروبا من الطاقة والاستجابة لتغير المناخ طموحة لا سيما على المدى البعيد. أما الآن فهى تفنقر لأدوات التنفيذ، وهناك كثير مما ينبغى عمله. وعلى المدى القصير يمكن التساؤل عما إذا كانت طموحة بدرجة كافية. فبعض بلدان أوروبا تخطط للتحرك بصورة أسرع ويجب مراقبة مدى نجاحها عن كثب.

٧. يمكن للالتزامات البيئية للاتحاد الأوروبى أن تسهم إلى حد كبير فى الأمن. فتغير المناخ وإدارة الطاقة جزء من جدول أعمال أكبر يشمل أخطاراً من قبيل أنفلونزا الطيور والجريمة الدولية. ومكافحة هذه الأخطار يتطلب تنسيقاً دولياً من النوع الذى يعد الاتحاد الأوروبى مهياً تماماً لتوفيره أو تطويره.

## مربع ٦-١ السياسات على مستوى الاتحاد الأوروبي

١. لشبونة ٢: يبنى دمج "جدول أعمال لشبونة" في خطط فعالة لتعزيز "العدل الاجتماعي والمواطنة البيئية". وهي اهتمامات لا يكفي إضافتها لقائمة معايير لشبونة الطويلة، بل يجب استهدافها في بعض المجالات الأساسية. ويعد "منطوق التكيف العالمي" خطوة في الاتجاه الصحيح.
٢. "التقارب" يشار إليه عادة باعتباره عملية في اتجاه واحد هو "الخروج من القوارق الاجتماعية الاقتصادية بين الدول والمناطق". ولم يختبر حتى الآن مدى تأثير القوى المحركة الجديدة للاتحاد الأوروبي على هذه القوارق، بما في ذلك الدمج الأفقي والرأسي.
٣. لا تزال القوارق بين المناطق تمثل مشكلة كبرى سواء في الدول الأعضاء أو فيما بينها. والسياسات الحالية لم تجد نفعا. فيتقرب ربط أموال الاستثمار بمعايير الحكم الرشيد بشكل أوثق.
٤. تقلل للاستثمار في البحث والتطوير بصورته القديمة أهميته البالغة. ومع ذلك فالنجاح في الاقتصاد المعرفي/المكتبي يعتمد على ما هو أكثر من الابتكار العسوي والتفني، ولا سيما على الابتكار في التسويق.
٥. هناك ما هو أكثر مما يمكن عمله على مستوى الاتحاد الأوروبي للرقى بالتعليم العالي في علاقته بالرخاء الاقتصادي والمواطنة. لكن التعليم العالي أكثر من مجرد عمل تجاري. فالأهداف التقليدية للجامعات القائمة على البحث - أي السعي للتزويج نحو المعرفة ونمو منهج شامل للإنسانيات والعلوم الاجتماعية - يجب دعمها.
٦. يوفر التحديث البيئي أساسا لتعزيز قدرة الاتحاد الأوروبي التنافسية والاستجابة للتحديات المشتركة لتغير المناخ وصحة الطاقة. وقد يكون "التحضر المقتن" لأسواق الطاقة دور حيوي في دعم هذه الأهداف.
٧. يمكن للاتحاد الأوروبي أن يسهم في معالجة الأخطار الجديدة لا سيما الأخطار ذات الطابع العالمي والتي يعد العمل والتنسيق الجماعي فيها ذا أهمية قصوى.

كل المجالات التي تناولنا في هذا الفصل مجالات يمكن للاتحاد الأوروبي أن يحدث فيها اختلافا ملحوظا في حياة مواطنيه في السنوات القليلة القادمة في سبيل إعادة إقرار شرعيته. كما أنها تعكس هموم الناس الحقيقية. وبعد رفض الدستور أجرت المفوضية استبياناً في "الديمقراطية والحوار والنقاش" جرت فيه مقابلة



خمسة وعشرين ألفاً من الناس فى الدول الأعضاء. وجاءت الهموم المتعلقة بالآثار الاقتصادية لتوسيع العضوية والحماية الاجتماعية الفعالة على رأس ما يشغل الناس، ما يؤكد على الأهمية القصوى للنموذج الاجتماعى. ويظل أغلب المواطنين يحبذون المشروع الأوروبى ولا سيما ما يتصل منه بالاستثمار فى التعليم والابتكار والهموم الصحية العامة وحماية البيئة والإسهام فى الأمن.<sup>(1)</sup>

---

(1) Special Eurobarometer Report 21, The Future of Europe. Brussels: European Commission, 2006.



## الفصل السابع

### ثمانى أطروحات عن مستقبل أوروبا

زرت مؤخراً مدينة سانتا باربرة بولاية كاليفورنيا، وهى تضم عدداً كبيراً من مكتبات بيع الكتب المستعملة. وفى ركن مظلم بإحدى هذه المكتبات عثرت على كتاب دفعت ثمنه دولاراً واحداً. كان مؤلفه يدعى جون جُنْثر وعنوانه "فى داخل أوروبا" (Inside Europe). ولجنْثر عدد كبير من المؤلفات عن عديد من دول العالم ومناطقه. وفى هذا الكتاب يصف رحلته عبر عدد من بلدان أوروبا ولقائه بعض قادتها السياسيين وأفراداً من عامة الناس.

صدر كتاب جنْثر فى سنة ١٩٦١. وذكرتنى مطالعته بكثرة ما طرأ على شبه القارة من تغيرات فى فترة الأربعين سنة منذ صدوره. لم تكن الحرب الباردة آنذاك شديدة البرود. ويصف المؤلف ألمانيا بأنها "قلب أوروبا المتقد".<sup>(١)</sup> ومع أن أوروبا كانت مقسمة، فإن سور برلين لم يكن أنشئ بعد؛ كان أربعون ألف برلينى يعيشون فى القسم الشرقى بينما يعملون فى قسمها الغربى طوال الأسبوع؛ وكان سبعة آلاف يفعلون الشيء نفسه بالعكس. وكان ٣,٥ مليون من الناس فروا من ألمانيا الشرقية ليعيشوا بشكل دائم فى الجمهورية الاتحادية. ويصف الكاتب الاتحاد السوفيتى بـ "القوة الثابتة" وبأنه أكثر استقراراً من الولايات المتحدة، ويرى سيطرته على أوروبا الشرقية بالصورة نفسها. وكانت ثلاثة من بلدان أوروبا الغربية

---

(1) John Gunther, Inside Europe. New York: Harper, 1961, p. 11.

فى قبضة نظم استبدادية شبه فاشية هى البرتغال وإسبانيا واليونان. كان سالازار فى البرتغال وفرانكو فى إسبانيا والعقءاء فى اليونان.

يقع كتاب جنثر فى ستمئة صفحة ونيف. إلا أن ما ضمه عن "المجموعة الاقتصادية الأوروبية" لا يتجاوز أربع صفحات أو خمس، ويعتبره المؤلف تطوراً مهماً، ولكنه هامشى. وكانت رؤية جنثر السائدة آنذاك إلى جانب قلة من الحالمين. ولا ندرك أهمية "معاهدة روما" البالغة التى وقعت فى سنة ١٩٥٧ إلا بالنظر إلى الوراء بعد كل هذه السنين. ومن الكيانات التى أنشأتها وهى "هيئة الطاقة الذرية الأوروبية" ثبت أنها ولدت ميتة. وهكذا فإن رؤية جنثر لم تبعد كثيراً عن الحقيقة.

هناك تواريخ عديدة للاتحاد الأوروبى ولأوروبا بعد الحرب أيضاً دونت وكأن هناك تقدماً متواصلاً نحو مزيد من الديمقراطية والنجاح الاقتصادى. وعبارة مارك مازوار "القارة المظلمة" أنسب لها. فتاريخ أوروبا فى القرن العشرين حسب قول مازوار ملء بفترات انقطاع وفترات ارتكاس بقدر ما شهد من فترات تقدم. وقد تبدو أوروبا كأن قوامها دول وشعوب قديمة، ولكنها غير ذلك فى نواح عدة. وهى بالأحرى «جديدة ومتجددة وتعيد اكتشاف نفسها على مدار هذا القرن» فى "تحول متشنج" كما يشير مازوار.<sup>(١)</sup> فأقيمت الديمقراطيات النيابية فى عدد من الدول بعد ١٩١٨ من شمال أوروبا إلى البلقان. ووضعت دساتير تضم المبادئ الليبرالية الأحدث. وفى كتابه "النظم الديمقراطية الحديثة" يشير جيمس جويس إلى «قبول الديمقراطية عالمياً باعتبارها الشكل العادى والطبيعى للحكم».<sup>(٢)</sup> ولكن فى غضون عشرين سنة منذ ١٩١٨ اختفت أغلب النظم الديمقراطية الناشئة وحلت محلها نظم شمولية.

---

(1) Mark Mazower, Dark Continent. London: Vintage, 2000.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٠.

مما يذكر أن "العصر الذهبي" لدولة الرفاه، والذي أبدت تحفظات بشأنه فيما سبق لم يكن يرى من هذا المنظور آنذاك. ففي أوائل الستينيات على سبيل المثال كتب ريتشارد تيموس عن شعور متنامٍ بخيبة الأمل إزاء الطريقة التي تتطور بها أنظمة الرفاه. فكتب يقول إن «زخم الأربعينيات ومثلها ورغبتها في إعادة البناء وإعادة التخطيط كلها تداعت الآن»<sup>(١)</sup>.

كل هذا يؤدي بي إلى الأطروحة الأولى. ففي سنة ١٩٨٩ حدث صدع لا في تاريخ أوروبا برمته، بل في تاريخ الاتحاد الأوربي بصفة خاصة. فسقوط أوروبا الشرقية ثم انهيار الشيوعية السوفيتية أثر بالطبع على العالم الذي عاش حقبة طويلة من الثنائية القطبية. وكانت ألمانيا وبرلين على خط المواجهة، فكانتا قلب الحرب الباردة "الملتهب" الذي كاد يشعل حريقاً في فترات بعينها. وكانت "المجموعة الاقتصادية الأوروبية"/الاتحاد الأوربي من نتاج الحرب الباردة أصلاً واستمدا هويتهما من تضاد مع حرية السوق الأمريكية من ناحية واشتراكية الدولة من ناحية أخرى. وجاءت أحداث ١٩٨٩ لتغير طبيعة الاتحاد الأوربي كله لا البلدان التي تحررت من الحكم الشيوعي وحدها.

لا سبيل لإدراك ذلك من بيانات الاتحاد الأوربي الرسمية. فسرعان ما تحول اهتمام الاتحاد الأوربي إلى بلدان أوروبا الشرقية. ودخل الاتحاد الأوربي في سلسلة من عمليات التوسعة كلها مهمة، ولا سيما ضم البلدان المتوسطية التي عانت في ظل النظم الشمولية. إلا أن الانفتاح على الشرق لم يكن مجرد توسعة. فلم يكن يمكن للاتحاد الأوربي أن يظل على حاله بعد ١٩٨٩، لا بسبب مشكلة استيعاب الدول الأفقر من المتوسط الأوربي وذات التركيبة الاجتماعية-الاقتصادية المختلفة،

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠١.

أو الزيادة في عدد الدول الأعضاء؛ بل لأن هوية الاتحاد الأوربي وطبيعته نفسها أصبحتا موضع شك بفتح حدوده شرقاً.

كان الحديث عن التوسعة يخفى الكثير من ذلك عن الناظرين، وكذلك فعل الدستور المقترح. كان الدستور في نظر أغلب قادة الاتحاد الأوربي السياسيين وسيلة لدعم المشروع الأوربي القائم فعلاً. لكن هذا التوجه كان خادعاً. إذ كان واضحاً حتى لعامة الناس أن هناك تحولات جذرية أكبر كثيراً تحدث وعلى الجميع أن يتكيف معها. وقد تشكل أوروبا الشيوعية خطراً، لكنها في الوقت نفسه حلت مشكلات في شرق الاتحاد الأوربي كانت بسبب الاتحاد السوفيتي. وأصبح يحد الاتحاد الأوربي الآن روسيا البيضاء ومولدوفا وأوكرانيا وكرجستان<sup>(١)</sup> وأرمينيا والشرق الأوسط.

بعض الدول التي انضمت للاتحاد الأوربي كانت جديدة، ما يعزز رأى مازوار عن التحول المتواصل. وهي تشمل جمهورية التشيك وسلوفاكيا وسلوفينيا ولاتفيا ولتوانيا (ولو أن الأخيرتين كانتا موجودتين بين ١٩١٩ و ١٩٣٩) داخل الاتحاد الأوربي. وفي خارج الاتحاد كل دول البلقان جديدة وكذلك مجموعة الدول التي تحد روسيا. وحتى روسيا "جديدة". والولايات المتحدة هي الدولة "القديمة" مقارنة بالوضع في أوروبا! ونشأ ما يقدر بثمانية آلاف ميل من الحدود الجديدة في وسط أوروبا وشرقها وحدهما منذ ١٩٨٩. والنتائج أبعد ما تكون عن رضا الناس. وهناك نسبة ضئيلة ممن يعيشون في أوروبا الغربية يعتبرون حدودهم "غير

---

(١) تعرف خطأ باسم "جورجيا". والصحيح هو غرجستان أو كرجستان، ويعرف شعبها بالـ "غرج" (Gorj). (المترجم)

مستقرة". وفي وسط أوروبا وشرقها يعتقد ذلك أكثر من نصف السكان بمعنى أن «هناك أراضٍ ملكاً لنا»<sup>(١)</sup>.

#### مربع ٧-١ لماذا يواجه الاتحاد الأوروبي عالمًا جديدًا

١. حدود مفتوحة شرقًا - بيئة إقليمية جديدة.
٢. التوسعة بلا نهاية.
٣. مشكلات أمنية جديدة - نشأة تهج جديد من الإرهاب وأزمة وختامل خطر دائم أخرى.
٤. موقف مهم خلف شمال الأطلسي - التحالف غير الأطلنطي موضع شك أكبر.
٥. تقايم الأخطار البيئية العالمية.
٦. المحور 'الفرنسي-الألماني' يتقدم معناه باعتباره قوة دفع مهيمنة.
٧. بعض من كبار المنافسين التجاريين موجعون في العام 'النامي'.

لم يحدد الدستور المقترح كيف يعيد الاتحاد الأوروبي هيكله نفسه في سياق مشكلات كهذه. التساؤلات التي طرحتها "التوسعة" الأحدث (في ٢٠٠٤) تتجاوز إعطاء الاتحاد الأوروبي هوية قانونية منهجية تساعد على تحسين إجراءات اتخاذ القرار أو مزيد من التركيز على السياسة الخارجية، وهما مسألتان حيويتان كما سنرى فيما بعد. ومن هذا المنظور لم يكن غريباً أن من صوتوا بالفرض في فرنسا وهولنده لم يقفوا عند القضايا الدستورية؛ بل كانوا يعبرون عن هموم أشمل.

إن القوى التي أفرزت أحداث ١٩٨٩ وانهايار الاتحاد السوفيتي هي نفسها التي يجب أن يواجهها الاتحاد الأوروبي اليوم. وهي تشمل مجموعتي التحولات الهيكلية اللتين نركز عليهما في هذا الكتاب - التحولات التي تؤثر في الحياة

---

(1) Jan Zielonka, Europe Unbound, London: Routledge, 2002.

اليومية والتحولات الناجمة عن تسارع العولمة. فالتحول الديمقراطي اليومي لا يقتصر على دول الغرب؛ بل هو أمر ملموس في كل مكان. ونظرًا لسهولة الاتصالات الحديثة يستحيل على المجتمعات المغلقة أن تظل على حالها. والمجتمعات القليلة الباقية من هذا النوع ككوريا الشمالية وبورما تترنح وتوشك على الانهيار.

المربع ٧-٣: كل من عناصر المربع ٧-١

يمكن أن تضيف قوة للاتحاد الأوروبي

١. فتح الحدود شرقًا يعطي دورًا محليًا وآخر جغرافيًا-سياسيًا أكبر أيضًا.
٢. الاتحاد الأوروبي قوة كبرى تؤثر على التحول الديمقراطي وسيادة القانون ونشر اقتصاد السوق.
٣. التنسيق على مستوى الاتحاد الأوروبي يحسم المواقف من أخطار عالمية جديدة.
٤. يتحمل الاتحاد مزيدًا من مسؤولياته الدفاعية ويكتسب قدرات الرد السريع في مواضع أخرى.
٥. يتخذ الاتحاد الأوروبي دورًا رائدًا في الحد من خطر تغير المناخ.
٦. تجدد المشاركة في السلطة بين الدول الأعضاء.
٧. النموذج الاجتماعي الأوروبي ينتشر عالميًا بنجاح.

كنت في برلين في ١١ نوفمبر ١٩٨٩ عشية هدم السور. وعرض علينا القادمون من الشرق إلى الغرب خرائط للمدينة كانت معهم، وكانت برلين الغربية بأكملها ممسوحة فيها، فكانت مجرد مساحة فارغة. إلا أنهم كانوا يعرفون كل شيء عن الجانب الآخر من برلين لأنهم كانوا يشاهدون برامج التلفزيون الغربي. والتحول الديمقراطي اليومي يختلف عن النزعة الاستهلاكية. بالطبع كان كثير من الناس في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي يريدون سلع الغرب الاستهلاكية وما



يحظى به من وفرة؛ لكنهم كانوا أيضا يريدون مزيدا من الحراك والاستقلالية والحرية فى حياتهم اليومية كما تبين الاستطلاعات.

مع تقدم العولمة اختلت نظم القيادة التى عملت بنجاح فى الشيوعية السوفيتية فى عهد سابق. والشئ نفسه يصدق على الغرب ولو أن تلك النظم وجدت فيه بأشكال أكثر تحررا وأقل شمولية. فالتأثيرات التيلورية على سبيل المثال ظلت موجودة فى الإدارة الغربية حتى أواسط الثمانينيات. ومع تقدم تقنية المعلومات مارست العولمة ضغوطاً قوية فى اتجاه نشأة نظم إدارة مرنة وسلم وظيفى متقارب. والشركات التى أخفقت فى التكيف انهارت.

كان انهيار الشيوعية السوفيتية وزوال الكينزية فى الغرب - بما لها من تأثيرات مهمة على دولة الرفاه - مرتبطتين ارتباطاً مباشراً بهاتين المجموعتين من التحولات. وكان كلاهما متجهاً نحو إدارة الطلب القومى، وهو منظور عجز عن الصمود أمام تقدم العولمة الاقتصادية. ولم تكن النتائج مدمرة فى الغرب كما كانت فى الشرق، لأن درجة التخطيط المركزى والتحكم الاقتصادى الكلى من جانب الدولة أقل فى الغرب منه فى الشرق. ولم تتمكن الشيوعية الصينية من النجاة إلا لأن الدولة تخلت عن تحكمها فى أغلب آليات السوق، أما مدى استقرار ذلك النظام فأمر متروك للمستقبل.

الأطروحة الثانية: فى ضوء هذه التحولات على الأوربيين أن يحققوا من جديد كل ما قام من أجله الاتحاد وأن يقنعوا جمهوراً يساوره القلق حالياً. والسؤال عن السبب الآن لا يقل أهمية عن السؤال عن الكيفية.

لم يعد يكفى القول إن الاتحاد بنسخته الحالية والسابقة حقق السلم فى أوروبا. كما أن الأطروحة مشكوك فيها على أى حال. فالتكامل الاقتصادى بين ألمانيا

وفرنسا كان أحد عوامل إنشاء الاتحاد في البداية. وبموافقتها على أن تكون جزءاً من كيان تعاوني أكبر تخلت ألمانيا عن أي طموحات إمبراطورية. ومع ذلك فالخطر الحقيقي على أوروبا (الغربية) بعد ١٩٤٥ لم يعد ألمانيا، بل الاتحاد السوفيتي. وكانت ألمانيا المقسمة بؤرة هذا الخطر لا مصدره. وقيل إن السلم في أوروبا يدعمه وجود حلف شمال الأطلسي أكثر من وجود "المجموعة الاقتصادية الأوروبية"/الاتحاد الأوربي. وفي الحرب التي نشبت في أوروبا بعد ١٩٨٩، أي الحرب الأهلية في يوغسلافيا السابقة، لم يفعل الاتحاد الأوربي الكثير لإطفاء نفسه. والصراعات في البوسنة وكوسوفا لم يحلها في حالة الأولى إلا تدخل الولايات المتحدة، وفي الثانية تدخل حلف شمال الأطلسي. ولا يجوز للاتحاد الأوربي أن يدعى التدخل الناجح لمنع العنف العسكري إلا في حالة احتواء النزاع في مقدونيا.

ومن نتائج الطابع المتغير للسيادة في عصر العولمة أن احتمالات نشوب الحروب الإقليمية بين الدول قلت عن ذي قبل. ولا تزال هناك نزاعات مسلحة من نوع إقليمي في أفريقيا جنوب الصحراء. وهناك جماعات غير حكومية مسلحة لديها أهداف إقليمية في أوروبا أبرزها "الجيش الجمهوري الأيرلندي" وحركة الباسك. وهناك نقاط ملتهبة خطيرة في بقاع أخرى من العالم. وهناك قوتان نوويتان تواجه كل منهما الأخرى هما باكستان والهند وبينهما مشكلة كشمير عالقة دون حل. وإذا حصلت إيران على أسلحة نووية فقد ينشأ سباق تسلح في الشرق الأوسط؛ وفي شرق آسيا لا تزال مشكلة تايوان عالقة.

أما بالنسبة لأغلب الدول فليس ثم احتمال أن تغزو أراضيها دول أخرى. وكل دول شمال أمريكا الجنوبية ووسطها وجنوبها ضمن هذه الفئة. وكذلك دول الاتحاد الأوربي وشمال أفريقيا وروسيا ووسط آسيا وشرقها وأستراليا. والدول

الضعيفة لا الدول القوية هي التي تمثل أغلب المشكلات التي يجب على العالم أن يتعامل معها. وأغلب الدول تواجه اليوم أخطاراً غير خطر الغزو من دول غيرها. والإرهاب العالمي من هذه الأخطار الجديدة. وهو يختلف تماماً عن نوعية الإرهاب المرتبطة بأيرلنده الشمالية وإقليم الباسك. فالجيش الجمهوري الأيرلندي وحركة الباسك كانا يهدفان لإنشاء دولتين قوميتين جديدتين، إحداهما لتوحيد بلد منقسم، والأخرى لإنشاء دولة قومية لأمة بلا دولة.

والإرهاب الجديد جغرافي-سياسي، وهو وليد العولمة والاتصالات المكثفة. فالقاعدة كغيرها من التنظيمات الجهادية لها خلايا في بلدان عديدة. وأهدافها شديدة العمومية، وهي طموحة للغاية- فلا أقل من عودة للحكم الإسلامي في دول تبدأ من باكستان إلى شمال أفريقيا وحتى جنوب إسبانيا (الأندلس سابقاً، وتعرف حالياً بأندلسيا). كما أنها لن تتردد في اللجوء للعنف على نطاق واسع إن استطاعت. ففي تصور أسوأ كان يمكن أن يلقى ستون ألفاً حتفهم في ١١ سبتمبر في نيويورك وواشنطن لا ثلاثة آلاف كما حدث. وأهداف القاعدة إقليمية، لكنها ليست دولة؛ بل هي أقرب لمنظمة أهلية خبيثة يدفعها شعور بواجب مقدس. وهي ليست قوة غزو؛ بل تشكل مع جماعات متطرفة أخرى مصدر خطر داهم لبلدان عديدة لا سيما لو أصبح الإرهاب النووي احتمالاً قائماً.

نشأت الهوية القومية فيما مضى واشتد عودها في مواجهة غيرها - دول معادية أو تحالفات من دول معادية. وكانت تقسيمات الحرب الباردة النسخة الأخيرة من هذا المتغير. وهناك دول عديدة منها دول الاتحاد الأوربي عليها الآن أن تحدد هوياتها بطريقة مختلفة. وليس معنى ذلك أن الدول القومية على وشك الزوال لأنها ليست كذلك. ولعلنا نشهد الآن عودة للدولة القومية في العالم كله. ففي

ظل الإدارة الأمريكية الحالية قررت الولايات المتحدة وبشكل سافر أن تعلى مصالحها أولاً وبدأت تتنكر للمبادئ الجمعية. وكما قالت كوندوليزا رايس على أمريكا أن تعمل «من منطلق المصالح القومية لا مصلحة مجتمع دولى وهى».<sup>(١)</sup> والعلاقات الجغرافية-السياسية يحددها قادة الدول الكبرى. فبتفسير النظام الدولى بأنه يقوم على القوة والعنف ساعدت إدارة بوش إلى حد ما على تحقيق ذلك. كما أن اندولتين الكبيريين الصاعدين الصين والهند دولتان قوميتان (وقوتان نوويتان أيضا).

ولكن مع تقدم التحول الديمقراطي وتنامى العولمة تنشأ شبكات متقاطعة جديدة؛ وتضغط المدن والمناطق من أجل مزيد من الاستقلالية، بينما تنشئ الدول مصالح مشتركة فيما بينها. وقد يحكم الصين والهند نظام سياسى مختلف فى غضون بضع سنوات من الآن. وهناك أمارات واضحة على وجود نزعة إقليمية دولية ناشئة فى كل مكان، من أمريكا اللاتينية إلى أفريقيا إلى آسيا. وهناك انضمام متواصل لبلدان أمريكا اللاتينية فى شبكات أخرى (منها الاتحاد الأوروبى). وأصدر "اتحاد دول جنوب شرق آسيا" (آسيان) بالمشاركة مع كوريا واليابان والصين تقريراً مشتركاً يقترح تعزيز التعاون السياسى والاقتصادى والبيئى والثقافى.<sup>(٢)</sup> وتسعى دول أفريقيا للتجمع أيضاً.

---

(1) Condoleezza Rice, 'How to promote the national interest', Foreign Affairs, January 2000; at [www.foreignaffairs.org/2000010faessay5-p0/condoleezza-rice/campaign-2000-promoting-the-national-interest.html](http://www.foreignaffairs.org/2000010faessay5-p0/condoleezza-rice/campaign-2000-promoting-the-national-interest.html), p. 4.

(2) Association of South-East Asian Nations, Towards and East Asian Community, Report of the East Asia Vision Group, 2001; at [www.mofa.go.jp/region/asia-paci/report2001.pdf](http://www.mofa.go.jp/region/asia-paci/report2001.pdf).

الأطروحة الثالثة: التساؤل عن سبب الاتحاد الأوربي قد يتحدد بمجرد إدراك طبيعة العالم الذي يجب أن ينتمى إليه الآن.

إن الدور التقليدي للاتحاد منذ أيامه الأولى لا يزال بالغ الأهمية ولو أنه أعيد تعريفه. أى أن الغرض من الاتحاد الأوربي جلب منافع اقتصادية لأعضائه ما كانت لتحقق لولاه. ويمكن للدول الصغيرة والمتوسطة أن تزدهر فى الاقتصاد العالمى - من الأمثلة تايوان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وشيلي وأستراليا. ومع ذلك فالسوق الموحدة تعود بمزايا تفقدتها البلدان فرادى. وهذه المزايا لا تتعلق فى المقام الأول بالمكاسب الاقتصادية الفورية التى يصعب حسابها فى كل الأحوال. بل تكمن المزايا الأهم فى وجود سوق مستقرة كبيرة مضمونة، وهو ما يعنى الكثير حتى فى عصر تسيطر عليه تقنية المعلومات. لذا فالبلدان المتقدمة فى أوربا والتى لم تنضم للاتحاد - النرويج وآيسلنده وسويسرا - تربطها به صلات وثيقة ومعقدة. وهى ليست مجرد دول متطفلة لأنها تعاني عيبا جوهريا هو أنها ليس لها تأثير مباشر على القرارات التى تؤثر عليها.

يشكل النموذج الاجتماعى (بنتوعه) جزءا أساسيا من سبب وجود الاتحاد الأوربي. وكان كل من هابرماس وديريدا على حق فى ذلك (انظر الفصل الأول). وهو بداية وضع بيدو غريينا، لأن نظم الرفاه الأوربية نشأت مستقلة عن مؤسسات الاتحاد الأوربي إلى حد كبير، وليست للاتحاد الأوربي سلطة عليها حتى الآن. لكن الأوربيين فى مجملهم يرون كما تبين الاستطلاعات أن الرعاية والحماية التى تقدمها بنود الرفاه محورية بالنسبة لحياتهم. وتشير البحوث فى الولايات المتحدة إلى اختلاف الوضع فيها تماما. من ثم فالنموذج الاجتماعى يمثل جزءا أساسيا من الهوية الأوربية، ولكن بصورة تطورية. ففي أوربا الحرب الباردة - وقبل تنامى

العولمة - كان لدولة الرفاه دور مختلف عن الدور المطلوب اليوم، ولأسباب تناولها هذا الكتاب. إذ نشأت في كنف الكينزية وقامت على نماذج العمل/الأسرة التقليدية، ولم تكن نتائجها الاقتصادية الكلية جزءاً من أساسها المنطقي. ولا بد من إثبات أن نظم الرفاه في أوروبا يمكن أن تسهم بشكل إيجابي في التنافسية في سياق بعد-صناعي، وهو ما حاولت أن أفعله. وهذا في رأي هابرماس وديريدا لم يعد مسألة حماية مواطنين من تقلبات السوق. فالدولة - والاتحاد الأوربي - لا بد أن تتدخل من حين لآخر لتيسير التبادل السوقي أو تحسين كفاءته. وهي ابتكارات لا تتعارض مع العدل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية، بل لها دور أساسي في تعزيزهما.

إن القول بأن السيادة الموحدة سيادة مكتسبة له معنى حقيقي تدعمه التوجهات الناشئة في المجتمع العالمي. ونحن نعلم أن القوة ليست لعبة ربح وخسارة. فالترتيبات المؤسسية الجديدة كما قال تالكوت بارسونز قديماً قد تفرز قوة أكبر مما كان موجوداً من قبل، كالمال؛ فيكون هناك منه حينئذ ما يعاد توزيعه.<sup>(1)</sup> والمبدأ الأساسي للاتحاد الأوربي والذي يضيف الشرعية ينبغي أن يكون كما يلي: بالتعاون وتجميع الموارد يتحقق للدول الأعضاء من السيادة (الفعلية في مقابل الشكلية) ما هو أكثر مما قد يتحقق بغيرهما.

من الأمثلة العديدة فيما يتصل بالسيادة الخارجية قوة الاتحاد الأوربي في السياسة التجارية. وكان ذلك صحيحاً حتى في عصر "الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارة" (الجات) حين كانت المجموعة الاقتصادية الأوربية شريكاً رئيساً نظراً للوزن التجاري الجمعي لأعضائه المؤسسين. ويقال إن القوة التفاوضية

---

(1) Talcott Parsons, Talcott Parsons on Institutions and Social Evolution: Selected Writings, Chicago: University of Chicago Press, 1985.

للدول الست التي مثلتها المفوضية لأول مرة في الستينيات كانت تضارع قوة الولايات المتحدة، و«من ثم كانت هذه نهاية لحقبة من الريادة الأمريكية المتفردة في منظومة التجارة الدولية بعد الحرب».<sup>(1)</sup> ومع ذلك فللاتحاد الأوربي دور أكبر يلعبه في السوق الموسعة اليوم، لا سيما في سياق "منظمة التجارة العالمية".

يمكن أن يوفر الاتحاد الأوربي لمواطنيه ما يفوق أى شيء قد تقدمه الدول فرادى. وليس أمام الاتحاد حالياً إلا أن يكون فاعلاً جغرافياً-سياسياً وبطرق غير تلك التي كانت في عهود ماضية. وذلك لأن الجولة الحالية من "توسيع العضوية" تختلف عن سابقتها. ففي المراحل الأولى من تطور الاتحاد الأوربي كانت شروط الانضمام مباشرة، لأن الدول الموقعة كانت متساوية من ناحية التطور الاقتصادي والسياسي. والأسباب التي دعت ولا تزال تدعو العديد من الدول للانضمام إليه ليست الأسباب نفسها التي دعت الأعضاء الأصليين باستثناء إسبانيا والبرتغال واليونان. وهي الآن أكثر تحوُّلاً في طبيعتها. وما يحدث في الاستعداد للانضمام لا يقل أهمية عن الانضمام نفسه. فالدول ترغب في الانضمام لكي تجد موطئ قدم في السوق الأوربية التي أصبحت ضخمة، وتستفيد من التمويل الذي يتاح لها، وتصبح جزءاً من تنظيم ذي مكانة عالمية، وتضمن لنفسها استقراراً سياسياً وقانونياً.

إن الحفاظ على "منطقة سلم" داخل الاتحاد الأوربي ومن حوله مهمة أولى، ولم تتحقق بعد في منطقة البلقان. ومع ذلك يمكن أن يكون للاتحاد الأوربي، وينبغي أن يكون له دور أساسي في حماية مواطنيه من الأخطار الجديدة كتلك الناجمة عن تغير المناخ والإرهاب العالمي والأوبئة والجريمة الدولية. ويمكن أن

---

(1) Loukas Tsoukalis, What Kind of Europe? Oxford: Oxford University Press. 2005, p. 70.

تكون للاتحاد الأوربي فعالية في الحد من هذه الأخطار تفوق فعالية دوله الأعضاء لو تصرفت فرادى.

يمثل الاتحاد الأوربي قيما عامة يجسدها ويدافع عنها. وهذه القيم في نظرنا هي: دفع الديمقراطية وحمايتها داخل الاتحاد وخارجه؛ إيجاد الوحدة من التنوع، وهي عبارة أكثر من مجرد شعار، تشير إلى الطبيعة العالمية للاتحاد الأوربي؛ وتعزيز التضامن داخل الاتحاد وخارجه وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ؛ والالتزام بالتنسيق في مواجهة التهديدات الخارجية؛ والتلاحم البناء مع مشكلات العالم ونزاعاته. وهذه القيم في جوهرها تربط النقاط السابقة معا.

إن نشر الديمقراطية منذ السبعينيات فصاعداً بقيادة الاتحاد الأوربي تعد قصة نجاح كبرى بأى معيار من المعايير. وعلى الرغم من وجود حالات موازية قبل الحرب، لم يحدث من قبل أن كان هناك هذا العدد من دول أوروبا ديمقراطيات ليبرالية. كما أن هذه الديمقراطيات جزء من كتل واحد ومتسارية في الحقوق والمسؤوليات. وكما يقول تيموثي جارتون-آش «إن لم تكن هذه قصة تباهى بها فيماذا تباهى؟»<sup>(1)</sup> ولكن في وجود حدود مفتوحة شرقاً لم يعد واضحاً أين تتوقف توسعة الاتحاد الأوربي، ويحق للمواطن أن يطالب بمزيد من الوضوح في هذا الصدد.

**الأنطروحة الرابعة:** للأسباب التي ذكرنا لتونا يجب أن يكون الاتحاد الأوربي مشروعاً سياسياً. ولكي نحدد أى نوع من المشروعات السياسية علينا أن نذهب إلى ما وراء التناقض بين أنصار الاتحاد الفدرالى وأنصار التنسيق بين الحكومات. ففكرة تحول الاتحاد الأوربي إلى دولة اتحادية تعود إلى ما قبل إنشاء المجموعة

---

(1) Timothy Garton-Ash, Free World. London: Allen Lane, 2004.



الاقتصادية الأوروبية نفسها، وإلى ما قبل الحرب العالمية الثانية في الحقيقة.<sup>(١)</sup> ولا يزال لها معارضوها إلى الآن.<sup>(٢)</sup> والنسخة الأشهر من هذا الرأي في السنوات الأخيرة طرحها وزير الخارجية الألماني الأسبق يوشكا فيشر في محاضرة ألقاها في برلين في مايو ٢٠٠٠.<sup>(٣)</sup>

والاتحادية (كما سنرى فيما بعد) أسلوب تفكير قديم في العالم المعاصر، وليست السبيل الأمثل لتطور الاتحاد الأوربي في المستقبل. ولكن لا تكفي «الرغبة والتعاون النشط بين دول مستقلة ذات سيادة» لدفع أوربا قدماً كما أرادت مارجريت ثاتشر من موقف معارض.<sup>(٤)</sup> والاتحاد الأوربي تجاوز هذا السيناريو بالفعل. فالاتحاد لا ينبغي أن يكون مجرد مجلس دول، أو أمم متحدة إقليمية بدواع اقتصادية. فالسوق الموحدة والعملية الموحدة تقتضي التكامل، وكذلك الكيان القانوني الذي أوجده الاتحاد الأوربي. والاتحاد الأوربي ليس دولة كبيرة الحجم. كما أنه ليس ولن يكون قوة عظمى بالمعنى الذي كان للمصطلح في حقبة الحرب الباردة على الأقل. فالقوة العظمى قوة لديها القدرة على نشر قواتها وحماية مصالحها حول العالم. والولايات المتحدة الفاعل الوحيد القادر على ذلك لأجل غير مسمى. وعلى الأوربيين أن يتصالحوا مع حقيقة أن أوربا لم تعد المحور الأول لاهتمامات العالم.

---

(1) Arthur Salter, The United States of Europe. London: Allen and Unwin, 1931.

(2) Guy Verhofstadt, A United States of Europe. London: The Federal Trust for Education and Research, 2006.

(٣) يوشكا فيشر، "من الحلف إلى الاتحاد - أفكار عن غائبة التكامل الأوربي". محاضرة أقيمت في جامعة هம்பولت ببرلين، ١٢ مايو ٢٠٠٠، متاحة على

[http://europa.eu.int/constitution/futurum/documents/speech/sp120500\\_en.pdf](http://europa.eu.int/constitution/futurum/documents/speech/sp120500_en.pdf)

(4) Margaret Thatcher, 'The Bruges Speech': online at [www.margaret-thatcher.org/speeches/displaydocument.asp?docid=107332](http://www.margaret-thatcher.org/speeches/displaydocument.asp?docid=107332).

وبهذا فإن قرون عدة من تاريخ العالم بلغت منتهاها. ومع ذلك يمكن لأوروبا بل ينبغي لها أن تتطلع لأن تكون قوة إقليمية متقدمة لها نفوذ لا يستهان به في الشؤون العالمية.

### مربع ٧-٣: ما هو الاتحاد الأوروبي (وما ينبغي أن يكون)

١. قوة إقليمية وليس دولة كبيرة الحجم أو قوة عظمى.
٢. اتحاد ديمقراطي بين دول شبه ذات سيادة تقوم على قدرات جمعية.
٣. الطبيعة الديمقراطية للاتحاد الأوروبي ليست نياية في المقام الأول، بل تشاورية.
٤. يسعى لتشريع الجملى سواء في داخله أو على الساحة العالمية.
٥. تتقبل دولة الأعضاء المبدأ الدستوري باعتباره "عقدًا مستقلًا" لا عقد تبعية لسلطة أعلى.
٦. يشكل الاستقرار الدستوري الفعلي الذي يحظى به الاتحاد الأوروبي أساسًا لطبيعته الانتقالية. وشكله المؤسسي الأساسي قائم على ثلاثي الموضوعية والمجلس والبرلمان الأوروبيين لا يتغير إلا في حواشيه.
٧. الاتحاد الأوروبي يتعوم من حيث تواقفه مع التحولات المرتبطة بمصر العولمة.
٨. يتبنى منظور التعددية الفعالة.
٩. الاتحاد الأوروبي أوروبى. وذلك بسبب (أ) موقعه (ب) لزمته الحضارى (ج) رموزه.

بعض الاختلافات فى الآراء ووجهات النظر حول كنه الاتحاد الأوروبى، وكيف ينبغي أن ترتبط بالدول "الثلاث الكبار". فالمملكة المتحدة لها موقف يؤيد التعاون بين الحكومات، وإن لم يكن فى السنوات الأخيرة بالحدة التى كانت تؤمن بها السيدة ثاتشر. ويميل الساسة والمفكرون الألمان للنظر لأوروبا من منظور نموذج فدرالى يشبه نموذجها القومى. وينحو القادة الفرنسيون نحو منظور أكثر مركزية للاتحاد الأوروبى يرون أنه يدعم المصالح القومية. وهم فى العادة يعتبرون المصالح الأوربية والفرنسية متطابقة (بدرجة أقل حاليًا). وبعض الدول الأعضاء

الصغيرة تؤمن بمنظور اتحادى، إلا أن أغلبها تحذر منه لما فيه من تهديد وتقليص لنفوذها. والدول الأعضاء الجديدة تؤمن بالتعاون بين الحكومات بقوة نظراً لأنها أفلتت لتوها من سيطرة الاتحاد السوفيتى، ولا ترغب فى التسليم لدولة كبرى أخرى. والبون بين هذه الآراء شاسع لدرجة أن التوفيق بينها يبدو مستحيلاً. والتوفيق بينها مستحيل فعلاً بشكلها التقليدى، ولكن علينا أن ننظر إلى كل منها بطريقة جديدة.

إن الفدرالية (فى رأينا) مشروع ميت، لكن الفدراليين لديهم شىء يجب أن نتعلمه، وهو أهمية اتخاذ القرار والقيادة. وإن لم تدعم هاتان السمتان فلا مفر من أن يتجه الاتحاد الأوروبى نحو الركود والعجز النسبى فى الشؤون العالمية. والقيادة واتخاذ القرار بعد تدعيمهما يختلفان عن الفدرالية، ويمكن تحقيقهما بدون نظام فدرالى مكتمل الأركان.

إن أوروبا البينية أكثر مما ينبغى (وهو الوضع القائم حالياً) عليها قيود كبيرة. فهى تسمح للمصالح القومية بالتغلب على المصالح المشتركة؛ والدول الأكبر تسيطر عادةً على الدول الأصغر. ويتأكد النمط الشائع الذى يتمثل فى نسبة الفضل فى إنجازات الاتحاد الأوروبى الإيجابية للقادة القوميين فى الداخل وإلقاء اللوم على الاتحاد الأوروبى على أى خطأ يحدث على المستوى القومى. ولا بد أن يكون للمفوضية وقيادة المفوضية قدر مهم من السلطة. وعدم وجود قيادة فعالة فى المجلس والمفوضية يودى إلى الانحراف عن المسار والجمود. والمسؤولية عن الرقابة على أنشطة المفوضية واقتراحاتها تقع على عاتق البرلمان الأوروبى لا الدول وحدها.

إن الاتحاد الأوربي تجربة في الحكم بلا دولة. وإيجاد صيغة سياسية لأوروبا يعد الآن مهمة لا تقل إلحاحاً عن استئناف النموذج الاجتماعي وترتبط به في الحقيقة. ويرى أندرو مورافتشيك أن هناك "استقراراً دستورياً أوروبياً" قائماً على توازن مؤسسي.<sup>(1)</sup> ويرى أن الدستور المقترح ما كان ليضيف إلى ذلك الكثير. فالاتحاد الأوربي في الأساس شكل من الديمقراطية التشاورية وسيظل كذلك. وطبيعته الديمقراطية تتأتى في المقام الأول من ضرورة مناقشة السياسات المقترحة مناقشة صريحة وتتخذ القرارات بالإجماع قدر الإمكان. ويرى أحد الكتاب أن «مؤسسات الاتحاد الأوربي ينبغي قراءتها باعتبارها نسخة فوق-قومية من المثل التشاورية وتأول باعتبارها تعويضاً عن بعض نقائص الدولة القومية الدستورية».<sup>(2)</sup>

ويمكن إدراك الطبيعة الدستورية للاتحاد الأوربي بأجلى صورة عند منظر فلسفة التشريع جوزيف وايلر. يبين وايلر السبب في أن الاتحاد الأوربي ليس دولة كبرى ولا اتحاد دول ذات سيادة. وهو يستحق أن نورد شرحه بشيء من التفصيل:

«تتقبل العناصر الفاعلة الدستورية في الدول الأعضاء المبدأ الدستوري الأوربي لا باعتبار ذلك مسألة عقيدة قانونية كما الحال في الدولة الفدرالية لأنهم تابعون لسيادة وسلطة أعلى ترتبط بمعايير المبدأ الفدرالي هي المبدأ الدستوري. بل يتقبلونه بوصفه فعلاً طوعياً مستقلاً يتكرر بلا نهاية في كل

---

(1) Andrew Moravcsik, 'In defence of the democratic deficit: reassessing legitimacy in the European Union', Journal of Common Market Studies, 40/4 (2002).

(2) Christopher Lord, Democracy in the European Union. Sheffield: Sheffield Academic Press, 1998.

شأن جمعى فى المجالات المنفصلة التى تحكمها أوربا التى هى التعبير  
الجمعى عن الإرادات الأخرى والهويات السياسية الأخرى والجماعات  
السياسية الأخرى».<sup>(١)</sup>

والقول إن الإذعان "فعل طوعى مستقل" لا يعنى أن كل قرار يتخذ فى  
الاتحاد الأوروبى لا بد أن يحصل على موافقة كل الأطراف المعنية، وهو أمر  
مستحيل. بل معناه أن أفعال الإذعان والجهاز التشريعى الذى أنشئ يضم أندادا.  
يقول وايلر إن أوربا عالمية حتماً نظراً لما تضم من دول شتى وثقافات مختلفة. إلا  
أن المواطنين فى الاتحاد الأوروبى يألفون التشريعات والمعايير التى تضعها الإرادة  
الجمعية للدول الأعضاء. وهذه المعايير تستوعب من خلال عمل الاتحاد نفسه، لا  
من خلال المثل المجردة. فنحن مستعدون للإذعان لقرارات يتخذها نظام حكم يضم  
"آخرين" لاقتناعنا بأنهم يشاركوننا القيم. من ثم فالاتحاد الأوروبى «بناء صمم  
لتشجيع بعض فضائل التسامح والإنسانية».<sup>(٢)</sup>

الفرضية الخامسة: لا عودة للدستور فى حد ذاته. وأنا أكتب من منطلق  
شعورى بالتناقض حيال الدستور لأسباب سبق ذكرها. فهو يتجاهل الحاجة لإيجاد  
مبرر منطقى لوجود الاتحاد بعد ١٩٨٩ أو لمعالجة الهموم التى ساورت كثيراً من  
الناس بشأن "توسيع العضوية". وما من أحد استطاع أن يحدد ما إذا كان الدستور

---

(1) Joseph Weiler, 'Europe's Sonderweg', in K. Nicolaidis and Robert Howse (eds.), *The Federal Vision*. Oxford: Oxford University Press, p. 68.

(2) Joseph Weiler, *The Construction of Europe*. Cambridge: Cambridge University Press, 1999, p. 301.

مسعى جديداً كبيراً أم محاولة تافهة نسبياً. هل كان فتحاً سياسياً كبيراً لأوروبا أم مجرد عملية ترتيب أوراق؛ هذا أمر يتوقف على الذوق.

إلا أن فشله أمر جلل. فلا إجماع بين دوله الأعضاء على الخطوة التالية. يرغب البعض في مواصلة التصديق - خمس دول رأت ذلك منذ الاستفتاءين الفرنسي والهولندي. ولكن من الصعب إدراك المغزى. فالقادة الفرنسيون والهولنديون يصرون على أن مطالبة مواطنيهم بالتصويت مرة أخرى أو التصديق على الدستور في المجلس النيابي ليسا خيارين - فهو أمر "غير معقول" كما قال البعض. وبعض ممن يقرون التصديق يعارضون إعادة التفاوض بشكل قاطع. وفي مواجهة هذه المصاعب يتحدث غيرهم عن إحياء فكرة "أوروبا ذات سرعتين" حيث تتقدم مجموعة على البقية. أما كيف تعمل هذه الإستراتيجية بينما يقف اثنان من الأعضاء المؤسسين على جانب الطريق فأمر يتسم بالغموض.

ولكن ظهر في الآونة الأخيرة توجه آخر؛ إذ صوت الفرنسيون والهولنديون برفض الدستور لقلقهم عما قد يحدث لفرص العمل والحماية الاجتماعية. والحقيقة أن الدستور لم يقل الكثير عن هذين الجانبين. فلم لا تضاف بضع فقرات عن هاتين المشكلتين ثم يعاد طرح الوثيقة كاملة على الناخبين؟<sup>(1)</sup> ويمكن إضافة "ميثاق اجتماعي" للنص الحالي تضمن بعض الأساسيات في منظومات الحماية الاجتماعية في البلدان المختلفة. فتضمن استمرار "الخدمة العامة" (service publique) في فرنسا مثلاً. إلا أن الفكرة ليست مقنعة. ففكرة الإبقاء على بعض البنود الاجتماعية التي تقيد الدول - وأوروبا - ليست طريقة متعلقة للمضي قدماً.

---

(1) Angelica Scwall-Düren, The Way out of Europe's Constitutional Crisis. Berlin: Friedrich Ebert Stiftung, April 2006.

إذن ما العمل؟ الوضع ليس بالصعوبة التي يبدو عليها. فأكثر من ٩٠ بالمئة مما ورد بالوثيقة الدستورية موجود فعلاً في صورة معاهدات مختلفة ومبرمة. إذن فالعشرة بالمئة المتبقية هي التي يجب أن نركز عليها. ومن الخطأ استخدام لفظ "انتقاء" لوصف عملية كهذه، لأن ما يمكن التخلي عنه ضئيل ومتوافق داخلياً.

من المفيد أن تكون هناك عبارة مقتضبة ومتفق عليها (كتلك التي اقترحتها المفوضية لإحياء الذكرى الخامسة عشرة لمعاهدة روما) تجيب على سؤال يتعلق بالغرض من وجود الاتحاد الأوربي في وضع استجد بعد ١٩٨٩، ويمكن دمج تغييرات دستورية مقترحة فيه. وبينت الاستطلاعات التي أجريت بعد رفض الدستور أن نسبة كبيرة من مواطني أوروبا يؤيدون الاتحاد الأوربي، ولكن حين يسألون عن الغرض من الاتحاد الأوربي لا يحري كثير منهم جواباً.

إن التغيير الأهم للمستقبل يجب أن يتعلق باتخاذ القرار. والإجراءات التي أقرت في نيس تستغرق وقتاً طويلاً، وهي غير فعالة. فالأقليات يمكن أن تعرقل القرارات إلى ما لا نهاية لو شاءت. وتغيير رئاسة الاتحاد الأوربي كل ستة أشهر لا يضمن إيجاد قيادة متوافقة وقوية. وهناك خطوة نحو مزيد من استمرارية القيادة ستتخذ في يناير ٢٠٠٧ حين تتحد ألمانيا والبرتغال وسلوفينيا لطرح رئاسة "مشتركة" للمجلس. واقترح الدستور رئيساً جديداً للمجلس ينتخبه الأعضاء كل سنتين ونصف السنة، وهو ترتيب أفضل بكل تأكيد.

وفي هذا الاتجاه نفسه لا أجد غضاضة في دمج رئاستي المجلس والمفوضية في منصب واحد. وهي فكرة رفضت في إعداد الدستور باعتبارها "فدرالية" أكثر من اللازم، ولو أنها في رأيي ليست لها أية صلة في جوهرها بالفدرالية. والاقتراح

الذى ورد فى الدستور بتوحيد منصبى الممثل الأعلى للسياسات الخارجية والأمنية ومفوض العلاقات الخارجية معقول أيضا ويجب تنفيذه فى مرحلة ما. ولا أظن أن للاتحاد الأوروبى أى مستقبل مشرق لو ظل بين الحكومات أكثر من اللازم. ولا أعتقد أن إيمانى بهذا رأى يجعلنى "فدراليا". فالاتحاد الأوروبى لن يتحول إلى دولة قومية. إلا أنه بحاجة لآليات واضحة لاتخاذ القرار والقيادة. فالمحاسبة ستزداد فى نظام كهذا عنها فى النظام الراهن. ففى المجلس حاليا ليست ثمة نقطة يتوقف عندها اليورو. ونظام الرئاسة لمدة ستة أشهر معناه أن المحاسبة مبدأ وهمى.

#### مربع ٧-٤: المشكلات الهيكلية للاتحاد الأوروبى، ٢٠٠٦

١. كان الدستور بمثابة الخطوة الحفّاء فى التوقيت الحفّاء، لكن رفضه نكسة خطيرة وتركة عيونا كبيرة فى عمليات اتخاذ القرار.
٢. تجديد الفعالية الاقتصادية هي المفتاح لاستعادة شرعية الاتحاد الأوروبى ونموه فى الغد. إلا أن مؤسسات الاتحاد الأوروبى الحالية ليست لها سيطرة كبيرة على الإصلاحات المطلوبة.
٣. الحكومات القومية تميل إلى مغالبة الجماهير فى الداخل.
٤. استحداث اليورو يؤد إلى علاقة النمو.
٥. الجدل حول النموذج الاجتماعى مستقطب ويخلق تناقضا دائما بين السوق والعمل الاجتماعى.
٦. هناك توترات بين الدول الأعضاء الكبيرة والصغيرة وبين الدول الغنية والدول الفقيرة.
٧. المواطن يرفض التفكير فى زيادة الإنفاق على الدفاع.
٨. نمط الإنفاق فى الموازنة لا يتفق واحتياجات الاتحاد الأوروبى المستقبلى.



إذن ما الاتحاد الأوربي؟ لا أعتقد أن من اللائق أن نتركه دون تحديد طبيعته - وأن نفكر فيه باعتباره «طبقاً طائرًا غير معروف الهوية» كما قال جاك ديلور ذات مرة في تعليق ساخر شهير. ولا يكفي تعريفه بما ليس فيه: ليس تنظيمًا على الطريق إلى الفدرالية، وليس أحد أشكال التعاون البيني. ولا أظن أيضًا أن تشبيه الاتحاد الأوربي بدراجة لا تظل منتصبية إلا حين تسير وحدها يجدى نفعًا.

يمكن أن نعرف الاتحاد الأوربي بأنه "عصبة (أو تجمع) ديمقراطية لدول شبه ذات سيادة". ولا نرى في عبارة "شبه ذات سيادة" مصطلحًا يثير الجدل. فبعدًا عن أن السيادة لا تتجزأ فهي دائمًا مجزأة إلى داخلية وخارجية. والاتحاد عصبة لأن أيًا من دوله الأعضاء لها أن تفصل عنه (ولو أن هذا الحق لم يصنع بشكل رسمي إلا في الدستور). والاتحاد الأوربي ليس كيانًا فوق قومي، لأن الدول المكونة له لا تخفى بل تحتفظ بقدرات كبيرة على التصرف المستقل. ومع ذلك فالاتحاد الأوربي يختلف عن الأمم المتحدة لأن السيادة الرسمية مشتركة بحيث إن كل عضو فيه يقبل الأحكام الصادرة في محاكم الاتحاد الأوربي. وهو ديمقراطي، ولكن بمعنى الديمقراطية التشاورية في المقام الأول.

في محاضرة له في سنة ٢٠٠٠<sup>(١)</sup> تحدث يوشكا فيشر عن "نهائية" الاتحاد الأوربي، ولكن في صورة لا أظنها عملية أو مرغوبة. إذن فماذا تكون نهائية الاتحاد الأوربي - النقطة التي يتوقف فيها شكله الأساسي عن الخضوع لتغييرات ومراجعات؟ النهائية في رأينا قد تنطوي على أشكال من الديمقراطية التشاورية أكثر تطورًا مما نعرفه حاليًا وموجهة نحو تواصل إلكتروني. سيكون نظامًا يرجى أن يوازن بين القيادة النشطة والفعالة والحفاظ على الديمقراطية القومية والمحلية بل

---

(1) Fischer, 'From confederacy to federation'.

تدعيمها. وحماية الديمقراطية قد تكون أمراً بالغ الأهمية. فالقارة "المظلّمة" لها تاريخ مزعج لا يدع مجالاً لافتراض أن المستقبل سيمضى سلساً.

كنت في أثناء إعدادى هذا الكتاب واعياً بالمعنى التقريبى الذى يتداول به مصطلح "أوربا". فلفظ "أوربا" له معان مختلفة عدة. فقد يشير إلى شبه القارة ككل، وبالتالي يشمل بلدان كالنرويج أو سويسرا أو صربيا. وقد يقصد به مؤسسات الاتحاد الأوروبى الحاكمة - المفوضية والمجلس وغيرهما. وقد يشير إلى تجمع الدول أعضاء الاتحاد الأوروبى. لعل ثالث هذه المدلولات أقلها تداولاً، لكنه أهمها فى بعض جوانبه. وقد تتحول "أوربا" إلى "آلة تعليمية" لتبادل الأفكار والأفعال فى السياسة وفى الاقتصاد.

النهج الصريح للتنسيق يعد بمعنى من المعانى محاولة لفعل ذلك. لكنها تظل لا تعمل إلا على التقاطع بين المفوضية والدول الأعضاء. فلم لا يكون لدينا المزيد من الأشكال الأفقية للحوار ورسم السياسات يشمل تنوعاً فى الجماعات والتنظيمات؟ وقد تكون هذه شبكات كتلك التى اقترحها ج. ف. ريشار فى كتابه "منتصف النهار".<sup>(1)</sup> وقد تضم بعض ممثلى الحكومات الأعضاء وجماعات المجتمع المدنى والأعمال التجارية وقد تنظمها المفوضية. وفيما يتصل بمشكلات كالحد من الاعتماد على الوقود الأحفورى قد تطرح تساؤلات من قبيل: ما المدى الزمنى للتحويلات المطلوبة؟ وأين نريد أن نكون بعد عشرين سنة من الآن؟ وأي خيارات لدينا؟

---

(1) Jean-François Rischard, *High Noon: 20 Global Problems, 20 Years to Solve Them*. New York: Basic Books, 2003.

بدلاً من الحديث الفارغ عن التبعية قد تكون هناك محاولات حقيقية لنقل السلطة لمستوى أدنى أو إشراك المواطنين. ولن ينطوى هذا على إعادة سلطات بعينها للدول من باب تجريب احتمالات المشاركة من أسفل لأعلى. إذ تفترض "نظرية الحوكمة الجديدة" أن هناك سبلاً لإشراك المواطن المهتم بصورة مباشرة في عملية الحكم - إشراك الديمقراطية التشاورية على المستوى المحلى والديمقراطية الإلكترونية والحوارات العامة والحلول البديلة للنزاعات.<sup>(١)</sup> ففي ولايات عدة بالولايات المتحدة هناك مثلاً تنام مشهود في استخدام عمليات الحوكمة الجديدة.

النهائية تعنى وجود مناخ شعبى أوروبى متطور بصرف النظر عن بطء التقدم فى اللحظة الراهنة. ولكى يحدث هذا لا بد من وجود اتفاق حول لغة مشتركة يتعلمها المواطنون جميعاً. وهذه اللغة يجب أن تكون الإنجليزية. فالإنجليزية لم تعد لغة دول بعينها. بل هى اللغة العالمية. والنهائية تعنى تحديد حدود الاتحاد وإدراك أنها قد تتغير، وهى مسألة سننطرق إليها فيما يلى. فهى تعنى حيازة سلطة كافية تمكن الاتحاد من لعب دور فى السياسة العالمية لا باعتباره قوة كبرى ضمن قوى أخرى، بل باعتباره رائداً لحوكمة دولية.

الفرضية السادسة: الأسباب التى تجعل الدول كبيرها وصغيرها تتناضل فى سبيل هويتها تنطبق على الاتحاد الأوروبى أيضاً. ولنأخذ الولايات المتحدة مثلاً. ففي السنوات الأخيرة صدر كم كبير من الكتب يتناول هوية الولايات المتحدة وما ينبغى أن تعنيه.<sup>(٢)</sup>

---

(1) L. M. Salomon, The Tools of Government: A Guide to the New Governance. Oxford: Oxford University Press, 2002.

(٢) انظر مثلاً Peter Brimlow, Alien Nation: Common Sense About America's Immigration Disaster. New York: Harper Perennial, 1996.

يحدد صمويل هنتنجتون عددًا من الهويات الممكنة التي يمكن أن تنتسب لها الولايات المتحدة. ويتساءل: هل نحن "أمة عالمية" تجسد قيمًا مشتركة لدى الإنسانية كلها وتعبر عنها؟

«أم نحن شعب غربي ذو هوية يحددها إرثنا الأوربي ومؤسساتنا؟ أم نحن شعب فريد له حضارته الخاصة به كما قال أنصار "التميز الأمريكي" على مر تاريخنا؟ هل نحن أصلًا جماعة سياسية لا وجود لهويتها إلا في عقد اجتماعي يتمثل في "إعلان الاستقلال" وغيره من الوثائق التأسيسية؟ هل نحن متعدّدو الثقافة أم ثنائيو الثقافة أم ذوو ثقافة واحدة، هل نحن فسيفساء أم بوتقة انصهار؟<sup>(1)</sup>

أم أن الولايات المتحدة ليست أيًا من هذه الأشياء، بل هي إمبراطورية جديدة كما يرى البعض؟<sup>(2)</sup>

يرى مايكل والتسر أن كل أمريكي له هوية أخرى أيضًا.<sup>(3)</sup> وليس ثم من هو أمريكي وحسب. فهناك أمريكي-أيرلندي وأمريكي-لاتيني وأمريكي-أفريقي وهكذا. وما من أحد يخرج عن هذه الثنائية، لأن "الأمريكي-الإنجليزي" هوية أيضًا - ولو أنها بالنسبة لكتاب كهنتنجتون ليست مجرد هوية ضمن هويات أخرى. والهويات الثنائية بدأت في الظهور لدى شعوب أخرى - من قبيل "البريطاني-الآسيوي" أو "البريطاني-الكاريبّي" - ولا يسع المرء إلا أن يفترض أنها ستزداد انتشارًا.

---

(1) Samuel Huntington, *Who Are We?* New York: Free Press, 2004, p. 9.

(2) Niall Ferguson, *Colossus: The Rise and Fall of the American Empire*. New York: Penguin, 2004.

(3) Michael Walzer, 'What does it mean to be an American?' *Social Research*, 71/3 (1990).

لكننا ليست لنا هويات ثنائية على الصعيد الأوربي. وحين يقول المرء إنه سعيد بأن يكون ألمانيا وأوربياً معاً، أو ربما بافارى وألماني وأوربي، فهو يقول شيئاً مهماً. فهذا إعلان بالعالمية. ولكن ما من أحد يعترف نفسه بأنه "ألماني-أوربي" وليس من المرجح أن تزداد هذه الأوصاف الذاتية انتشاراً في المستقبل. والصفة "أوربي" أياً كانت لن تحاكي الصفة "أمريكي"، ولن تعامل الهويات المتعددة بالطريقة نفسها.

حاول يورغن هابرماس أن يحدد الهوية الأوربية من خلال مجموعة من المبادئ المجردة أطلق عليها مسمى "الوطنية الدستورية". فالاتحاد الأوربي أقيم على مبادئ الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وسيادة القانون.<sup>(1)</sup> ويعترف بأن مبررات ما أصبح الآن الاتحاد الأوربي في أيامه الأولى لم تعد تكفي - السيطرة على القوة الألمانية وإنهاء الحرب بين الدول. إلا أن المبادئ التي يحددها يمكن فصلها عن الدول القومية التي نشأت فيها أصلاً ونقلها إلى مستوى دولي.

تعرضت فرضية الوطنية الدستورية لنقد واسع، وهو نقد له ما يبرره في رأينا. فهي تسعى لتجنب كل مفاهيم الوطنية والانتماء. ومهما كان رأيك في تصور هنتجتون عن مكونات الهوية الأمريكية فهو يرفض فكرة إمكانية ألا تقوم إلا على معايير أخلاقية/قانونية. وقد لا نجد غضاضة في أن يغير هابرماس موقفه بعض الشيء في الآونة الأخيرة. فهو يرى الآن أن أوربا يجب أن تتطوى على "ارتباط فعال بروح خاصة" أو "نهج حياة خاص".<sup>(2)</sup> وهنا تكتمل الدائرة. فأى نهج حياة هذا؟ إنه لا شيء غير ما عرفه النموذج الاجتماعي الأوربي. إلا أنه يتخذ الخط

---

(1) Jürgen Habermas, The Postnational Constellation. Cambridge: Polity, 2009.

(2) Habermas, 'Why does Europe need a constitution?', European Union Institute, 2001, p. 8.

المألف الذى يرى أن النموذج الاجتماعى "خط دفاع" ضد العولمة، وهى نظرة خطأ فى رأينا.

نرى من جانبنا أن الاتحاد الأوروبى لكى يزدهر لا بد من وجود شىء ينتمى إليه المواطن، وهذا الشىء لا بد أن يكون جماعة. وليس من قبيل المصادفة أن الاتحاد الأوروبى فى أطواره المختلفة كان يطلق على نفسه دائماً مسمى "تجمع" (community). وقد تكون الجماعة عالمية، والاتحاد الأوروبى كذلك بالتأكيد. فهو ينطوى على قيم مشتركة يمكن التعرف عليها بوضوح فى استطلاعات الرأى التى تشمل أوربا كلها. وينبغى أن يكون لدى الجماعة شعور عام بالهدف أو أساس منطقى، وهو ما سبق أن طرحنا رؤية عنه بعد ١٩٨٩.

#### مربع ٧-٥ ما ينبغى للاتحاد الأوروبى أن يكون عليه

- نحاشى محاولة إحياء المعاهدة الدستورية.
- تعبير جديد عن الهدف موجه نحو عالم ما بعد ١٩٨٩:
- شحذ عمليات اتخاذ القرار بالأغلبية.
- صلاحيات قيادية أكبر للمجلس/المفوضية:
- وزير خارجية موحد:
- دمج حقيقى للقدرة العسكرية وتوجيهها نحو قدرات رد فعل سريع:
- أخذ قرارات صعبة تتعلق بالنهاية تشمل الحدود. ووضع سياسة إقليمية رصينة:
- استحداث إجراءات "حوكمة جديدة" مقترنة بغير أكبر من الشفافية.
- إعادة هيكلة جنسية لموازنة الاتحاد الأوروبى.

قد يكون التعليم من سبل إيجاد هوية أوروبية أكثر تكاملاً في المستقبل، ولا سيما التعليم العالي. ومنذ إنشاء السوق الموحدة زاد عدد الأوروبيين ممن يكتسبون مؤهلات خارج بلدانهم. والشركات والحكومات على السواء تريد عاملين عالميين ارتحلوا كثيراً حول العالم. والهوية الأوروبية تتميز بذلك ولا بد من تنميتها بموازاة الثقافات القومية التي تمتاز بالتنوع والتفاعل الداخلي. وليست هذه لعبة رابح وخاسر كما في المجالين الاقتصادي والسياسي. فما من هوية تمحو الأخرى.

ولا بد للجماعة أن تتسم ببعض مبادئ الاحتواء وبالتالي الاستبعاد. فالحدود حتمية بصورة ما. ولا بد أن يكون هناك "آخرون"، لكن هذا لا يعني أن العلاقات بالآخرين لا بد أن تكون عدائية بالضرورة. فالجار قد يكون طيباً وقد يكون خبيثاً؛ وكلاهما في النهاية جيران. ولكن أى مبادئ الاستبعاد يجب على الاتحاد الأوربي أن يتبع؟

يمكن تعريف "المشروع الأوربي" من منظور التوسعة اللا متناهية كما يستنتج من فكرة الوطنية الدستورية التي يبدو أنها لا ترسم حدوداً. فمجلس أوروبا يشمل روسيا وأوكرانيا. وإذا كانت أوروبا لا تمثل إلا مبادئ فلماذا تنكر عضويتها في المستقبل على أية دولة خارج حدودها، ولم لا تمتد هذه الحدود إلى ما لا نهاية؟ فإذا نشأت الديمقراطية الدستورية في مرحلة ما في كرجستان أو أرمينيا فما المانع من ضمهما؟ والمغرب تقدمت بطلب عضوية الاتحاد الأوربي في سنة ١٩٨٦ ولم يرفض طلبها إلا لأنها غير أوروبية. ولكن ليس مؤكداً أنها ليست كذلك. فمسمى "أوروبا" ظل لقرون يطلق على ما حول المتوسط بما في ذلك أغلب ما يعرف حالياً بشمال أفريقيا.

من الملاحظ أنه ليس ثم من يتحدث عن التوسعة غرباً (أو قليل من يفعلون)<sup>(١)</sup> مع أن الأطلنطى لم يعد له وجود تقريباً من ناحية الاتصالات. ولو كانت المبادئ هي ما يحدد ماهية الاتحاد الأوربي فالولايات المتحدة وكندا أولى بالعضوية من أوكرانيا أو روسيا، حيث إن كثيراً من تاريخهما كدولتين "أوربي". ويبين عدم التفكير في هذا الاحتمال أن الاتحاد الأوربي له حدود واحدة مقبولة.

تظهر الحدود الواقعية حول الاتحاد الأوربي شرقاً وجنوباً في الوقت الحالي. وهناك عدد من البلدان لو تقدمت بطلب للانضمام لما رُفض. ومن هذه البلدان آيسلنده والنرويج وسويسرا وكل بلدان البلقان لو حققت قدرًا كافياً من التقدم. والاتحاد الأوربي لديه التزامات حيال بلغاريا ورومانيا وتركيا. وليس هناك حالياً مرشحون محتملون آخرون للمستقبل القريب، ما يعطى الاتحاد فرصة لترتيب بيته.

لعل الحد الخارجي النهائي يشمل المجموعة المذكورة من البلدان مع احتمال إضافة أوكرانيا ومولدوفا وروسيا البيضاء ذات يوم - ولكن دون الامتداد إلى القوقاز أو إلى ما وراء تركيا (وبالتالي فلا امتداد إلى إسرائيل) أو إلى شمال أفريقيا. لماذا؟ لا لأن "أوروبا تنتهى عند هذا الحد" بمعنى تاريخي أو ثقافي ما؛ بل لسلسلة من أسباب غير هذه. فلا يمكن أن يقيم الاتحاد الأوربي سياسته الخارجية على انتماءات العضوية المحتملة، وإلا ارتبكت علاقاته بجيرانه الأقربين. كما أن على الاتحاد الأوربي أن يحتفظ بقدراته كعنصر سياسى فاعل وأن يطورها، وهو أمر لا يتسنى إلا بوجود آلية اتخاذ قرار فعالة. ولو ظل يتمدد إلى ما لا نهاية، فإن هذه القدرة تتناقص ولا تزيد.

---

(١) يشير جيريمي ريفكين إلى احتمال انضمام كندا للاتحاد الأوربي - مثلاً على ذلك بأن هاواي

ولاية أمريكية مع أنها تبعد أميالاً عن أراضي الولايات المتحدة. Jeremy Rifkin, The

European Dream. Cambridge: Polity, 2004.



على أية حال فالاتحاد الأوربي يواجه مشكلات كبرى في إقرار حدوده. ولا يمكن أن يتمدد إلى ما لا نهاية لو أريد له أن يكون جماعة لا مجرد مجموعة مبادئ واتفاقيات. ولكنه لا يستطيع أن "يعلن" بسهولة عن النقطة التى ينبغى أن ترسم عندها حدوده الخارجية المستقبلية. قد يعلن الاتحاد الأوربي التوقف عند النقطة الحالية فلا تطمح بلدان أخرى للانضمام إليه فى المستقبل المنظور. فيستحيل على كل من أوكرانيا ومولدوفا وروسيا البيضاء أن تصبح أعضاء كاملة العضوية.

هذا الموقف قد يلقي الترحيب من روسيا، ولكنه قد يحول دون إتاحة الفرصة للجمهوريات السوفيتية السابقة الثلاث للتحدث سياسيًا واقتصاديًا. ومن ناحية أخرى لو أعلن الاتحاد الأوربي صراحة أن الطريق مفتوح لثلاثتها للانضمام إليه فى مرحلة ما فقد ترى روسيا وربما دول مجاورة أخرى فى إعلان كهذا إعلانًا استعماريًا. إنه مأزق صعب لأن الواقع برمته غير مرضٍ - إذ يرسل رسائل مختلطة كما سبقت الإشارة. وقد رأينا لمحة من عواقبه فى الموقف الذى اتخذته روسيا بقطع إمدادات الغاز عن أوكرانيا والمطالبة بتحويلها بسرعة إلى السداد بأسعار السوق كاملة. وهى مواقف ترتبت على "الثورة البرتغالية" والتطلع المعلن للانضمام للاتحاد الأوربي.

إن مسألة الحدود يناقشها حاليًا قادة الاتحاد الأوربي تحت عنوان "قدرات الاستيعاب"، أى كم من البلدان يمكن للاتحاد الأوربي أن يستوعب دون تفكيك كبير. إلا أن هذا الجدل لا يتركز فى الأقاليم السوفيتية السابقة، بل يتركز سرًا أو علنًا فى تركيا. فانضمام تركيا موضع خلاف بين دول الاتحاد الأوربي الحالية ولأسباب شتى - حجمها وموقعها الجغرافى وتدنى مستوى نموها الاقتصادى. وحقيقة أنها مجتمع إسلامى فى أغلبه. والخطر الكبير فى الوقت الراهن يتمثل فى

أن المواقف الفصامية لدى قادة الاتحاد الأوروبي حبال تركيا سيفضى إلى وضع هو الأسوأ في العالم.

هناك عوائق كبرى تحول دون ضم تركيا للاتحاد الأوروبي، منها موقفها من مستقبل قبرص. ومع ذلك فلو أدار الاتحاد الأوروبي ظهره لتركيا الآن فالنتيجة قد تكون تباطؤ النمو فيها واستقطابها سياسيًا وشعور مجتمعتها بمرارة وتحوله شرقًا. ومن يتحدثون الآن عن وضع عراقيل في طريق تركيا عليهم أن يفكروا فيما إذا كانوا يريدون دولة مقسمة وربما معادية على أبوابهم.

الفرضية السابعة: في سعيه لتحقيق أهدافه الجغرافية-السياسية ينبغي أن يلجأ الاتحاد الأوروبي لعدد من أشكال القوة. وهناك بضع نقاط حساسة في أوروبا مسها الكاتب الأمريكي روبرت كاجان بمقارنته بين القوة (الولايات المتحدة) والضعف (الاتحاد الأوروبي).<sup>(1)</sup> فأحدهما لديه القوة (الولايات المتحدة) ويستخدمها، في حين أن الآخر لديه قليل من القوة (الاتحاد الأوروبي) فيسمو بنقاط ضعفه ويحيلها مبادئ سامية للتعاون. وعلى غرار كتاب جون غراي عن سلوكيات الرجل والمرأة<sup>(2)</sup> يرى كاجان أن الأوروبيين من كوكب الزهرة والأمريكيين من المريخ. فالولايات المتحدة "مذكر" لأن لديها اللجوء للقوة ولا تخشى استخدامها لتحقيق أهدافها. ويشق الاتحاد الأوروبي طريقه عن طريق فني الإقناع والإغراء "الأنثويين" (لأنه ليست لديه خيارات أخرى).

---

(1) Robert Kagan, 'Power and weakness', Policy Review, 11 (2002).

(2) John Gray, Men are from Mars, Women are from Venus. London: Harper Collins, 1993.

على أى فمن الخطأ استخدام القوة بهذه الطريقة الضيقة ومقارنتها "بالضعف". والالتزام بالقانون الدولى والتعاون للحد من تأثيرات تغير المناخ كلاهما من أشكال القوة. والعنف بدون تفاوض لا يجدى أو يكون محدوداً تماماً إن أجدى، لأنه لا يفضى إلى استقرار (كما نرى فى حالة العراق). أما الإقناع بدون احتمال وجود عقوبات فعالة فهو محدود بطبيعته أيضاً كما نرى فى مساعى الاتحاد الأوروبى الفاشلة لصرف إيران عن تطوير برنامجها النووى.

وتفرقة كاجان توازى تلك التى قال بها جوزيف ناى بين القوة الخشنة والقوة الناعمة. فالقوة الخشنة هى اللجوء للعقوبات لفرض الإذعان، وتشمل التهديد باللجوء الفعلى للقوة. ويعترف ناى القوة الناعمة بأنها حين يحقق بلد أو تنظيم أهدافه «لأن بلدان أخرى ترغب فى اتباعه وتروىها قيمة فتحنو حذوه».<sup>(1)</sup> إلا أن التفرقة مرة أخرى مضللة بسبب المصطلح نفسه. فلفظ "ناعمة" يشير ضمناً إلى الضعف والهشاشة. إلا أن أشكال النشاط التى تدرج تحت تصنيف القوة الناعمة ليست كذلك بالضرورة. فأين النعومة فى التفاوض الحاسم فى سياق "هيئة التجارة الدولية" مثلاً؟ وليس ثم شىء "صلب" حين يفضى التدخل العسكرى إلى مجتمع مفتت تدمره الانقسامات الداخلية كما حدث فى العراق.

على أى فالاعتراض الأول على التفرقة بين القوة الناعمة والقوة الخشنة أنها تدرج أكثر من اللازم ضمن فئة واحدة. وبما أن المقولات المدرجة فيما يلى كلها أشكال قوة أو قوة محتملة فالإذعان وبالتالي اللجوء للقوة قد يتحقق بما يلى:

■ تقديم نموذج يحاكيه الآخر؛

---

(1) Joseph Nye, The Paradox of American Power. Oxford: Oxford University Press, 2002, p. 8.

▪ الاشتباك الدبلوماسى، أى اللجوء للإقناع؛

▪ التنسيق الطوعى لبلوغ أهداف مشتركة؛

▪ استخدام الحوافز؛

▪ دفع الآخر للمشاركة فى منظومة ملزمة قانوناً (كهيئة التجارة العالمية)؛

▪ اللجوء للعقوبات القهرية (كالعقوبات الاقتصادية)؛

▪ اللجوء للعنف أو التهديد به.

وكلها عناصر لا تتفصل كل منها عن غيرها عملياً. وبعضها يؤدى لبعض آخر منها. فسيادة القانون مثلاً ليست فعالة إن لم تدعمها عقوبات قهرية. والتعددية - الحوكمة بالتشاور والإقناع - سمة جوهرية من سمات الاتحاد الأوروبى، وهى مبدأ قابل للتطبيق على نطاق واسع فى عالم يعتمد بعضه على بعض. أما فكرة أن القدرة على اللجوء للقوة يجب تركها للغير فلا معنى لها. فعلى الاتحاد الأوروبى أن يتخذ موقفاً يمكن وصفه بالتعددية الحاسمة، وهو نهج يؤكد على أهمية القانون الدولى والتفاوض والمصالحة، ولكنه يدرك أن التهديد باللجوء للقوة قد يكون ضرورياً لدعمها. ونادراً ما تعتمد التعددية مقولة «إما كل شىء أو لا شىء». فستكون هناك بالضرورة مناسبات تجتمع فيها بلدان العالم فى رأى. وعلى الاتحاد الأوروبى أن يفسح المجال «للتثنائية القائمة على مبادئ» - وهى مواقف تتدخل فيها دولة أو أكثر من دوله الأعضاء وتلقى مساندة الاتحاد كله (كبريطانيا فى سيراليون فى سنة ٢٠٠٠ على سبيل المثال).

هذا الرأى لا يعنى أن الاتحاد الأوربى يجب أن يمثل أحد عناصر توازن جديد للقوى بين عناصر متساوية فى تأثيرها. فالاتحاد الأوربى ليس دولة قومية، وليس الغرض منه أن يمثل ثقلًا مقابلًا للولايات المتحدة أو غيرها من القوى أو كتلات القوى. بل يمثل طليعة نظام حكم دولى تقتدى به من حيث المبدأ مناطق أخرى من العالم أو تتعلم منه أينما وقعت أخطاء.

لا بد أن تكون للاتحاد الأوربى قدرة عسكرية، وهذه من المسائل التى ظلت منعثرة إلى حد ما على الرغم من المسمى المتكررة. والاتحاد الأوربى لديه من الجنود المسلحين أكثر مما لدى الولايات المتحدة، ولكنه متخلف عنها إلى حد كبير من حيث القدرة التقنية. ومنذ إطلاق "مبادرة قدرات حلف شمال الأطلسى الدفاعية" فى أواخر التسعينيات بذلت سلسلة محاولات لتطوير قدرات أوروبا الدفاعية. وفى نزاع كوسوفا وقف الجيش الأمريكى على ضعف دول الاتحاد الأوربى فى الهجوم والتعبئة والتخابر والتحكم والاتصال.<sup>(١)</sup> وحينئذ علق النائب الأمريكى جيسى هيلمز بأن الاتحاد الأوربى «عجز عن القتال لينجو بنفسه من كيس ورقى مبلل».

وأجريت بعض التعديلات الناجحة، والتزمت حكومات دول الاتحاد الأوربى الخمس عشرة فى سنة ١٩٩٩ بتوفير قوة جماعية يمكن نشرها فى أراض خارج الاتحاد الأوربى فى غضون ستين يومًا، ويمكن دعمها لمدة اثنى عشر شهرًا. وفى ٢٠٠٤ ألحق بهذه المبادرة (التي لم تنفذ بعد) اقتراح بإنشاء "مجموعات قتالية" قادرة على الانتشار السريع والمدمع تضم كل منها ١٢٠٠-١٥٠٠ جندي.<sup>(٢)</sup> وفى

---

(1) Hans-Christian Hagman, European Crisis Management and Defence. Oxford: Oxford University Press, 2002.

(2) William Wallace, Is There a European Approach to War? London: European Foreign Policy Unit Working Paper, March 2005.

٢٠٠٣-٢٠٠٤ نشر خارج الاتحاد الأوربي ما بين ٦٠ و ٧٠ ألف جندي أوربي غير نظرائهم المشاركين في حلف شمال الأطلسي.

كانت الإستراتيجية الأمنية الأوربية التي وضعها الممثل الأعلى للسياسة الخارجية خافيير سولانا في ٢٠٠٣ وثيقة مهمة، وكانت أول محاولة منظمة لتحديد الأخطار التي يواجهها الاتحاد الأوربي في عالم ما بعد ١٩٨٩. واعترفت الوثيقة بالمستويات الجديدة للاعتماد المتبادل للمجتمع العالمي وحددت التهديدات الكبرى التي يتعرض لها أمن الاتحاد الأوربي: إرهاب بأسلوب جديد، انتشار نووي، نزاعات إقليمية، فشل دول، جريمة دولية.<sup>(١)</sup> وكان هناك اعتراف صريح بالحاجة أحياناً للقوة المسلحة للتعامل مع هذه المشكلات إلى جانب غيرها من الإستراتيجيات.

ولكنها قصرت عن اتخاذ موقف مؤثر من المشكلات الجديدة ودور القوة في مواجهتها. فالتأكيد على حفظ السلم وبناء الدول كلها أمور طيبة، ولكنها لا تكفي إن لم تكن هناك قوة تحفظ السلم بينما البناء ماضٍ في طريقه. ولا يزال تعليق كاجان اللاذع بأن الأمريكيين يغسلون الصحون والأوربيين يجففونها يصيب كبد الحقيقة. (وهناك رواية أخرى له هي أن الولايات المتحدة "تطم الباب" والاتحاد الأوربي "ينظف البيت").<sup>(٢)</sup>

---

(١) للاطلاع على تحليل مفصل انظر François Heisbourg, "The "European security strategy": Is it for real?", ESF Working Paper No. 14, 2003

(2) François Heisbourg, "The "European security strategy is not a security strategy", in Steven Everts et al., A European Way of War. London: Centre for European Reform, 2004.

هذا الوضع لا يقل تقلبًا عن وضع النموذج الاجتماعي الأوربي الذي يرتبط به ارتباطًا وثيقًا. كانت أوربا قبل ١٩٨٩ منطقة محمية قادرة على تكريس جهودها لتنميتها الاجتماعية-الاقتصادية؛ والعادات الراسخة لا تزول بسهولة. وتقوم سياسة أوربا الخارجية في جزء كبير منها على التوسعة وجذب الدول المجاورة لعضويتها. وسبق أن قلنا إن هذا التوجه استنفد أغراضه. ونحن بحاجة للنسخة المقابلة لجدول أعمال لشبونة للسياسة الخارجية؛ وهذه يجب ترجمتها إلى لغة يفهمها عامة الناس.

هل يمكن للاتحاد الأوربي أن يرسم سياسة خارجية متماسكة ومتكاملة؟ تميل الدول الأعضاء لحماية استقلالها في التصرف في هذا المجال قدر حمايته فيما يتصل بالضرائب والرعاية الاجتماعية. ولكن لو طرأت تغييرات في حوكمة الاتحاد الأوربي فلنا أن نتصور سياسة خارجية أكثر فعالية مما اتبع الاتحاد حتى الآن. فلا يرجح أن تتكرر الانقسامات التي نشأت حول حرب العراق في أغلب مجالات السياسة الخارجية التي يجب أن يواجهها الاتحاد الأوربي. وليست للاتحاد سلطة اتحادية تجب القرارات الجماعية أو الفردية لدولها الأعضاء؛ لكن هذا الوضع قد يمثل مصدر قوة بقدر ما يمثل مشكلة. فقد يحول دون اتخاذ قرار متعجل في مواقف الأزمات، إلا أن الحاجة للإجماع قد تحمي أيضًا من أية مغامرات غير مسؤولة.

أما مد دور الاتحاد الأوربي في العالم فلا بد أن يحد مما يمكن وصفه بالنفاق الأوربي، وهي ظاهرة سائدة بشكل مزعج حاليًا. وهناك ما لا يقل عن ثلاثة مجالات يتضح فيها ذلك للمراقبين من الخارج على الأقل إن لم يكن واضحًا للأوربيين أنفسهم بشكل دائم. يتعلق أحدها باستعداد الأوربيين (كما يشير كاجان)

للاحتماء بالقوة العسكرية الأمريكية، وفي الوقت نفسه لتعنيف الأمريكيين حين يخفقون. وتُتهم نظم الرعاية الاجتماعية الأوروبية بإحجام النخب القوميين عن الاستثمار في تحديث قواتهم المسلحة ونظم تسليحها.

والمجال الثاني فشل الدول الأوروبية في إعادة قراءة ماضيها الاستعماري لا سيما في ضوء تنوعها الثقافي المكتشف حديثاً. وكان الأوروبيون هم المعتدون في المجتمع العالمي لمدة طويلة. والحديث عن قيم أوروبية قد يكون حديثاً أجوف في بقاع أقل تطوراً في العالم لا تزال تناضل بقايا الاستعمار الطويلة الأمد. وعندما كانت الديمقراطية ناشئة في أوروبا وظلت كذلك حتى الستينيات أنكرت على الرعايا الاستعماريين.

كانت أفريقيا والشرق الأوسط وأجزاء من آسيا مقسمة بشكل تعسفي من قبل القوى الاستعمارية الأوروبية. وكثير مما تعانيه هذه المناطق من مصاعب حالياً ناجم عن هذا الإرث الذي حلت محله الحرب الباردة بشكل متواصل. والمعارك بين القوتين العظميين كانت تخاض بالوكالة في هذه البقاع من العالم. وسيعتمد مستقبل أوروبا إلى حد كبير على قدراتها على بناء مجتمعات تعددية ومكافحة العنصرية. ولا نقترح في هذا المقام أن تقدم الدول الاستعمارية السابقة اعتذارات علنية عن ماضيها. لكن الترويج لقيم أوروبا اليوم لن ينجح إلا إذا واکبه قبول واقعي للجانب القبيح من نزعة المغامرة الأوروبية. وكما يقول كريس باتن علينا أن نتجنب الانسياق وراء «القادة الذين يرون أننا نجلس على مستوى أخلاقي أعلى في أوروبا... نعمل بكل ارتياح على نسيان غرف الغاز ومعسكرات الاعتقال وتراثنا المسيحي من معاداة السامية وبغض الإسلام».<sup>(1)</sup>

---

(1) Chris Patten, Not Quite the Diplomat. London: Allen Lane, 2005.



وأخيراً فالنفاق حيال العالم النامي يتضح فى حمائية أوروبا الزراعية ومواقفها المترددة من التغيير. والاتحاد الأوروبى يرغب فى أن يكون قوة كبرى فى مساعدة المناطق الفقيرة فى العالم على النمو. إلا أن استمرار سياسة الحماية الزراعية، وعلى الرغم من الامتيازات التى منحت لمنتجات العالم الثالث ترسل رسالة مختلفة.

**فرضيتى الأخيرة:** على خلاف الظاهر هناك فرصة لأوروبا الآن؛ فرصة لإعادة الشحن اقتصادياً ولأن تكون فى طليعة التغيير. والمشروع الأوروبى تهاوى فى نظر الكثيرين حتى أن بعضاً من أخلص أنصاره تساورهم الشكوك أو يعيدون النظر فيه. ويقول أحد هؤلاء إنه ظل لسنوات متفائلاً بشأن مستقبل الاتحاد الأوروبى ولاحظ كيف جذب الاهتمام حول العالم، إلا أن «هذه الثقة بدأت تهتز فى داخلى ... فالسحب تتجمع وربما كانت عاصفة». والجهد الأوروبى اليوم «يفتقر إلى الحماس».<sup>(١)</sup>

وذهب غيره إلى أبعد من ذلك. فيرى المؤرخ نبال فيرجوسون مثلاً أن الاتحاد الأوروبى «كيان على شفا الانهيار بل ربما على شفا الدمار». وهو لن يخنق على المدى القصير، بل قد يخفت ويتلاشى. وهو فى رأيه ما حدث مع تنظيمات مثل "منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية" التى صارت اليوم هيئة للتحليل والتقارير الاقتصادية، ولكنها كانت ذات يوم نموذجاً لإعادة بناء أوروبا عقب خطة مارشال للمعونات. وقد يصبح الاتحاد الأوروبى ذات يوم «مجرد إدارة متواضعة

---

(1) Pascal Lamy, 'Towards World Democracy. London: Policy Network, 2005, pp. 27 and 31.

لجمع البيانات لها مكاتب وثيرة. ومهمة في مدينة بروكسل أو غيرها».<sup>(1)</sup> ويرى فيرجوسون أن كم المشكلات الاقتصادية والسياسية والتنظيمية التي يواجهها هائل. هذه المشكلات حقيقية. وكما قال ماركس ذات مرة عن الرأسمالية فقد ينهار الاتحاد الأوربي تحت وطأة تناقضاته. والرأسمالية لم تتداع، بل دخلت في أطوار جديدة. وقد يمر الاتحاد الأوربي بحالة مماثلة نظراً لأنه كان وسيظل حريصاً على الإصلاح. والعامل الأهم الذي يعيد الشرعية للاتحاد الأوربي إعادة صياغة النموذج الاجتماعي كما ورد في كتابنا هذا. وهي مهمة مستحيلة بكل المقاييس كما حاولنا أن نبين أيضاً. ودول الاتحاد الأوربي الأكثر تطوراً لديها من حيث المبدأ مميزات تنافسية عديدة على الساحة العالمية الجديدة. وكثيراً ما يقال إن الاتحاد الأوربي من نواتج النخبة ولم يأت بإرادة الناس. ونحن نختلف مع هذا الرأي، فالاتحاد الأوربي أنشأته أو صدقت عليه حكومات منتخبة ديمقراطياً وبصورة تراكمية. وبينما أنه بدلاً من الانقلاب على النخب هناك شيء آخر يحدث. وهذا الشيء مسار تطور ينطوي على استمرارية - بعد ١٩٨٩ - حين بدأ التمزق.

---

(1) Niall Ferguson, 'The end of Europe?', American Enterprise Institute Bradley Lecture, Washington, 1 March 2004, p. 2.

## ملحق

### رسالة مفتوحة عن مستقبل أوروبا

هذه الرسالة التى دونها أولريك بك نشرت فى أكثر من ثلاثين صحيفة فى بلدان الاتحاد الأوروبى وغيره على مدى ثلاثة أسابيع فى يونيه ٢٠٠٥. وهى بمعنى من المعانى تضاهى رسالة يورغن هابرماس وجاك ديريدا التى استهللنا بها كتابنا هذا. وأثارت نقاشاً حاداً كرسالتهما.

إن الدستور الأوروبى المقترح ميت. والشعبان الفرنسى والهولندى عبرا عن رأيهما. ولكن أية مشاعر كانت وراء رفضهما؟ خليط من الأفكار والأحاسيس ربما: «أغيثونا، فنحن لم نعد نفهم أوروبا»؛ «أين حدود أوروبا؟»؛ «أوروبا لا تفيدنا بدرجة كافية»؛ «نمط حياتنا تغير».

مات الدستور. يحيا ... ! يحيا ماذا؟ هذا شىء يقرره الأوروبيون. ولا ينبغى أن نسمح للمتشككين الأوروبيين أن يحددوا الأولويات. علينا أن نتصرف ونتعامل مع الرفض بطريقة إيجابية وبناءة.

بعد الاتحاد الأوروبى التجربة الأكثر أصالة والأنجح فى بناء المؤسسات السياسية منذ الحرب العالمية الثانية. إذ أعاد توحيد أوروبا بعد سقوط سور برلين، وبلغ بالتحول السياسى مبلغاً بعيداً طال أوكرانيا وتركيا، لا بالجيش كما حدث فى الماضى، بل بسبل سلمية. وبابتكاراته الاقتصادية لعب دوراً فى تحقيق الرخاء للملايين وإن كان مستوى نموه محبطاً فى الآونة الأخيرة. وأعان إحدى أفقر بلدان

أوروبا وهي أيرلنده على الوصول إلى مصاف أغناها. وكان له دور حيوى فى تحقيق الديمقراطية فى إسبانيا والبرتغال واليونان، وهى بلدان كانت تترزح تحت حكم نظم استبدادية.

يقول أنصار الاتحاد الأوروبى دائماً إن الاتحاد حافظ على السلم فى أوروبا لأكثر من خمسين سنة. وهذا ادعاء مشكوك فى صحته. فحلف شمال الأطلسى ووجود الأمريكيين كانا العامل الأهم. لكن ما حققه الاتحاد أعمق؛ إذ قلب المؤثرات الخبيثة فى تاريخ أوروبا - القومية والنزعة الاستعمارية وروح المغامرة العسكرية - رأساً على عقب؛ وأنشأ أو دعم مؤسسات - كالمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان - تدين بل تسن التشريعات ضد الفظائع التى تصم ماضى أوروبا نفسه.

ليس ما يزعج الناس فشل الاتحاد الأوروبى، بل نجاحه. فإعادة توحيد غرب أوروبا وشرقها كان حلمًا مستحيلًا منذ عشرين سنة. ولكن حتى فى الدول الأعضاء الجديدة يتساءل الناس: «إلام ينتهى كل هذا؟» هذه المشاعر تدفع إلى عودة وجدانية لحمى الدولة الأمن. وإذا ألغى الاتحاد الأوروبى فجأة، فإن الناس سيشعرون بدرجة أقل من الأمن فى هوياتهم القومية والثقافية. ولنقل مثلاً إن المتشككين الأوربيين فى بريطانيا نجحوا وانفصلت بلادهم عن الاتحاد الأوروبى. هل سيساور البريطانيين إحساس أوضح بالهوية؟ هل سيتمتعون بقدر من السيادة أكبر فى إدارة شؤونهم؟

لا هى الإجابة عن كلا السؤالين. سيواصل الإسكتلنديون والويلزيون تطلعهم إلى الاتحاد الأوروبى بكل تأكيد بما قد يفضى إلى تفكك المملكة المتحدة. وستفقد بريطانيا - أو إنجلترا - سيادتها ولن تكسبها لو كانت السيادة تعنى القدرة الحقيقية على التأثير فى العالم. فكثير من القضايا والمشكلات تفوق طاقة الدولة القومية ولا مجال لحلها ضمن حدود الدولة القومية.

المفارقة أن التفكير القومي أو الانعزالي في العالم المعاصر قد يكون ألد أعداء الدولة ومصلحتها. والاتحاد الأوربي ساحة يمكن فيها مبادلة السيادة بالقوة الحقيقية وتغذية الثقافات القومية وتحسين النجاح الاقتصادي. والاتحاد الأوربي في موضع أفضل لخدمة المصالح القومية بدرجة تفوق ما قد تفعله الدول فرادى في التجارة وانهجرة والقانون والتنظيم والبيئة والدفاع والعديد من المجالات الأخرى.

لنفكر في الاتحاد الأوربي لا باعتباره "دولة غير مبسرة" أو "ولاية اتحادية غير مكتملة"، بل بوصفه شكلاً جديداً من المشروع العالمي. فالناس يخشون من نشأة دولة عظمى فدرالية محتملة، وهم على حق في ذلك. وأوروبا الناهضة لا تنشأ على ركام الدول. بقاء الدولة شرط لظهور أوروبا العالمية؛ والعكس صحيح اليوم أيضاً ولأسباب ذكرت لتوها. فعملية الاندماج الأوربي تمت لمدة طويلة من خلال استبعاد الاختلاف. لكن الوحدة تختلف عن التماثل. والتنوع ليس المشكلة من منظور عالمي. بل هو الحل.

عقب رفض الدستور يبدو مستقبل الاتحاد الأوربي بلا ملامح وغير مؤكد. ولكن لا ينبغي أن يكون الحال كذلك. فعلى أنصار أوروبا أن يطرحوا على أنفسهم ثلاثة أسئلة: هل نريد أوروبا التي تدافع عن قيمها في العالم؟ هل نريد أوروبا القوية اقتصادياً؟ هل نريد أوروبا النزيهة والعادلة اجتماعياً؟ وهي أسئلة إلى البلاغة أقرب، لأن كل من يتمنى النجاح للاتحاد الأوربي لا بد أن يرد بالإيجاب على ثلاثتها جميعاً.

هناك نتائج ملموسة عديدة تترتب على ذلك. فلو أريد لأوروبا أن تُسمع وتقوم على الساحة العالمية فلا مجال لأن نعلن فجأة نهاية التوسعة، ولا أن ندع نظام الاتحاد الأوربي في الحوكمة على حاله. فالاتحاد وسيلة للارتقاء بنشر السلم والديمقراطية والأسواق المفتوحة. ولا أمل في استقرار البلقان مثلاً لو انقطع الأمل

فى انضمامه للاتحاد الأوروبى. واندلاع نزاع جديد فيه سيكون كارثة. وسيخسر الاتحاد الأوروبى نفوذًا هائلًا من الناحية الجغرافية-السياسية لو قرر عدم ضم تركيا.

هناك اعتبارات مماثلة تنطبق على الحوكمة. فلا سبيل لأن يلعب الاتحاد الأوروبى دورًا عالميًا مؤثرًا بدون المزيد من التجديد السياسى. ولا بد من استمرار اقتراحى إصلاح قيادة المجلس وإقرار وزير خارجية واحد للاتحاد الأوروبى. ولا بد من وسيلة أكثر فعالية لاتخاذ القرار من النهج البطيء المتبقى من اتفاقيات نيس. والاقتراحات الواردة فى الدستور بالتشاور مع المجالس النيابية القومية قبل إقرار سياسات الاتحاد الأوروبى تعتبر ديمقراطية ومعقولة.

والنفوذ السياسى والدبلوماسى يعكس الوزن الاقتصادى دائمًا. وهنا يجب على أنصار أوروبا أن يحثوا المفوضية وقادة الدول الأعضاء على التصرف. ونحن نعلم أن أصوات الناخبين الراضية فى فرنسا وهولندا دافعها هموم اجتماعية واقتصادية - وهى هموم تحولت إلى المخاوف المشار إليها آنفًا. وعلى الرغم من نجاحاته الأخرى فأداء الاتحاد الأوروبى على الصعيد الاقتصادى ليس جيدًا بما يكفى. فمستويات النمو فيه أقل من مثيلتها فى الولايات المتحدة بكثير، فضلًا عن دول أقل تطورًا كالهند والصين.

لا بد لأوروبا أن تنتهى للتغيير. ولكن إلى جانب الإصلاح لا بد أن يحتفظ الأوروبيون باهتمامهم بالعدل الاجتماعى بل أن يعمقوه. وقد دعا رئيس الوزراء البريطانى طونى بليز لحوار على مستوى أوروبا حول هذا الموضوع. ونرى أنه أصاب فى ذلك. فهناك دول حققت نجاحًا مشهودًا فى ربط النمو الاقتصادى

بمستويات عالية من الحماية الاجتماعية والمساواة، لا سيما في دول شمال أوروبا. فلنر ما يمكن لبقية أوروبا أن تتعلم منها ومن غيرها من الدول الناجحة حول العالم. إن رفض الدستور يسمح للأوروبيين بمواجهة بعض الحقائق الأساسية والتعامل معها. وقد يمثل الاتحاد الأوروبي عنصر تأثير كبير على الساحة العالمية في القرن الحالي. وهذا ما يرنو إليه أنصار أوروبا.





## مسرد مصطلحات

|  |   |
|--|---|
| activism                                       | الفاعليّة                               |
| ageism   | التحيّز ضد كبار السنّ                   |
| ageism   | التمييز العمريّ (التحيّز ضدّ المُسنّين) |
| corporatism                                    | المركزيّة النقابيّة                     |
| cultural pluralism                             | التعدّدية الثقافيّة                     |
| cutting-edge                                   | حديث، عصريّ                             |
| employability                                  | القدرة على العمل                        |
| EMU (European Monetary Union)                  | الاتحاد النقديّ الأوروبيّ               |
| European Social Model (ESM)                    | النموذج الاجتماعيّ الأوروبيّ            |
| fossil fuel                                    | الوقود الأحفوريّ                        |
| hospital)~Foundation (                         | وقف (مُسْتَشْفَى ~)                     |
| full-time work                                 | العمل المتفرّغ                          |
| information and communication technology (ICT) | تقنية المعلومات والاتصالات              |
| inheritance tax                                | ضريبة التّركات                          |

|                       |  |
|-----------------------|--|
| inter vivos           | الهدية تُقدَّم في حياة مانحها ولا تُردّ          |
| inter-governmentalism | التعاون البيّنِيّ                                |
| interventionism       | مبدأ التّدخل                                     |
| macroeconomic         | الاقتصاديّ الكليّ                                |
| monocultural          | أحاديّ الثقافة                                   |
| multiculturalism      | تعدّد الثقافات                                   |
| outsourcing           | الاستعانة بمصادرٍ خارجيّة                        |
| part-time             | غير مُنفَرَّغ                                    |
| peer pressure         | الضغط الجمعيّ (ضغط الجماعة على الفرد حتّى ينصاع) |
| philanthropy          | البرّ  |
| populism              | الشعبيّة   |
| protectionism         | فرض الحماية                                      |
| recyclable            | قابل للتدوير                                     |
| secondary economy     | الاقتصاد الفرعيّ                                 |
| Single Market         | السوق الموحّدة                                   |
| social dumping        | الإغراق الاجتماعيّ                               |

|                            |                               |
|----------------------------|-------------------------------|
| social welfare             | التكافل الاجتماعيّ            |
| supply-side policy         | سياسة أولويّة العرض           |
| supranational              | فوق-قوميّ                     |
| tax break                  | الإعفاء الضريبيّ              |
| typology                   | تصنيف                         |
| VAT (Value Additional Tax) | ضريبة القيمة المضافة          |
| welfare                    | الرّفاه؛ الرّعاية الاجتماعيّة |
| welfare state              | دولة الرّفاه                  |



المؤلف في سطور:

أنطوني جيدنز

هو المدير السابق لـ "مركز تحليل الإقصاء الاجتماعي" (LSE) وزميل كلية كينج بجامعة كامبريدج.

كتب للمؤلف:

- capitalism and modern social theory 1971.
- New Rules of sociological method. 1976.
- Emile Durkheim. 1978.
- Sociology, 1988.
- Beyond left and right .1994.



## المترجم فى سطور:

### د. عبد الوهاب علوب

أستاذ مساعد اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميشيجن (آن آربر) وله عديد من المؤلفات فى تخصصه وعدد وافر من الترجمات عن الإنجليزية والفارسية والطاجيكية. ومن أبرز مؤلفاته "الأدب الفارسى الحديث والمعاصر"؛ "المسرح الإيرانى"؛ معجم "الواعد" (فارسى-عربى)؛ معجم "الفارس" (عربى-فارسى)؛ "معجم ألفاظ التراث" (إنجليزى-عربى-إنجليزى). ومن ترجماته عن الإنجليزية "نهاية العالم"؛ "إنجيل أمريكا"؛ "ديانة الساميين"؛ "العمارة الإسلامية فى مصر"؛ "الإسلام فى البلقان"؛ "ثقافة العولمة"؛ "فعل القراءة"؛ "السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية"؛ "قصة الثورة الإيرانية"؛ "أسفار العهد القديم فى التاريخ"؛ "مصادر دراسة التاريخ الإسلامى"؛ "الموجة الثالثة: التحول الديمقراطى فى أواخر القرن العشرين"؛ "القوى العظمى: التغيرات الاقتصادية والصراع العسكرى من ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠"؛ "تون والقلم"؛ "تاريخ المغول"؛ وعن الفارسية "أسمار البيغاء"؛ "تاريخ الجزيرة العربية والإسلام"؛ "حكايات إيرانية"؛ وعن الطاجيكية "الطاجيك فى مرآة التاريخ" وغير ذلك.





التصحيح اللغوى: نهلة فيصل

الإشراف الفنى: حسن كامل

